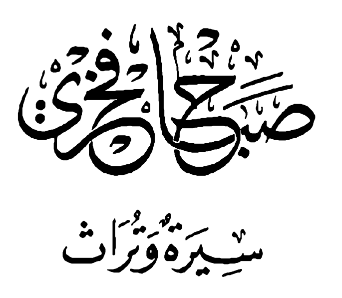


تصوير إحسان قطرية
شذا نصّار
صباح فخري
سِيرة وتُراث
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
هاشيت انطوان
مراجع
SHAZA
20/10/2014


صبحي فخري
سيرة وتراث

© **هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019**
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

رسم الغلاف: **شذا نصار**
خطّ الغلاف والعناوين: **أحمد مفتي**
التصميم الفنّي: **بسام قهوجي**
متابعة النشر: **باسكال قهوجي**
طباعة: **53Dots**
تجليد: **شركة فؤاد البعينو للتجليد ش.م.م.**

ر.د.م.ك.: 978-614-469-298-1

موّل طباعة هذا الكتاب الأستاذ باسل سماقية، رئيس الجالية السورية في مصر.

شذا نصّار



سِيرَةٌ وتُرَاث

هاشيت أنطوان
مراجع

المراجع المعتمدة

تسجيل صوتي للأستاذ صباح فخري في حواره مع المؤلفة.

أوراق للحوار موقّعة بخط يد الأستاذ صباح فخري.

أرشيف صباح فخري من الأغاني مجموعة في كتاب خاص به.

السيّدة فاطمة الزهراء أبو قوس.

كتاب «مئة أوائل من حلب» للمؤرخ عامر رشيد المبيض.

كتاب «شمس سوريا تسطع على أوروبا» للمؤرخ عامر رشيد المبيض.

كتاب «نهر الذهب في تاريخ حلب» للغزي.

كتاب «الدولة الحمدانية» للدكتور أحمد عدوان.

«زبدة الحلب في تاريخ حلب» لابن العديم الحلبي الحنفي.

الصور

معظم الصور الواردة في هذا الكتاب من أرشيف الفنّان صباح فخري.

المصادر الأخرى:

أرشيف دار الصياد، مديرية السياحة السورية، مديرية الآثار السورية، جمعية العاديات (حلب)، الدكتور سامي المبيض، السادة مروان قربللي، لؤي الداخل، باسل نصار، نور الدين حسن، سلام موسى، والسيدة شذا نصار.

ص 6: Granger Historical Picture Archive / Alamy Stock Photo • ص 10: MARKA / Alamy Stock Photo • ص 12: Olga A. Kolos / Alamy Stock Photo • ص 17: Rex / Allen / Alamy Stock Photo • ص 20 و23: Andrey Akimov / Alamy Stock Photo • ص 26: Shutterstock • ص 37: Artefact / Alamy Stock Photo • ص 41: LOOK / Die Bildagentur der Fotografen GmbH / Alamy Stock Photo • ص 42: Sklifas / Steven / Alamy Stock Photo • ص 45: Jo Whitworth / Alamy Stock Photo • ص 47: Peter Horree / Alamy Stock Photo • ص 48: Yaser Alamoudi / Alamy Stock Photo • ص 51: Historic Collection / Alamy Stock Photo • ص 65 (يمين): age fotostock / Alamy Stock Photo؛ (يسار): Norimages / Alamy Stock Photo • ص 96: Shutterstock • ص 127: © Photo Josse / Leemage / Bridgeman Images • ص 130: UtCon Collection / Alamy Stock Photo • ص 152: Historic Collection / Alamy Stock Photo • ص 163: هاشيت أنطوان • ص 212: Barry Iverson / Alamy Stock Photo • ص 242: Paul Carstairs / Alamy Stock Photo • ص 269: Karim Jaafar / AFP • ص 271: Ebrahim Adawi / AFP • ص 283 (الصف الثاني، يسار): AFP Photo / HO / The Official Facebook Page of the Syrian Presidency • ص 289: Fethi Belaid / AFP • ص 290-291: Louai Beshara / AFP.





حلب، منمنمة من مخطوطة تركية (1534-1536).

الإهداء

إلى حُبٍّ قديمٍ مازال ينبضُ في قلبي

إلى عشقٍ تملّك كياني

إلى دمعةِ فراق....

إلى لهفةِ مُشتاق...

إلى فرحةِ لقاء...

إلى غرامٍ غادرتُه ولم يُغادرني

إلى ملعبِ طفولتي

إلى غزلِ مُراهقتي

إلى أوّل مقطوعةٍ عزفها البشر، ودوّنها الحجر..

إلى مسقطِ رأسي .. إلى قلعتي ...

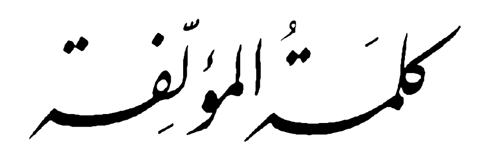
إلى مملكةِ التاريخ التي أنجبت للتراث معجزة..

وللفنِّ أسطورة ...

إلى الشآم حُبّي

إلى حلب

أُهدي كتابي



بين دفّتي هذا الكتاب، أوراقٌ دَوّنتُ فيها خلاصة مسيرة حياة لحالة فنية نادرة، تمثّل رمزًا من رموز الوطن العربي والمشرق، وقلعةً ثانية لمدينة التاريخ الأبديّة حلب الشهباء.

ابتدأتها بحوار معه، امتدّ على ما يقارب الثلاثة أعوام، في زيارات مكّوكية بين منزلينا، بين الروشة وصربا. سجّلتُ الحوار... جمعت الكلمات... نقلت الأفكار... سردتُ الأحداث... تابعتُها في مصادرها.

نقلتُها تمامًا كما سردها صاحبها. وأعدت صياغتها بأسلوب لم يبتعد عن حقيقة الحدث. كنت أقرأ له كلّ فقرة أنتهي من كتابتها، ليوافق عليها. وقد كتبَ على كثير من الأوراق بخطّ يده. احتفظت بخطّه، وبتسجيل صوته وهو يملي عليَّ حكاياته.

قادني الحوار معه إلى أسئلة كثيرة، جلتُ من خلالها في أعماقه، فلسفته، تصوّفه. تعرّفت إلى أفكاره في الدين والدنيا، في الحياة وفي الحياة الأخرى. أبحرنا في الفنّ القديم، في التراث، في العلم وفي الوطن.

حياته - مدّ الله في عمره - رحلاتُ سفينة حملتْ على متنها أجمل أنغام التراث، وأروع قصائد العرب، وأبسط أغنيات الشعوب، وأهازيج الزمن الذي مضى. أبحرتْ في أنحاء المعمورة... وكان صباح ربّانها.

ثمانون عامًا، كان فيها صباح فخري يغنّي على مسارح الدنيا، بدون توقّف. منذ طفولته المبكرة، حتّى شيخوخته المهيبة.

في هذا الكتاب كثيرٌ ممّا روى، وبعضٌ من أرشيفه.

كثيرون حاولوا ذلك، مشكورين. بل ابتدأ بعضهم بتدوين ما يمليه من سيرته. وكنتُ من ثابرتْ على إنجاز ما أضعه اليوم بين أيديكم.

وُلدت الفكرة من رحم سؤال طرحه عليَّ بعض الأصدقاء في بيروت: «لماذا اشتهرت القدود الحلبية؟ وما الفرق بين القدّ والموشّح؟».



الإجابة عن السؤال الأوّل كانت سريعة، لم أطل التفكير فيها: صباح فخري.

وبدأتُ أفسّر معنى القدّ والموشّح، ثمّ توقّفت لأقول لهم: أفضّل أن أنقل لكم الإجابة الحقّ عمّن كان بها خبيرًا.

في اليوم ذاته، اتّصلت بملك القدود والموشّحات، لأحظى بالإجابة المفيدة. فما كان منه إلّا أن استرسل في حديث انطلق من علم ومعرفة وممارسة. ما اضطرني إلى مقاطعته:

— أستاذي الكريم، هذا الحديث الممتع يتطلّب مني أن أسجّله، هل لديك مانع؟

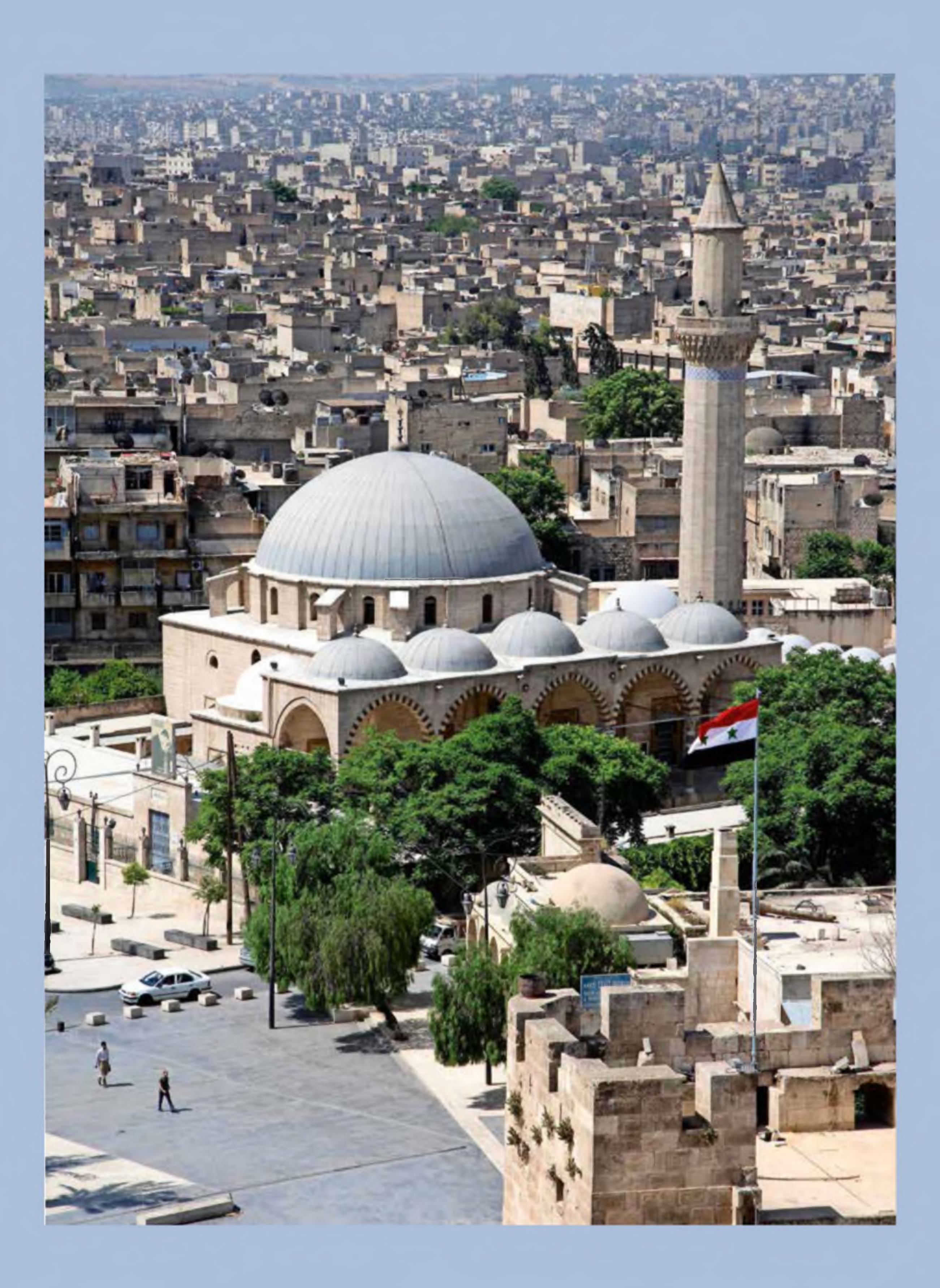
— أبدًا لا مانع لديّ... سجّلي ما تريدين.

واتّفقنا على اللقاء في أقرب فرصة.

أشكر المولى، عزّ وجلّ، أنّه أنعم عليَّ بلقاء تلك القامة الفنيّة أثناء وجودي وعائلتي في بيروت. الأمر الذي جمعني به، وبزوجته العزيزة فاطمة الزهراء، وبابنه أنس صباح فخري.

لا يسعني هنا إلّا أن أنوّه بأنّ السيدة الزهراء هي ذاكرته الحاضرة التي ساهمت في تشذيب المعلومات وتأكيدها - كونها لم تفارقه في كلّ تحرّكاته وسكناته، منذ تزوجا - فراحت تنعش ذاكرته ليستعيد أحداثًا كان قد سردها لها.

أتمنّى أن أكون قد وُفِّقت في منحِ سيرة هذا الرجل العظيم شيئًا مما يستحقّ. وأن أكون قد قدّمت من خلاله، لمدينتنا حلب، تدوينًا لبعضٍ من تراثها الثمين في كتابي الذي أسميته: «صباح فخري... سيرة وتراث».



المُقـــدّمَة



إنّها حلب...

لست أدري... أحلب التاريخ، أم التاريخ حلب؟ عُجنَ الزمان بك يا حلب وامتزج.

يشيخُ معك... تؤنسين قدسيّته،

تجرّينه إلى أزقّتِكِ الضيّقةِ ليتذكّر غرامه القديم،

تتجوّلين معه في عتيق أسواقك...

ليضع حول عنقك شالًا من حرير جاء به من هند وصين...

تسبقينه فيتسلّق أسوار قلعتك الجميلة.

تجترّان ذكريات عشقكما، بين جدرانها الصّلبة، غير آبهين لبطش غُزاتها

ولا لعظمة ملوكها.

في أرض ديارِها كان عناقكما...

وهناك زفّكما القدر في زيجة لا طلاق بعدها.

تستيقظان معًا...

تمشيان «سوا سوا» بين الجنائن والخمائل،

وتحت شجيرات القراصيّة، وكروم الفستق.

تشنّفان آذانكما بغناء البلبل على غصن الفلّ،

وصدْحِ فخر الصّباح في خمرة الحبّ.

تعيشان حلو الحياة ومرّها... يصحّيك زمانك كلّما غفوت أو كبوت،

وينفض عنك غبار الكسل ليقول:

حلب يا معشوقتي... أنا وأنت صنوان...

نحن الزمن الذي يشيخ ولا يفنى...

شذا نصار





راقصات. تل الحالولة،
الألف السابع ق.م.
المتحف الوطني في حلب.

لماذا حلب!؟ لماذا سورية!؟

قطار حضارات قادَه ابن آدم عبر محطّات زمنيّة، حتّى انطلق منها إلى الفضاء الغامض بحثًا عن حياة أخرى، عن مأوى آخر يتّسع لبني البشر حين تضيق الأرض بسكّانها. في أولى تلك المحطّات، تتصدّر التاريخ، في بداياته، مدينةٌ نالت شرف امتيازها بأنّها الأقدم بين مدن الأرض، فدوّن بصماته على أحجارها، لتبقى حلب شاهد الحضارات الأوّل.

إنّها المدينة الصامدة عبر الزمن.

فرضت جغرافيّة المكان أهميّتها منذ بدء التاريخ؛ إذ كانت بوّابةَ بلاد الشام التي تتوسّط قارات العالم القديم، وثغرَها الأهمّ بين الأناضول وحضارة ما بين النهرين. فغدت مطمع الغزاة والأباطرة على مدى الدهر. طحنتها الحروب، ونهش بنيانها الغرباء. لكنّها بقيت الصخرة الثابتة في وجه الرياح، والأرضَ الصلبة للبناء، والحاضنة الجاهزة لاستقرار الحضارات. في الثبات قوّة... وفي الاستقرار حضارة. وما زالت الدراسات والأبحاث الناجمة عن التنقيب العلمي للآثار تثبت، يومًا بعد يوم، أنّ أقدم مدينة في التاريخ كانت المهد الأوّل للحضارة التي يتشدّق بها العالم الغربي اليوم. فقد سكنها البشر قبل عشرة آلاف سنة، وعاش الإنسان الحجري فيها. ولأهميّتها، تسابق المصريون والحثّيون والميتانيون على احتلالها. وتعانقت كلّ الحضارات فيها: السومرية والآكادية والآشورية والآرامية والهيلينستية والرومانية والبيزنطية والإسلامية ...

الصفحة المقابلة: دير سمعان قرب حلب.



رقيم مسماري. أوّل تدوين للموسيقى (نوتة) في التاريخ،
في موقع رأس شمرا (مملكة أوغاريت)، المتحف الوطني في دمشق.

ولا شكّ في أنّ الحضارة ترتكز على نظام اجتماعي وسياسي يضمن تطوير إمكانات الإنسان لحياة أفضل، وتؤمّن له سبل العيش بسلام ضمن مجموع البشر، فيزداد إنتاجه العلمي والثقافي. وهذا ما دوّنته أيدي أبناء حلب التي طوّعت الحجر بشكل منحوتات فنيّة مميزة، سجّلت تاريخ المدينة السياسي والحربي والرياضي والثقافي والاقتصادي والأدبي، منذ آلاف السنين.

نهلَت حلب من معارف الأمم التي غزتها وثقافاتها، ما أضاف إلى تجارب أهلها ومخزونهم الحضاري. كما أغنت، بدورها، غازيَها وحاكمها. وكانت لها مراحل من الاستقرار، رسّخت فيها تراثًا حضاريًا وثقافيًا تميّزت به على مدى الدهر.

ما قبل الأديان السماوية، كان لآلهة حلب - التي ابتدعتها أساطير أهلها، ونظّموا حياتهم على وجودها - الأثر الأكبر في الإبداع الفنّي الذي ظهر في منحوتات حلب الأثرية، من عمارة ونُصب. وما لم يتمكن علماء الآثار من نقله بعد، كان الموسيقى والغناء؛ ذلك أنّ تدوينهما لم يصل إلينا إلّا عندما اكتُشف أوّل تدوين للموسيقى في التاريخ، في موقع رأس شمرا (مملكة أوغاريت)[1]. لكنّهما ظهرا في صور للرقص الديني الذي لازم الأديان الوثنية كلها، وكذلك في منحوتات الآلات الموسيقية المستعملة منذ بدء التاريخ.

---

[1] كانت الطقوس الدينية تُمارس في أوغاريت ومعابد حلب وسواها بالإنشاد الديني. وأبصرت أقدمُ نوطة موسيقية النور من سورية، وبلغت أسماعنا عندما عزفها الدكتور سعد الله آغا القلعة على القانون عام 1988 في حلقة تلفزيونية من برنامج «العرب والموسيقى»، استضاف خلالها الباحث السوري راؤول فيتالي الذي قدّم تدوينًا جديدًا للحن وفق قواعد جديدة. وقد عزفها أيضًا مالك الجندلي مع أوركسترا الفيلهارموني الروسية.



موسيقيتان واقفتان. منبج،
القرنين الأول والثاني ق.م.
المتحف الوطني في دمشق.

عازفة على القيثارة.
القرنين الأول والثاني ق.م.
المتحف الوطني في دمشق.

امرأة تعزف.
القرنين الأول والثاني ق.م.
المتحف الوطني في دمشق.

عازفتا القانون والدف.
القرنين الأول والثاني ق.م.
المتحف الوطني في دمشق.

موسيقيتان واقفتان. شمال سورية،
القرنين الأول والثاني ق.م.
المتحف الوطني في دمشق.

موسيقيتان تحملان دف. سليمة (حماة)،
القرنين الأول والثاني ق.م.
المتحف الوطني في دمشق.

ولا شكّ في أنّ الذاكرة البشرية هي التي دوّنت، وتناقلت الأغنية واللحن عبر القرون والعقود السابقة. وأثبتت الأثريات توارثَ الطقوس التي تَعتمد الإنشاد والرقص في عبادات ما قبل الأديان السماوية. وما صلاة الاستسقاء التي رأى المنقّبون أصنامًا لها تتّخذ وضعية الصلاة والدعاء وقوفًا، إلّا خير دليل على هذا الموروث الفنّي الديني الذي شهدناه في قلعة حلب، في زمن ليس ببعيد؛ حين كان الأهالي بمختلف أطيافهم يصعدون إلى قمّة القلعة لينشدوا دعاءهم «ياذا العطا... يا ذا الوفا... اِسقِ العطاش تكرمًا...».

وسجّل التاريخ أهمّية حلب، إبّان العصور التي ذكرناها، في كونها قد حافظت على هويّتها، لتعتبرها اليونسكو من أهم المدن التراثية في العالم.

تألّقت المدينة كعاصمة لمملكة يمحاض العمورية في القرن السابع عشر قبل الميلاد. كما كان لها اعتبارها في ما تلاها. وعلى مدى التاريخ كانت ملتقى القوافل، تلقي فيها حملها وتنهل منها، في تبادل تجاري وثقافي رائعَين. وكان النغم والآلة الموسيقية والكلمة عماد هذا التثاقف الجميل.

اعتُبرت حلب في العصور الإسلامية من المدن الكبرى. واعتمرت تاجَ التميّز إبّان حكم الدولة الحمدانية، وعلى وجه التحديد في بلاط سيف الدولة الذي جعل في قصره منتدًى للفكر النيّر، والمواهب العلمية والفنّية البارزة. فكانت حلب عاصمةً لدولة السيف والقلم.

وما الحضارة إلّا قوّة وعلم وثقافة. وحيث يكون الأدب، توجد والرقص والطرب.

وما أن فتح سيف الدولة الحمداني بلاطه، حتّى استقطب جهابذةَ الشعر بلا منازع، كالمتنبي وأبي فراس الحمداني والفارابي وأبي الفرج الأصفهاني...

> «ثمّة في جبين الأرض العربية، كانت تتوهج عروس المدائن حلب... صنو التاريخ، ورفيق الدهر. ولطالما تردّدتْ في أبهاء قلعتها معازفُ الحرائر العربيات والروميات وهنّ يتقدمن الصفوف بالمزاهر والدفوف، ويشعن من الجمال والفن ما ظلّت تردّده صباياها وعذاراها وكذلك شبّانها حتّى اليوم من خمرة النغم وسلاف الموسيقى الأصيلة.
>
> لقد تمكّن سيف الدولة من أن يجعل من حلب بيئةً خصبة للعلوم والآداب والفنون. فقد فتح قصره لكلّ فنّان موهوب، وأديب لامع، وشاعر عظيم. توافدوا عليه من جميع الأطراف. كان يستمع إلى الكتّاب والأدباء والشعراء بشوقٍ كبير ولهفةٍ بالغة،



تمثال لأبي فراس الحمداني في الحديقة العامة، حلب.

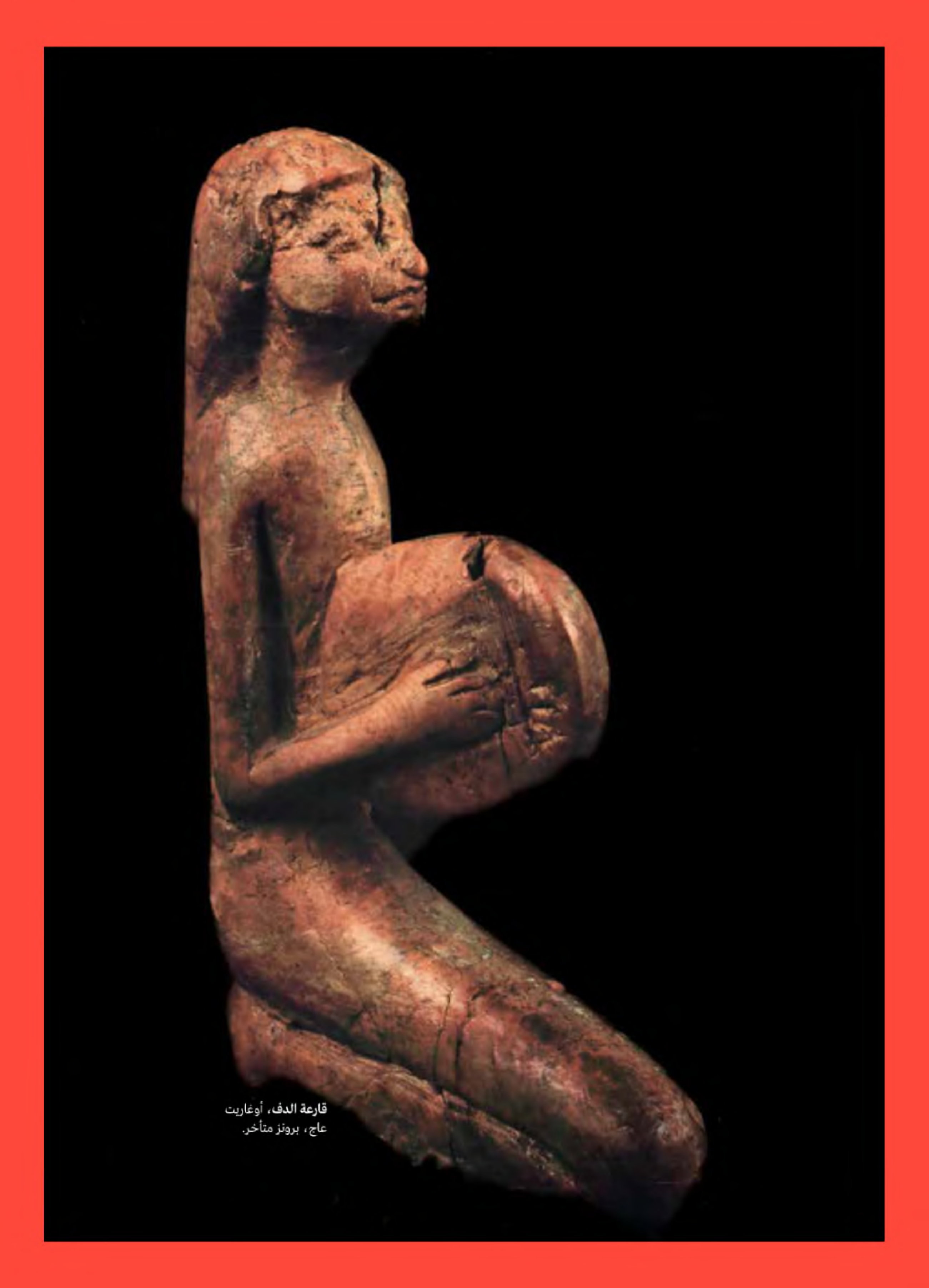
> ويمنح المؤرّخين الشيء الكثير من العطايا والخُلع، فيعود هؤلاء إلى أوطانهم حاملين إلى شعوبهم صورًا رائعة من الخُلق العربي الرفيع. وقد اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ما لم يجتمع بباب غيره من الملوك. فكان خطيبه ابن نباته، ومعلمه ابن خالويه، ومطربه الفارابي، ومدّاحيه كلّ من الشعراء: أبو الطيب المتنبي، والوأواء الدمشقي، وابن الببغاء، وابن النامي، وابن السلامي، وغيرهم...»[2]

واستمرّت حلب على هذا المنوال، في عطائها الحضاري، من فنّ معماري ونحت وتصوير. برع فيه أهلها على طول الزمن في تطويع الصخر، ونسج الحرير، وطهي اللذيذ، وأحسنوا الاستماع والطرب.

حتّى إبّان الحكم العثماني، كانت لحلب مكانتها كثالث مدن السلطنة العثمانية التي امتدت على أكبر مساحة عرفتها الامبراطوريات القديمة، بعد اسطنبول والقاهرة. فكان لها مركزها التجاري والصناعي والاقتصادي والأدبي والفنّي.

---

2 كتاب «الدولة الحمدانية» لأحمد عدوان.



قارعة الدف، أوغاريت
عاج، برونز متأخر.

ولا ننكر أنّ مشايخ حلب وأئمتها برعوا في فنّ الإنشاد الديني. وكانت مدينتهم ملتقى السمّار من القوافل التي عبرت طريق الحرير من وإلى الأستانة، وكذلك قوافل الحجاج من وإلى الحجاز. أما بعد انهيار الامبراطورية العثمانية، فقد لمع دور حلب الريادي العربي، بما ضمّته من أساطين السياسة والأدب والفنّ الذين كانت لهم اليد الطولى في استرداد الدور العربي، بعد التململ من سياسة التتريك التي ساهمت في خراب السلطنة.

مرّت حلب، بعد تلك الحقبة من حكم العثمانيين، بمراحل من التطوّر الصناعي الذي انكفأ، ثمّ عاد إلى أوجّه قبل الأحداث التي عصفت بالوطن. وبقيت القلعة. وبقي الحجر. وبقي الإرث الفنّي الموسيقي متأصّلًا في الذاكرة الحلبية؛ تحفظه الأجيال، وتردّده على مدى الزمن.

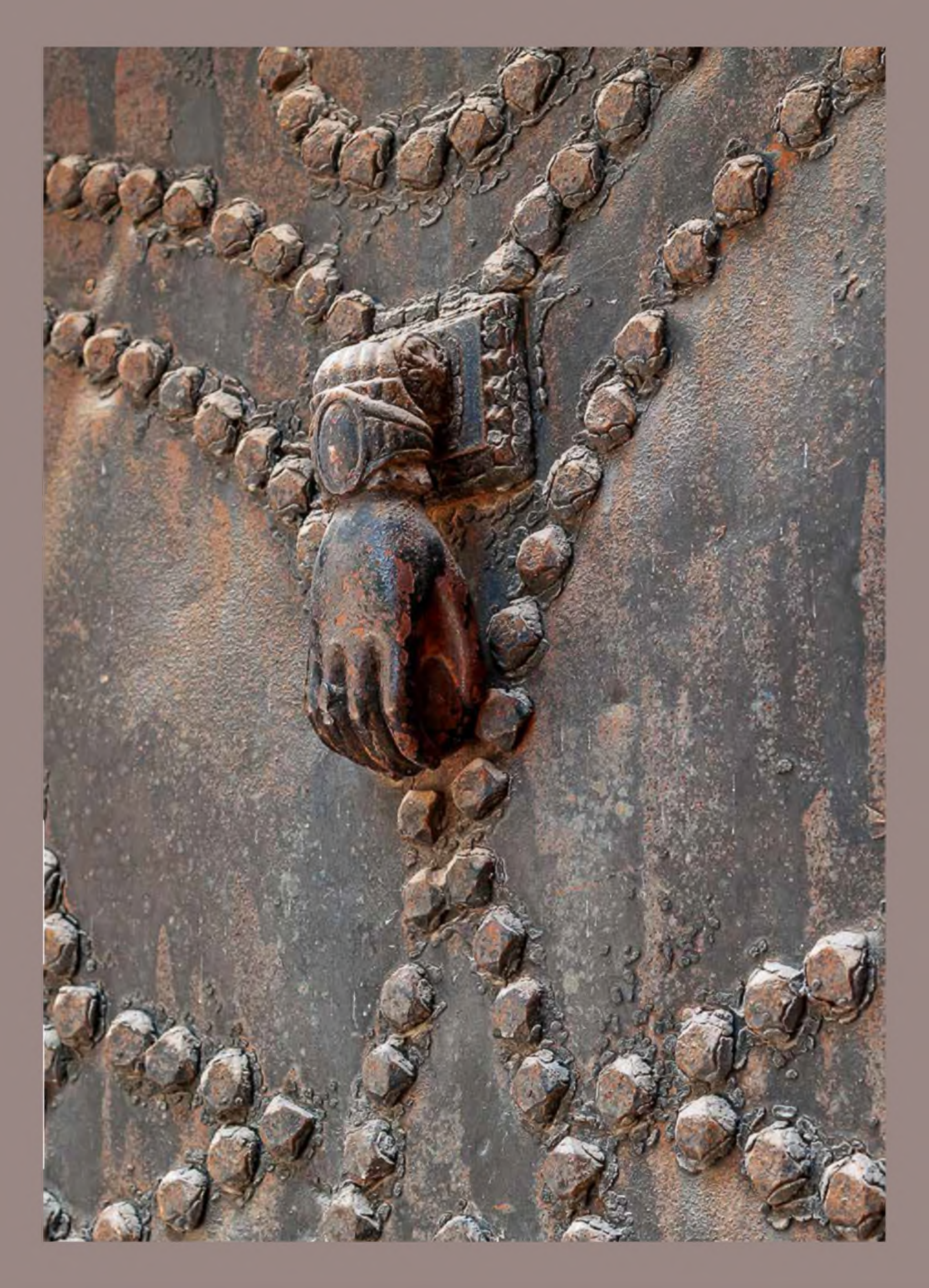
وهنا يتألّق الحلبي الذي عُجِنت مورّثاته بالنغم الأصيل، فحفظه جيلًا بعد جيل. وتناقله عبر ثقافاته وعاداته وتراثه، بالصوت والنغم والدقة؛ ليبقى الطرب في حلب أصيلًا عميقًا، يعود بنا إلى الماضي جالبًا منه، إلى الحاضر، إرثًا مطورًا بأداء ممتع مطرِب يقدّره أهالي حلب وكلّ من هوى الأصالة في العالم.

حرص أهالي حلب على تداول القديم من الغناء الشعبي الذي ورثوه أبًّا عن جد. كذلك صاغوا الموشح، وأبدعوا بالقدّ والموّال، ونقلوا الدور وبرعوا في فنون الموسيقى الشرقية كلها، وظهر من بينهم عمالقة في الفن الأصيل[3].

ويبرز من تلاميذهم من يحفظ للأصالة رونقها، وللكلمة تعبيرها، وللنغمة صداها؛ بإصرار على الالتزام بأدائها في أجمل صورة أحبّها الصغير، وردّدها الكبير... وكان «صباح فخري».

من هذه المدينة الخالدة، انطلقت الأصالة مع صباح فخري إلى العالم كلّه. وسيبقى الطرب ملازمًا حلب وصباح، بأبديّة لا تنتهي...

[3] نستعرض في ما يلي أسماء موسيقيين وفنانين من مدينة حلب وجب تسليط الأضواء عليهم، أمثال: علي الدرويش، ولداه ابراهيم ونديم الدرويش، انطوان الشوا، زكية حمدان، سامي الشوا، عمر البطش، بكري الكردي، صبري المدلل، عزيز غنام، محمد رجب، فؤاد رجائي آغا القلعة، عبد الرحمن جبقجي، نجمي السكري، رياض السكري، أديب الدايخ، أنطوان زابيطا، شاكر بريخان، الأنطكلي، مها الجابري...



حَارَة الرّيشْ

في سنوات الطفولة أوقاتٌ لا تُنسى، محفورة في ذاكرةٍ محبّبة، نسترجعها كلّما قادنا الحنين إلى الزمن الجميل، إلى المرح البريء، إلى حياةٍ نحلم ونصلي لتعود.

أذكر منها يومَ أحبّ والدي أن يصحبنا، في زيارة عائلية، إلى قريبه الحاج عبد الكريم الذي كان من سكّان حارة الريش في حلب القديمة.

بدأت وإخوتي بتجهيز أنفسنا بعد العصر، نتبادل نظرات التأفّف من الزيارات التي تُفرض علينا بفرماناتٍ عُليا، لا نملك لها رفضًا أو مساءلة. بعض التنغّص كان احتجاجًا على رحلة كنّا نعتبرها بعيدة إلى منزل أقارب سنزورهم للمرّة الأولى، في حيّ قديم لم تخترقه الحداثة.

جلب أخي موفّق[1] سيّارة الأجرة التي أوصلتنا إلى باب الحديد، ومنه إلى أَغيُر، ثمّ إلى مدخل حارة الريش حيث ترجّلنا لنكمل طريقنا على الأقدام، في حارة ضيّقة لا تتّسع للسيّارات. رحت أتأمّل، ممسكةً بيد والدي، أرضًا مرصوفة بأحجار سوداء ما زالت صورةً لم يمحها الزمن من مخيّلتي، وحذائي الأسود اللامع ذا الزرّ الجانبي فوق جوربٍ أبيض، يطأ حجارة الشارع واحدة تلو الأخرى، وكأنّها اليوم.

وصلنا إلى بوابة صغيرة. قرع والدي الباب بما كنّا نسمّيه سقّاطة الباب. فتح الحاج عبد الكريم بنفسه، مؤهّلًا ومسهّلًا بقريبه وعائلته؛ واكبته أم بدر الدين بترحيب لا مثيل له، وأفسحا لنا دربًا بدت، من خلاله، فسحةَ أرض «الديار» أذكر منها تمامًا البَحرة الصغيرة التي تلتفّ حولها كراسي الخيزران، وتتوسّطها نافورة تغدق الماء بارتفاع خفيض، تداعب به ورودًا تناثرت على صفحتها.

لا تختلف أرض دارهم كثيرًا عن مثيلاتها في أحياء حلب القديمة؛ فسحة سماوية تحتضنها جدران مزيّنة بشجيرات الورد والياسمين. وتتوازع بلاطها أحواضُ الفل، وسجّادة الملك، والزهر الجميل (حلق الستّ)، وتمر حنّة، والمضعَف، والعسلة.

[1] السفير موفق نصّار. كان أمينًا عامًا مساعدًا في الجامعة العربية، وقد احتفظ بمنصبه هذا حتّى وفاته.

وفي العمق يرتفع مربّع الدار درجتين، محتويًا المقاعد الوثيرة التي تستضيف زوّارًا يتمتّعون بشيء من الخصوصية تفصلهم قليلًا عن أهل الدار. يتوسّط المربّع صدر النحاس، وهو صحن نحاسي كبير نُقشتْ عليه، بحرفة يدوية عالية الجودة، مخطوطات شعرية وأمثال متداولة، يُستعمل كطاولة طعام تُتوّج دومًا بالفاكهة الموسمية الطازجة.

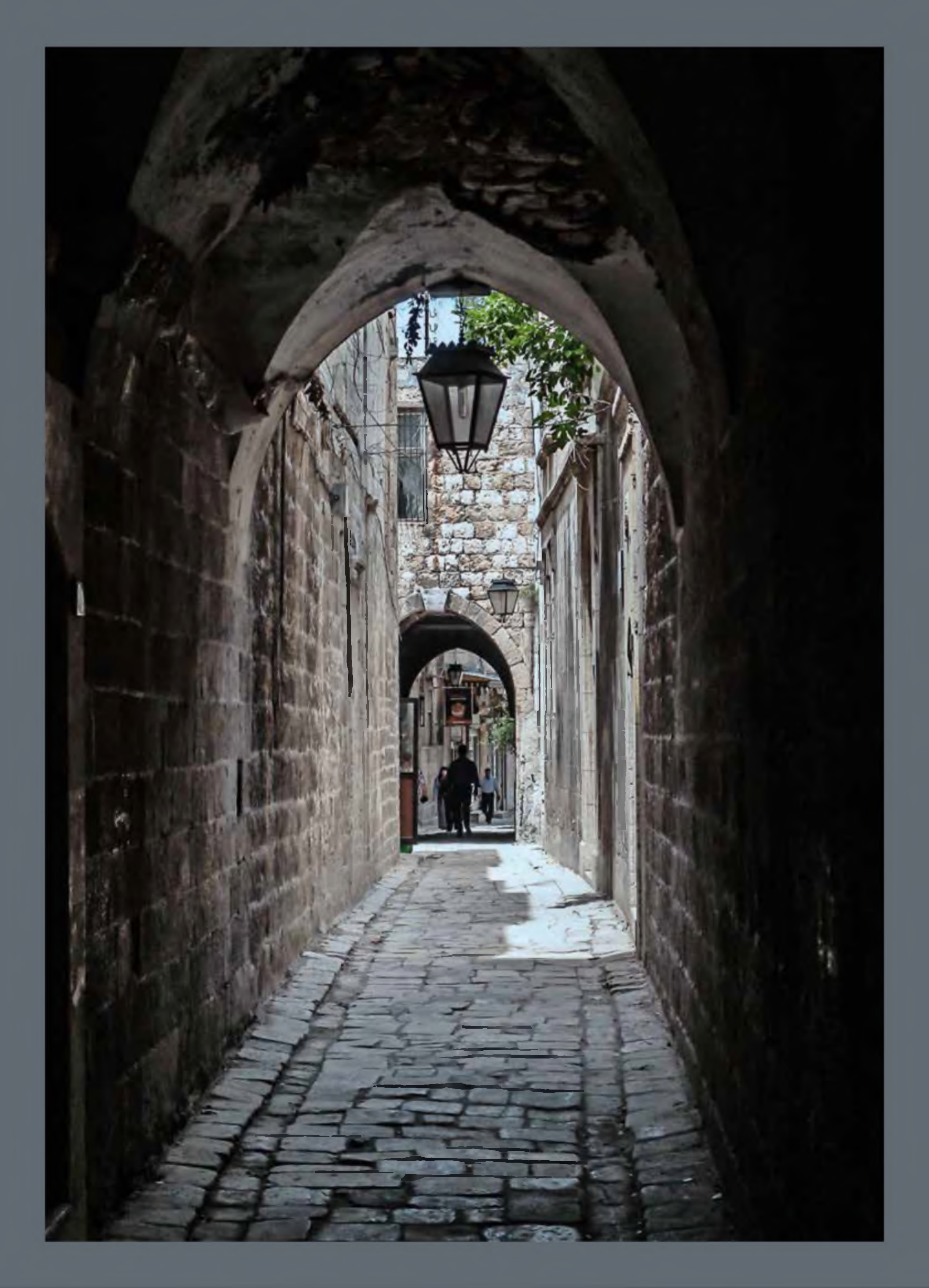
لا أذكر ما تناولناه من طعامٍ يومها. فما علق في ذاكرتي ولم يغب، أنّ شابًّا يافعًا من ضيوف الدار (تبيّن لي بعدها أنّه شقيق سيّدة الدار) تناول العود - العود المتواجد في أكثر دُور أهالي حلب - وبدأ يداعب أوتاره بريشة خبيرة، وبصوت خفيض حتّى أقنعته صحّةُ النغم. هزّ رأسه بحركة فهمها الآخرون؛ أحضر أحدهم الدفّ، وجلب ثانٍ الدربكة. دندن العود، ودندن معه الحاضرون من أهل الدار. وانتشى الدفّ، وتحمّست الدربكة، لينتظم الجميع في إيقاع مُتقن بالأكفّ والأصابع، لطالما عرفه أهالي حلب، بل وتميّزوا به.

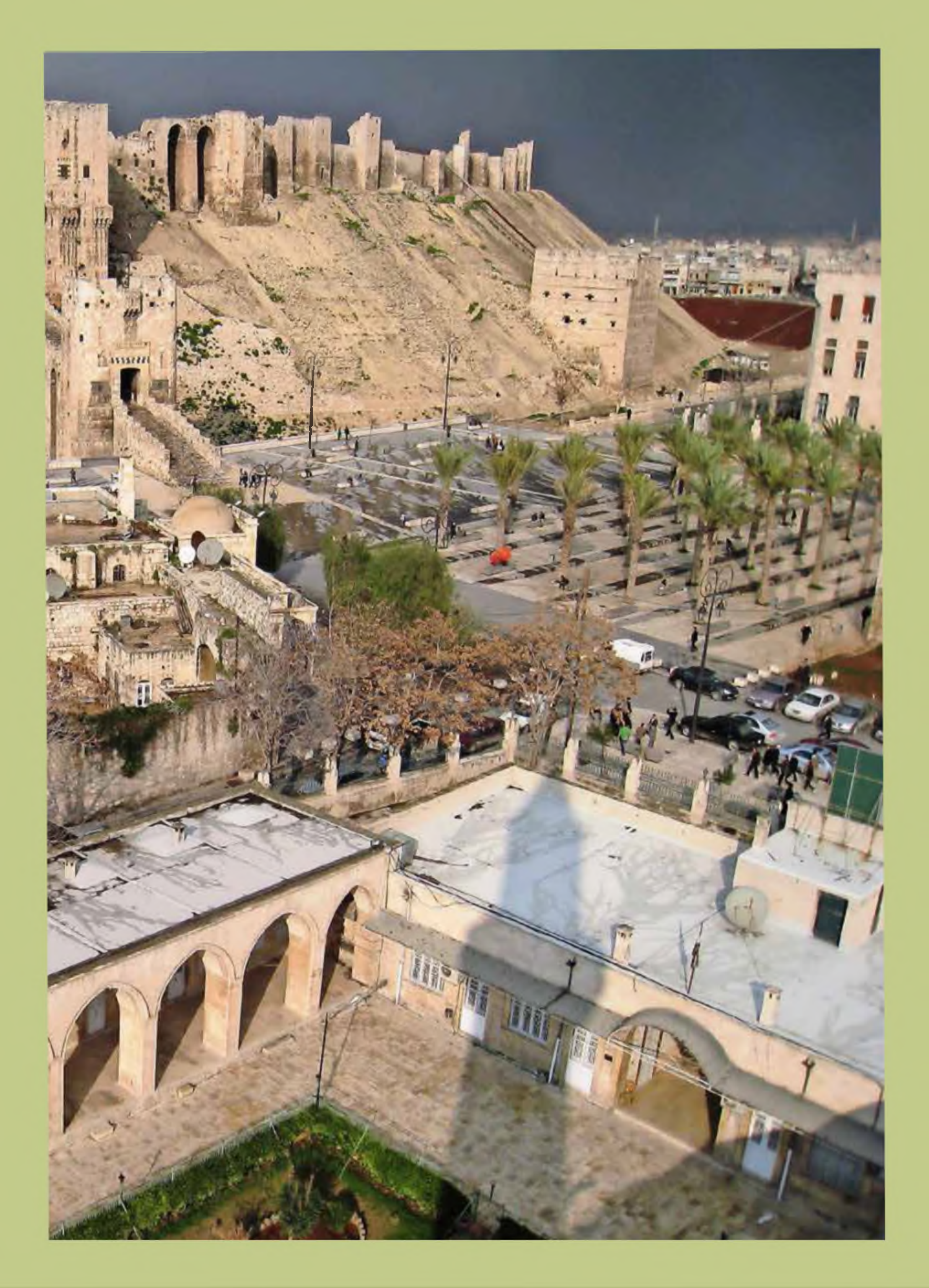
وارتفعت الأصوات بغناء موشّحٍ جميل، تفرّد بينها عازف العود بطبقات عالية متميّزة من حنجرة فريدة، أخرجت الحاضرين كلهم - ومن بينهم والدي - عن وقارهم المعهود بكلمة «اللاااااااااه»، والتي رافقت وقوفهم على أقدامهم، وارتفاع أيديهم إلى السماء. ملأت أصداء الغناء أرجاء الدار، وبلغت النشوة حدّها الكافي لينهض رجال الدار وينتظموا في حركة متوافقة مع موشّح «لمّا بدا يتثنّى»، تتحرّك أرجلهم في إيقاع يتزامن مع نقرات الدفوف بين أيديهم، وتعلو رؤوسهم وتنخفض بما يقتضيه اللحن.

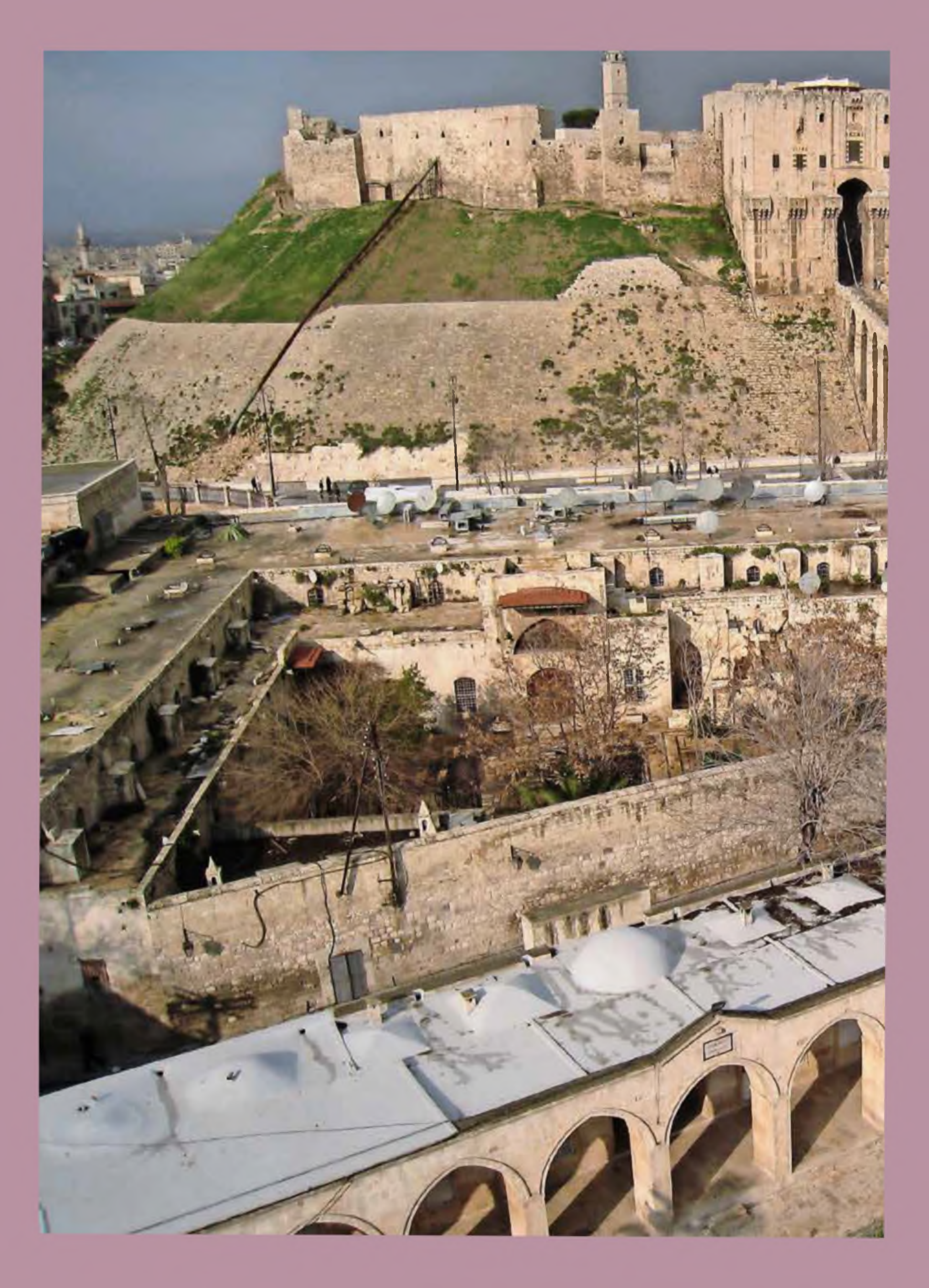
كانت النساء يشاركن في الغناء، بينما يرقص الرجال.

ليلة لا تُنسى، حُفرت في ذاكرتي، واستقرّت في وجداني. كانت أوّل مرّة في حياتي أشاهد فيها ما عرفته بعد ذلك برقص السماح[2]. وكانت أوّل مرّة أسمع فيها صوت صباح فخري، أسطورة الغناء، مدّ الله في عمره.

[2] من حسن حظّي أنّني أجدت هذا الرقص لأنّه كان في منهاجنا في مدرسة الملكة ضيفة الابتدائية في حلب، وقد درسناه على يد الأستاذ بهجت حسان، تلميذ عمر البطش. ويشهد المركز الثقافي في حلب والأستاذ سهيل الرفاعي أنّني ساهمت في تطوير حركة الأيدي للفتيات إلى أجمل صورة. كانت مدرستنا تعتمد رقص السماح في أغلب احتفالات حلب، وذلك بإصرار من مديرة المدرسة السيدة فهيمة الجراح، ومن مدير المركز الثقافي آنذاك الأستاذ جلال الملاح. وكم أتمنّى أن يعود رقص السماح إلى مناهجنا الدراسية الابتدائية، مع تعليم الإيقاعات العربية الأصيلة. فهو رقص محتشم وراقي،منبثق من تراث سورية الأصيل، ونابع من ثقافة فنّية وأدبية، وفيه من الروح الجماعية السامية المترفعة عن الغرائز، واقترابها من الروحانيات، ما يمكنها أن تكون الباليه المحلّي أو الرقص الوطني الذي انبثق من حلب وانفردت به سورية. وسيبقى مع الموشّح والقدود ملازمًا الهوية الفنّية السورية.









لقاء على الروشة

جلست وإيّاه وفاطمة الزهراء، بعد طول سنين، على شرفةٍ تطلّ على أجمل منظر في بحر بيروت فوق صخرة الروشة، في نهار يومٍ تشريني اختبأت شمسُه خلف غيومٍ عكسَت على زرقة البحر أطيافًا من الرماد، وراحت تختلس إطلالة من بين الديم، لترسل من أشعّتها ما يتلألأ على سطح المياه المشتاقة لعناقها.

كان يتنفّس بارتياح المتأمّل للكون الجميل، سارحًا بناظريه إلى المدى البعيد، شاردًا عمّن حوله، مطلقًا العنان لأفكاره. وكأنّه يستجمع من ذكرياته ما رسمَ ابتسامة هادئة على وجهه الذي خطّ فيه الزمن تعبيرًا يروي قصصًا، ويحكي حكايات.

كانت وقفة تأمّلٍ أثارت في نفسي تساؤلات، وبعثت في كياني فضول الصحافي المستغلّ للمواقف والمنتهِز للفرص. وكأنّي طبيبٌ نفسيّ انتهز وضعيّة الاسترخاء في زبونه، ليحصل على إجابات عمّا يريد بسهولة عجيبة، وهذا ما كان...

بادرته فجأة بسؤالٍ صريح:

— أبا محمد، هل تذكر من اكتشف جمال صوتك أوّل مرّة؟

فالتفت إليّ بصمت تسمّرت خلاله ملامحُ الابتسامة على وجهه، وكأنّ السؤال عاد به إلى الوراء عقودًا من الزمن. حاول أن يلتقط من إحدى محطّاته جوابًا محدّدًا، ثمّ قال:

— أتقصدين بأوّل مرة، «من القنداق» (من اللفة)؟

ضحكت لمبالغته، وأجبتُ هازةً برأسي:

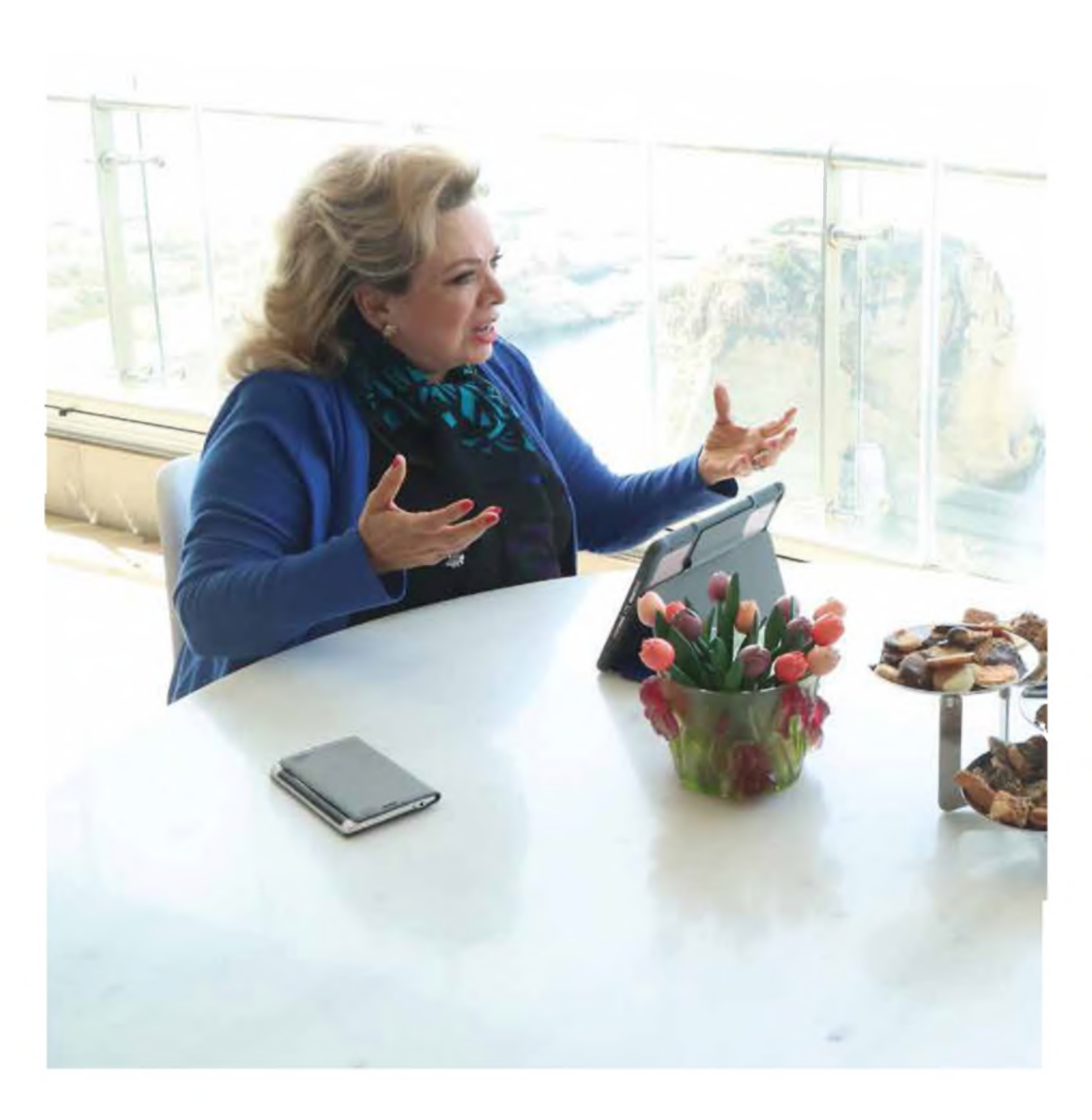
— نعم من القنداق، من سنّ الرضاع.

فبادلني الضحك، وعدّل في جلسته كمن يستعدّ لسرد حكاية، وبدأ بحديث استمرّ بيننا ما يقارب الثلاثة أعوام، ليكون بين أيدينا «سيرة وتراث».

الصفحة المقابلة: صخرة الروشة، بيروت.



لقاء بين المؤلّفة وصباح فخري في بيروت.





ولادةٌ مُبارَكَة

في حارة الأعجام، من أحد أحياء حلب القديمة (القصيلة)، حيث تتقارب الشرفات وتتعانق الأسطحة، وفي ليلة من ليالي أيّار الدافئة، كان صوت المنشدين يصدح في دار الشيخ محمد نجيب أبو قوس، الذي هرع إلى منزله مصطحبًا ثلّة من شيوخ حلب، ومجموعة من رفاقه المنشدين، وأصحاب التقوى والصلاح من أهالي الحيّ والأقرباء، ليرفعوا أصواتهم بذكر الله جلّ جلاله، وبالدعاء لنبيّه محمد عليه الصلاة والسلام، في جلسة إحياءٍ وذكرٍ وإنشاد. وهذه من العادات التي احتضنتها دور حلب منذ زمن طويل.

لم تكن ليلة الذكر تلك كغيرها من الليالي المعتادة؛ فقد بدأت آلام المخاض عند أم عبد الهادي تشتدّ مبشّرة باقتراب ولادةٍ ينتظرها أفراد العائلة بفارغ الصبر. كان صوت المنشدين يطغى على تأوّهات الأمّ التي قبعت في جناحها، صابرةً بانتظار الداية سنيحة التي استقبلت بين يديها أكثر أطفال القصيلة.

قُرِع الباب بدقّات قويّة متتالية إيذانًا بوصول أم مصطفى، أخت سيّدة الدار، مصطحبةً الداية سنيحة التي دخلت توسّع الخطا باتّجاه غرفة أم عبد الهادي، وهي ترفع عنها الملاية السوداء توفيرًا للوقت. ومن فمها، انطلقت بسملات خافتة رافقت أدعية المنشدين في الصالة المجاورة التي غصّت برجال كانوا ينحنون إلى الأمام، ويرتدّون إلى الخلف، وهم يردّدون كلمة «الله» في إيقاع منتظم، وبصوت يعلو وينخفض بنغم يُطرب السامع ويزيد في خشوعه.

بادرت سنيحة، لدى رؤيتها أم عبد الهادي تعاني آلامَ المخاض، بالقول: «صلّي عالنبي أم عبدُه، مهَوِّنة بإذن الله... هَيْ مو أوّل ولادة إلك ماشالله...». واستجابت أم عبده قائلةً بصوت يغلب عليه الألم ويلجمه الصبر: «اللهم صلِّ وسلّم على سيّدنا محمد».

شاركتها النساء الملتفّات من حولها بالصلاة، بينما اقتربت الداية لتفحص زبونتها مؤكّدة أنّ الولادة ليست قريبة كما اعتقد الجميع. فعلًا، طال الليل، وتتابعت الطلقات على سيّدة الدار متقاربةً متباعدة، ما أرهق النساء من حولها، وهدَّ حيلَها.

أما لطفيّة، ابنتها ذات العشرة أعوام، فقد كانت تخرج بين الفينة والأخرى إلى أبيها لتطمئنه عن حال زوجته، وتقوم بواجب الضيافة لرجال الذكر والإنشاد.

بلغ التعب مبلغه من كلّ من في الدار، نساءً ورجالًا؛ فقد هرب الليل إلى مأواه، وتسلّل أوّل خيط للنور يرافقه أذان الفجر من جامع الأطروش. تعالى أنين الأمّ، بين أصوات المنشدين، حتّى انقلب صرخة عالية ما لبثت أن هدأت بطلوع الصبح واضحًا وصريحًا، وبزغاريد النساء تملأ المكان.

يقف الشيخ محمد على قدميه ويتقدّم متلهّفًا نحو الباب. يرى ابنته لطفيّة تهرول نحوه، والابتسامة العريضة تعلو وجهها البريء، وهي تقول لأبيها بصوت يزقزق بفرحة لا تُخفى على سامع: «إجانا صبي... إجانا صبي». «الحمد لله ربّ العالمين»، يقولها الشيخ محمد رافعًا يديه إلى السماء. ثمّ يلتفت إلى أصحابه متلقّيًا تهانيهم الحارّة، ومودّعًا من نادموه في ليلته الطويلة، طالبين البركة من الله تعالى للمولود الجديد.

هبّ إلى غرفة زوجته، فاستقبلته سنيحة الداية وبيدها مولود موفور الصحّة، أتقنت لفّه بإحكام بالقنداق. قالت له: «يربى بدلالك يا شيخي... اللهم صلِّ على النبي متل القمر...».

حمل الشيخ محمد ابنه متباهيًا، ورفعه إلى فمه ليهمس في أذنه بالأذان، وبشهادة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وبابتسامته المعهودة، أطلّ على زوجته مباركًا، مهنّئًا: «مبارك ما إجاك... صبي والحمد لله...» نسيت السيدة عليّة آلام المخاض والولادة، وارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة طغت على كلّ تعبير للألم، وهي تقول: «يربى بدلالك حجّي... رح سميه صباح، لأنّه أتى إلى الدنيا مع نور الصباح». هزّ الشيخ محمد برأسه وهو يقول: «فليكن صباح الدين... أكرمنا الله به وذِكرُه سبحانه ورسوله ملءُ الدار».

تختلط هنا التسابيح والزغاريد بفرحة ملأت قلوبَ الأهل والدار. ولم يكن في الحسبان أنّ هذا المولود سيدخل البهجة إلى قلوب الملايين، ويطرب كلّ من سمعه في أنحاء المعمورة، على طول الزمن.

عطاء من السماء

وضعت الأمّ مولودها الغالي صباح الدين، آخر العنقود، في مهده الصغير. أغلقت عليه الباب لينام هادئًا، بعد أن أرضعته واطمأنّت إلى أنّه لن يستيقظ لساعات طويلة. كان يهدأ بين أحضان أمّه كلّما هدهدت له بعد أن يشبع من ثدييها، ويستغرق في نوم طويل لا يوقظه إلّا الجوع. «إنّه طفل هَنِيّ، لم يتعبني في إطعامه ونومه»، تقول عليّة مخاطبة أختها أم مصطفى.

— طبعًا... إنّه العزيز الغالي آخر العنقود... اعتني به بتأنٍّ وروية.

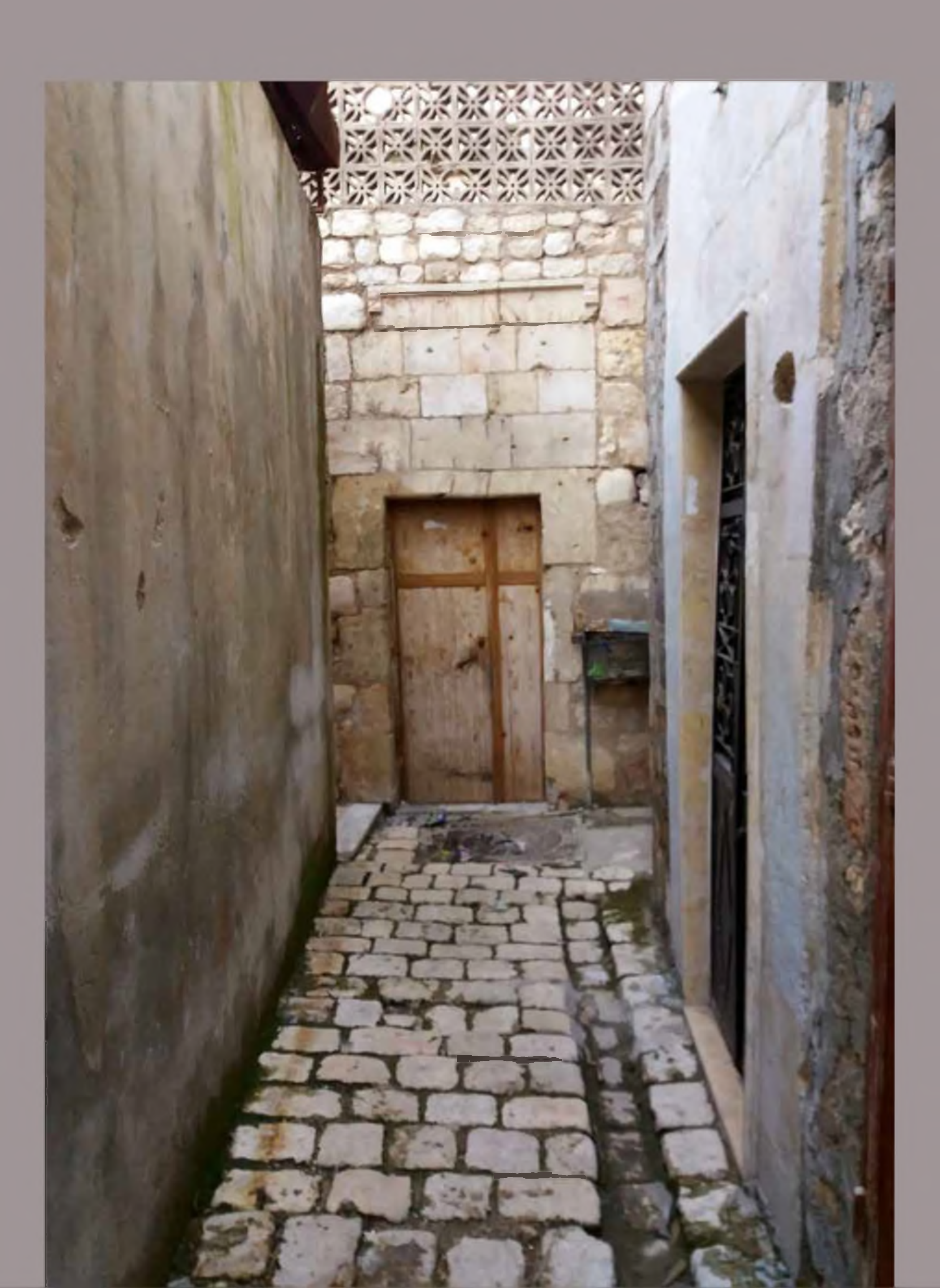
— أكرمني الله به وبإخوته... وأكرمني أكثر في كونه مريحًا في تربيته، رأفة بي من التعب والإرهاق الذي انتابني في الحمل والولادة. الآن يمكنني أن أستقبل المهنّئين براحة.

يُسمع صوت سقّاطة الباب: «افتحي الباب يا لطفيّة!». تفتح الباب ابنة العشر سنوات لتستقبل أختها الكبيرة عائشة وزوجها، اللذين يزوران الدار يومًا بعد يوم، مشاركين عليّة فرحتها بمولودها الذي انقضى على ولادته ما يقرب الشهر. في أيّار، يحلو للعائلة الاجتماع في الفسحة السماوية، حيث يتسامرون، ويتناولون الفاكهة، ويشربون الشمرة، وشراب اللوز، إضافة إلى الهيطلية التي استمرّ تقديمها لضيوف المكان منذ الولادة.

لم ينتظر زوج عائشة جوابًا عن سؤاله المعروف: «أين صباح الدين؟» بل ذهب إلى حيث ينام الطفل؛ وإذ بعليّة تتبعه من دون أن يشعر، وتراقبه من ثقب الباب، وسط استغراب الآخرين، لتسمع بكاء الطفل يملأ المكان. فتحت الباب، وقد صدمها أن رأت صهرها يقرص الرضيع حتّى الاستيقاظ والبكاء. فما كان منها إلّا أن صرخت مؤنّبة إيّاه من أعماق جوارحها: «مو عيب عليك يا أبو صطيف تقرص الولد وتبكيه!؟ ليش!؟ ولا أفهم السبب. وليست المرّة الأولى يا صهري، لذلك تتبّعتك لأرى ما تفعل». وفاجأتْها الإجابةُ أكثر، إذ قال: «والله يا زوجة عمي لن تصدقيني إذا قلت لك إنّني أتقصّد إيقاظ هذا الطفل، لأنّني أحبّ سماع صوته، حتّى وهو يبكي!».

أليس غريبًا أن يتميّز هذا الرضيع بصوت يذكره الجميع، ويعجبون به!؟

سكتت عليّة قليلًا والدهشة لا تغيب عن ملامحها، ثمّ هدأت لتخفي ابتسامةً حملت الكثير من المعاني، لأنّها وافقته بينها وبين نفسها. ولكنّها لم تبُح بذلك، حيث اعتبرت أنّه من الحماقة أن يقدِم كائنٌ ما على إيذاء وليدها المدلّل مهما كان المبرّر. فمن المؤكّد أنّ لكل طفل نغمةً في البكاء تختلف عن الآخر، وصوت تميّزه أمُّه بين الكثيرين من الأطفال.



حيّ القصيلة

في هذا الحيّ[1] الذي وُلد فيه صباح الدين، كانت طفولته الأولى حيث ترعرع ونشأ.

كان من الأحياء المتواضعة القديمة التي تشكّل خليّة اجتماعية واقتصادية متكاملة، تحكي كلّ انحناءة فيها، وكلّ زقاق، أقاصيص أناس طيّبين عاشوا فيها ببساطة، وتربّوا على قيم غاب بعضُها اليوم، وتشوّهت مختلطة بتقاليد غربية.

كان البيت العربي المتواضع (الحوش) هو المكان الذي احتضن صباح الدين، بين أمّه وأبيه وإخوته. في حيّ ضمّ مجتمعه الصغير بحنان، وقدّم له أكثر حاجاته.

في هذا الحيّ، يمكنك أن تشتري حاجات المنزل اليوميّة على الأقدام، متنقّلًا من دكّان السمّان، إلى اللبّان، فاللحّام (القصّاب)، ثمّ الفرّان... حتّى تصل إلى راس الحارة حيث كان يطيب للطفل صباح أن يراقب بائع العجّة «أبو العوينات»، وهو يقلي أطيب عجّة وأشهرها. وقد لاحظ الصغير أنّ البائع يضيف إلى خلطة عجّته تلك، ملعقةَ ماء إلى كلّ بيضة لتصبح غضّة ومنفوخة، لا تنافسها لذّة إلّا عجّة السقطيّة[2] حيث يجد القاصد هناك لبن العصفور.

كان هناك أيضًا بائع الأعشاب (العطّار)، حيث تباع الوصفات العربية والدواء النبوي. وقد ثابر صباح الدين على المرور به بين الحين والآخر. وعندما كبر، فاجأه العطّار ذات مرة بسرٍّ احتفظ بمكنوناته حتّى أثقل كاهله، ورأى أن يبوح به للشاب الذي بلغ من العمر العشرين. إذ قال العطار: «يا صباح... لوالدك عندي أمانة، وهيِ في هذه العلبة. ورأيت أنّه من واجبي أن أخبرك، لأنّه، على قول المثل "الدنيا فيها موت وحَيا"، وهذه الوديعة هيِ مدخرات الوالد

---

[1] ربّما كان موضع هذه المحلة يُزرع شعيرًا لرعي الدواب أيّام الربيع. فكان يسمّى القصيلة، أي الأرض المزروعة شعيرًا على ما هو معروف عند الحلبيين. ويُحتمل أن تكون كلمة قصيلة محرّفة عن فصيلة بالفاء، لأنّ محلّها في الفضاء بين السور القديم والفصيل.

[2] كانت قديمًا حيث يباع سقط اللحمة، فسمّيت بالسقطيّة. وغدت بعد ذلك سوقًا مزدهرة بما لذّ وطاب. يمتدّ سوق السقطيّة غرب سوق العطّارين. وترتبط في ذهن الحلبي السقطيّة بالأكلات الشعبية المعمولة على أصولها؛ فإذا أردت تذوّق الفول المدمّس أو القطايف أو الكنافة، فاقصد السقطية. وهيِ سوق طويلة بأجزاء ثلاثة، تُباع فيها الأطعمة المتنوّعة، من أرزاق ناشفة ومعجّنات (موادّ أوّليّة لصنع الحلويّات)، حتّى الخضار والفواكه. ويبلغ تعداد المحلات 86 محلًا.

الصفحة المقابلة: الحارة التي ولد فيها صباح.

(الشيخ محمد)، فاحفظ هذا السرّ». وحفظ الابنُ سرّ أبيه، كما حفظ ودّ أبيه لهذا الصديق الأمين، الذي كان «بنك» ودائعه، وحافظ أسراره. هكذا كانت للأمانة قدسيّتها، إذ لم يكن هناك حاجة لتوقيع أو بصمة. بل كانت الكلمة هي التي تَبصم في الوجدان.

في هذه الأجواء الطيّبة تربّى صباح الدين؛ بين أمّ محبّة للحياة تهوى المغنى والطرب، على الرغم من أنّها لم تكن تتمتّع بصوت جميل كإخوتها أصحاب الأصوات المميّزة عند قراءتهم القرآن وتدارسه.

أمّا والد صباح الدين فقد امتاز بكونه «شيخ طريقة»، وقد اتّبع الطريقة الرفاعيّة. وكان يقول لأبنائه إنّهم عمريون، ويرجع نسبهم إلى سيّدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). كان الشيخ محمد يدرّس تلاوة القرآن وأحكام التجويد لتلاميذ المكتب (الكتّاب)، إضافة إلى اللغة العربية والخطّ، وكذلك الحساب، وذلك في جامع الأطروش. اصطحب صغيره إلى حلقات الذكر والإنشاد، وتلاوة القرآن، الأمر الذي جعله يتعلّم القرآن ويجوّده، دون أن يبذل كثير جهد.



لوحة «العطّار» للمستشرق النمساوي-الفرنسي إرنست رودولف (1854-1932).



ختم القرآن

1939

اعتاد الشيخ محمد نجيب أن يصطحب ابنه الصغير، صباح الدين، إلى جامع الأطروش في الحارة القريبة حيث تُقام حلقات الذكر والإنشاد، وحيث اختار الشيخ محمد ركنًا منه ليُدرِّس فيه تلاميذَه تلاوة القرآن وحفظه، والتجويد، والخطّ العربي، والحساب.

كانت تلك المدرسة التي ارتادها الطفل باكرًا بصحبة أبيه، سببًا في ترسيخ الكلمة والحرف والنغم في ذهنٍ بكر لطفلٍ ذكيّ، لتبقى في مخزون ذاكرته، محفورة إلى ما شاء الله. لم تكن كغيرها من رياض الأطفال، ولم يكن صباح كباقي الأطفال الذين يُدفعون قسرًا إلى المدرسة. بل كان يستيقظ باكرًا لتلبسه أمّه ثيابه التي تليق بوجوده مع أبيه في الجامع، ثمّ يمسك بيد والده ليمشيا معًا إلى درس القرآن.

كان الشيخ محمد يلقي بتحيّته الصباحية على من يصادفه في السوق من معارف، رافعًا يده اليمنى بالسلام، بينما شبكت يده اليسرى بيد صغيره، ابن الخمس سنوات الذي تشبّث بها بقوّة حتّى وصلا إلى الجامع. كان الفصل الدراسي في نهايته. وكان اليوم الأخير لطلّاب الشيخ، ممّن تراوحت أعمارهم بين الثامنة والعاشرة، ليُسَمِّعوا ما تعلّموا وما حفظوا من القرآن الكريم.

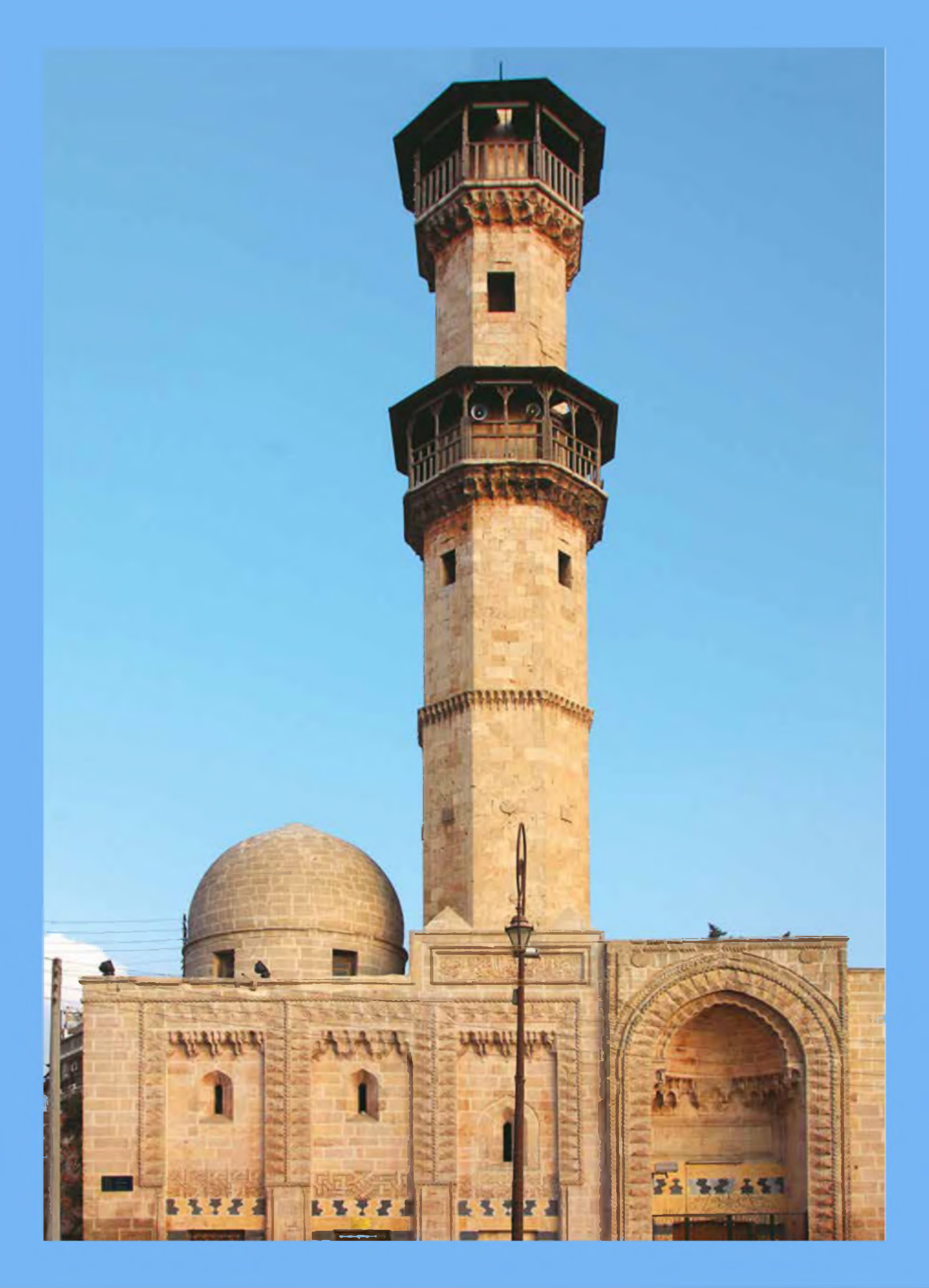
— اقرأ يا غسان سورة الملك من جزء تبارك.

يتلو غسان:

— تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيءٍ قدير...

كان الشيخ يتابع تلميذه بأذنيه وهو يتلو، بينما كانت أنظاره تميل مرغمة نحو صباح، الطفل المستمع الذي كان يحرّك شفتيه متابعًا كلّ كلمة يقولها غسان. وهكذا فعل مع باقي الطلّاب في امتحانهم الأخير.

الصفحة المقابلة: جامع الأطروش.







لملم الشيخ محمد حوائجه معلنًا نهاية الدرس، ونهاية الامتحان والفصل الدراسي، وودّع تلاميذه متمنّيًا أن يلقاهم في الفصل الآتي. ثمّ أمسك بيد صغيره، وهو يحاول أن يخفي ابتسامة ارتسمت على وجهه، وانطلق عائدًا إلى منزله وهو يرمي السلام على أهالي الحيّ. وما أن دخل باب الدار، حتّى نادى بعالي صوته:

— أم عبدو... تعالي يا أم عبدو.

هرعت عليّة ملهوفة لترى ماذا يريد منها الشيخ محمد:

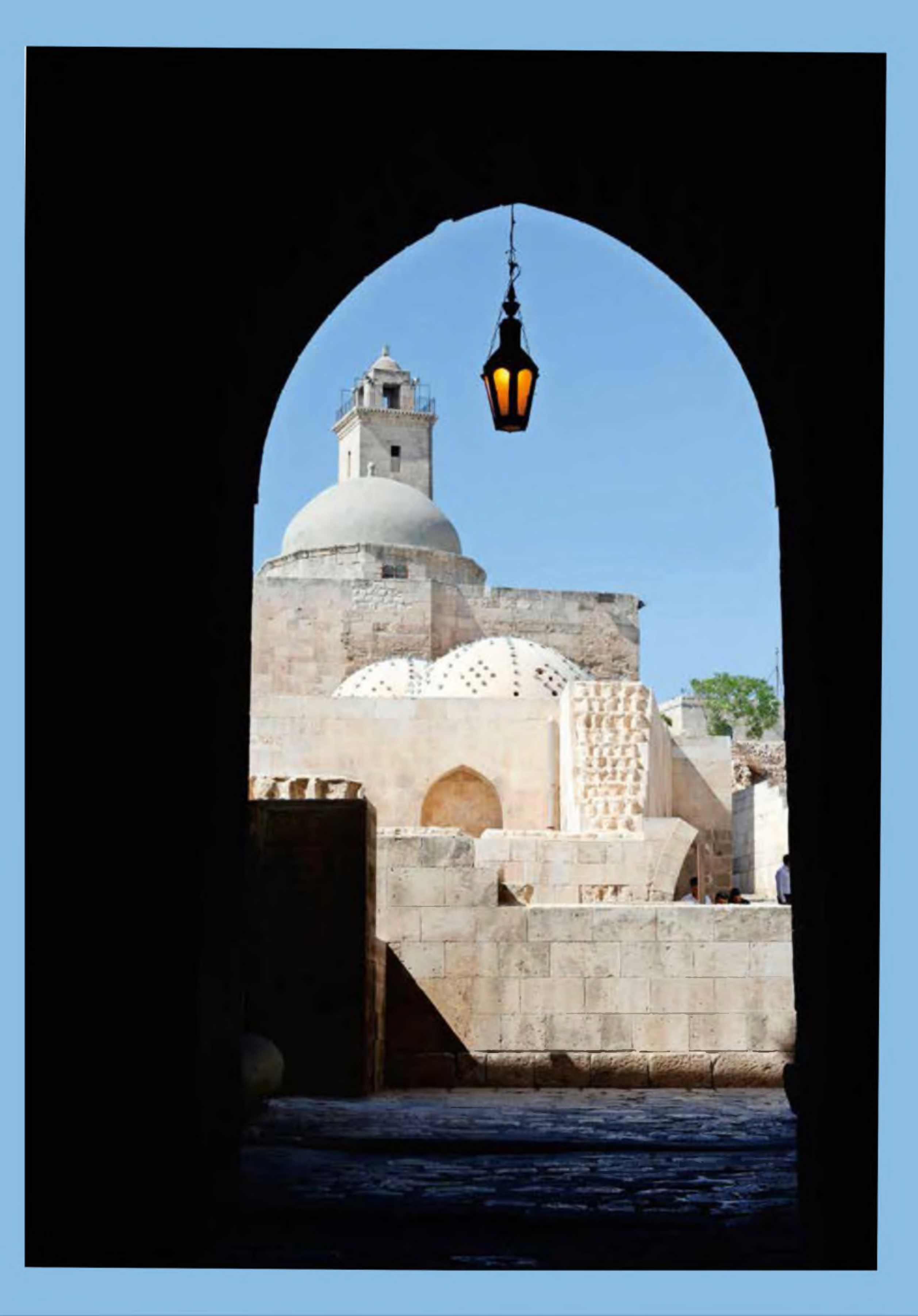
— خير يا حجّي...! خير انشالله.

— باركي لابنك صباح، ختم القرآن.

قالها بتباهٍ واعتزاز واضحَين، بينما لم تسع الفرحة عليّة التي ركضت لترفع صغيرها بين ذراعيها، وتضمّه إلى صدرها وتكاد الدموع تنفر من عينيها فرحًا وغبطة.

— ختمت القرآن يا صبّوحي... الله يرضى عليك، ويفرحني فيك.

الصفحة المقابلة: الجامع الأموي الكبير.



أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

كانت لصباح الدين الطفلِ جولاتٌ في بيوت الله برفقة والده الشيخ محمد، يتمتّع فيها بسماع المنشدين بأصواتهم الجميلة. وكان يختزن في ذاكرته الكثير من الأنغام لأغنيات شعبيّة قديمة، استعملها المشايخ في أذكارهم بعد أن قُدِّدت كلماتُها إلى أناشيد دينية يتداولونها في الجوامع وحلقات الذكر.

من جامع هارون دادا، إلى جامع الضهرة، وجامع آغاجق، إلى جامع «أبو ذر»، كلّما زارها صباح الدين الطفل مع أبيه، واستمع إلى جهابذة التلاوة والتجويد والإنشاد... حتّى أنّ الشيخ أحمد المبيّض لاحظه وهو يتردّد على زاوية الباذنجكيّة، في باب النيرب، واستمع إلى صوته، فأحبّه وتمنّى لو كان ابنه. ولم يمنعه ذلك من أن يصطحبه إلى حلقات النقشبندية. ولكي يزيد في ترغيبه، قال له مرة: «يا صباح، هناك مولد في جامع الضهرة أحبّك أن تشارك فيه. وسيعطونك ليرتين لقاء ذلك، فما رأيك؟». لا شكّ في أنّ الليرتين، في الثلاثينيات، كانتا تعنيان الكثير لطفل لم يتجاوز الثامنة من عمره. ويمكننا القول إنّهما كانتا أوّل أجر يتقاضاه صباح الدين لقاء إنشاده.

واتّفق مرّة أنّ الشيخ بكري الكردي، الذي كان يدير حلقة درس في جامع هارون دادا، طلب من صباح أن ينشد بمفرده بعد انتهاء الدرس. فأنشد نشيدًا قصيرًا نال الإعجاب، حتّى صار من المعتاد أن يجتمع المريدون، بعد انتهاء كلّ درس، ليستمعوا إلى جميل الإنشاد من الصبيّ المبدع صباح. وقدّم الشيخ بكري رجب لصباح الدين هذه القصيدة ليغنّيها:

مقلتي قد نلت كلّ الأرب...
هذه أنوار طه العربي...
هذه الأنوار قد ظهرت...
وبدت من خلف تلك الحُجب...

الصفحة المقابلة: لقطة لقبّة الجامع الأموي الكبير من البوّابة الداخلية للقلعة.

صَباحُ وَالخانُمْ

عاد المدلّل، ابن السنوات الست، من الحارة التي انتقل إليها مع عائلته في «وقف الجوبي» من «تراب الغرباء»،[1] بعد أن جلب لوالدته خبز الحصاوي بحبّة البركة والدبس من هناك. قرع الباب لتستقبله والدته على مدخل الحوش الكبيرة قائلة: «اذهب إلى غرفتك بعد أن تغسل وجهك وقدميك. فاليوم عندي ضيوف».

كان صباح يعرف ذلك جيّدًا. ويعلم أنّ من عادة صديقات والدته أن يجتمعن بعد العصر، ليتسامرن ويروّحن عن أنفسهنّ، بعد أن يتساعدنَ في إعداد مختلف أنواع الأطعمة التي اعتادت بيوتات حلب على تموينها في مواسمها. وكان يحلو له أن يتفرّج عليهن وهن يعجنَّ الخبز، أو يصنعن الجبنة المشلّلة، والكعك المرافق لها. أو يتذوّق من أيديهنّ المربيّات التي اشتهرت بها مدينة حلب: كمربّى الورد، والكرز، ومربّى الباذنجان، ومربّى الجوز، ومربّى الكبّاد والنارنج، ومربّى القرع،... كلّ في موسمه. كما يسرّه سماع ثرثرة النساء التي لا تسمح له سنواتُ عمره الخمس بفهم معظمها. في الوقت ذاته، كان يطرب للأغاني الشعبية التي يردّدنها، فيختزنها في ذاكرة الطفولة من دون أن يبذل جهدًا في ذلك. أتى عمدًا في التوقيت الذي يجمعه بهنّ، ليتطفّل على خصوصيّات والدته ورفيقاتها.

هرع مسرعًا لينفّذ أوامر والدته التي تتعلّق بنظافته. صعد على الكرسي الخشبيّ الصغير ليتأكد من جمال هندامه في المرآة. بلل يده من ماء البئر، ومسح بها شعره الأسود اللامع الذي قصّه حلّاق الحارة بما يناسب موضة الثلاثينيات، وضغط بيده عليه ليثبت قليلًا، بعد أن نبشته أيدي رفاق الحارة الأكبر منه سنًا. بعد أن أرضته المرآة، ابتسم ببراءة وقفز خارجًا من الحمّام، غير قاصد غرفته كما طلبت والدته، بل توجّه متسلّلًا إلى أرض الديار (الحوش)، من دون أن تشعر والدته وضيفاتها بوجوده. تسلّق شجرة الكبّاد بخفّة، ليستقرّ على أحد أغصانها حيث اعتاد أن يجلس كلّما أراد الاختباء من سكّان الدار. كان هناك في مأمن من المساءلات والمواعظ، في الآن عينه يشارك النساء أقاصيصهنّ وغناءهنّ، من غير أن ينتبهن أو يكترثن لوجوده.

---

[1] حيّ من أحياء حلب القديمة والمعروفة.

الصفحة المقابلة: بيت حلبي تقليدي بغرفه المطلّة على الباحة المشتركة.



كانت من بين ضيفات عليّة، إلى جانب السيّدة أم أسعد النقشبندي، زوجة بائع المشبّك واللقم، سيّدةٌ محترمة من جيرة الدار وهي ملمّة بثقافات متوارثة، وتتحلّى بخبرات عمرٍ مخضرمة، وبحسن سيرة تميزّها وتدعو لاحترامها، ما حدا بأهل الحيّ إلى أن يلقبوها بـ«الخانم». بينما كانت تجول بناظريها في أنحاء الفسحة السماوية، لامست سمعها دندنة ناعمة ولفتتها حركة على شجرة الكباد حيث كان الطفل يهزّ الأغصان بإيقاع يتماشى مع ترنيمته، بينما كان يرصد من خلال الغصن كلّ ما يدور في صحن الحوش من أحاديث وضحكات بين نساء الحيّ. فما كان منها إلّا أن رفعت رأسها ونادت ملوّحة بيدها: «صباح! انزيل لعندي...».

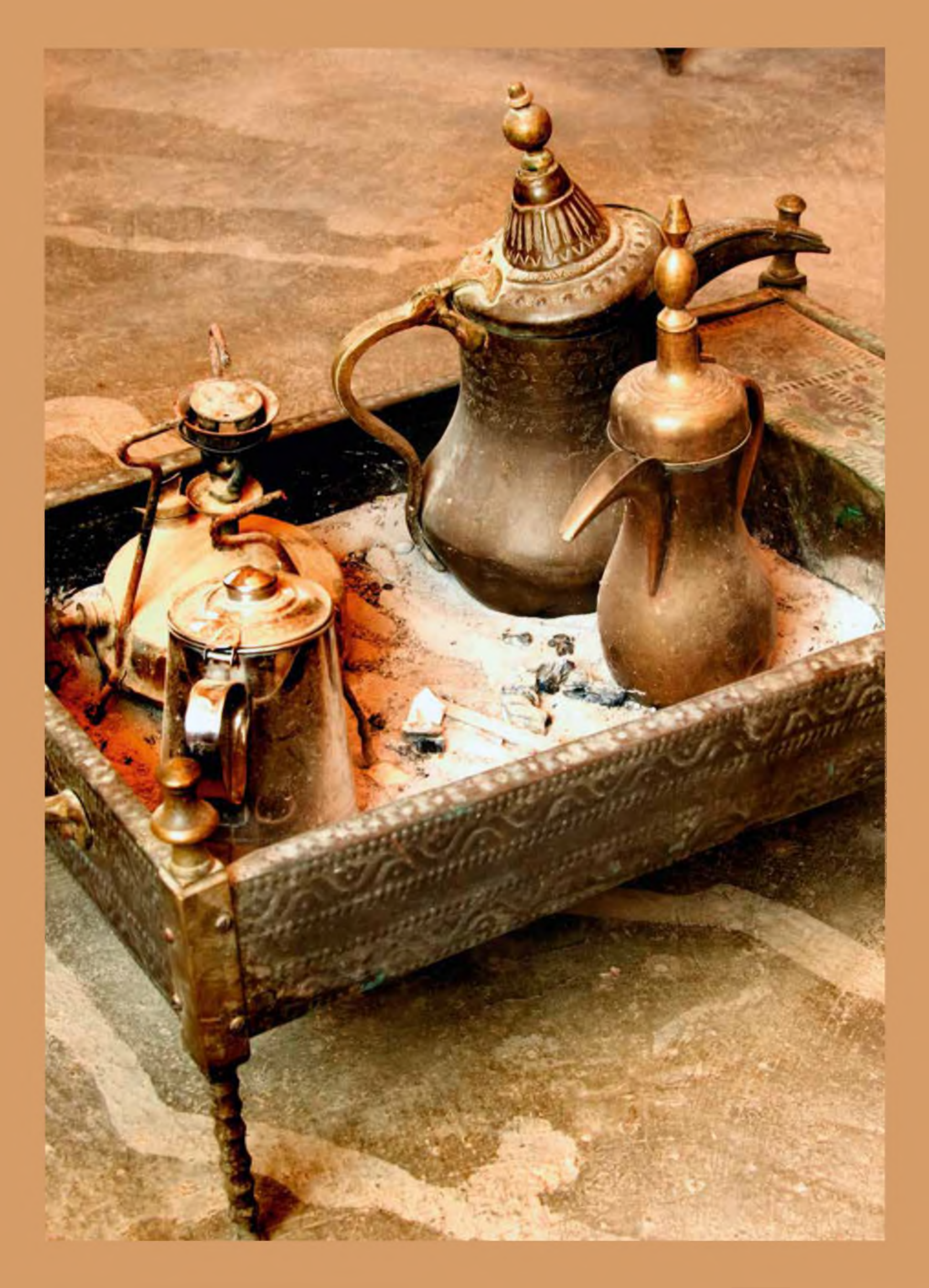
وبسرعة البرق، وخفة النسانيس، انزلق الطفل من على الشجرة ليمثُل بين يديّ الخانم، ملبّيًا دعوتها له بلهفة.

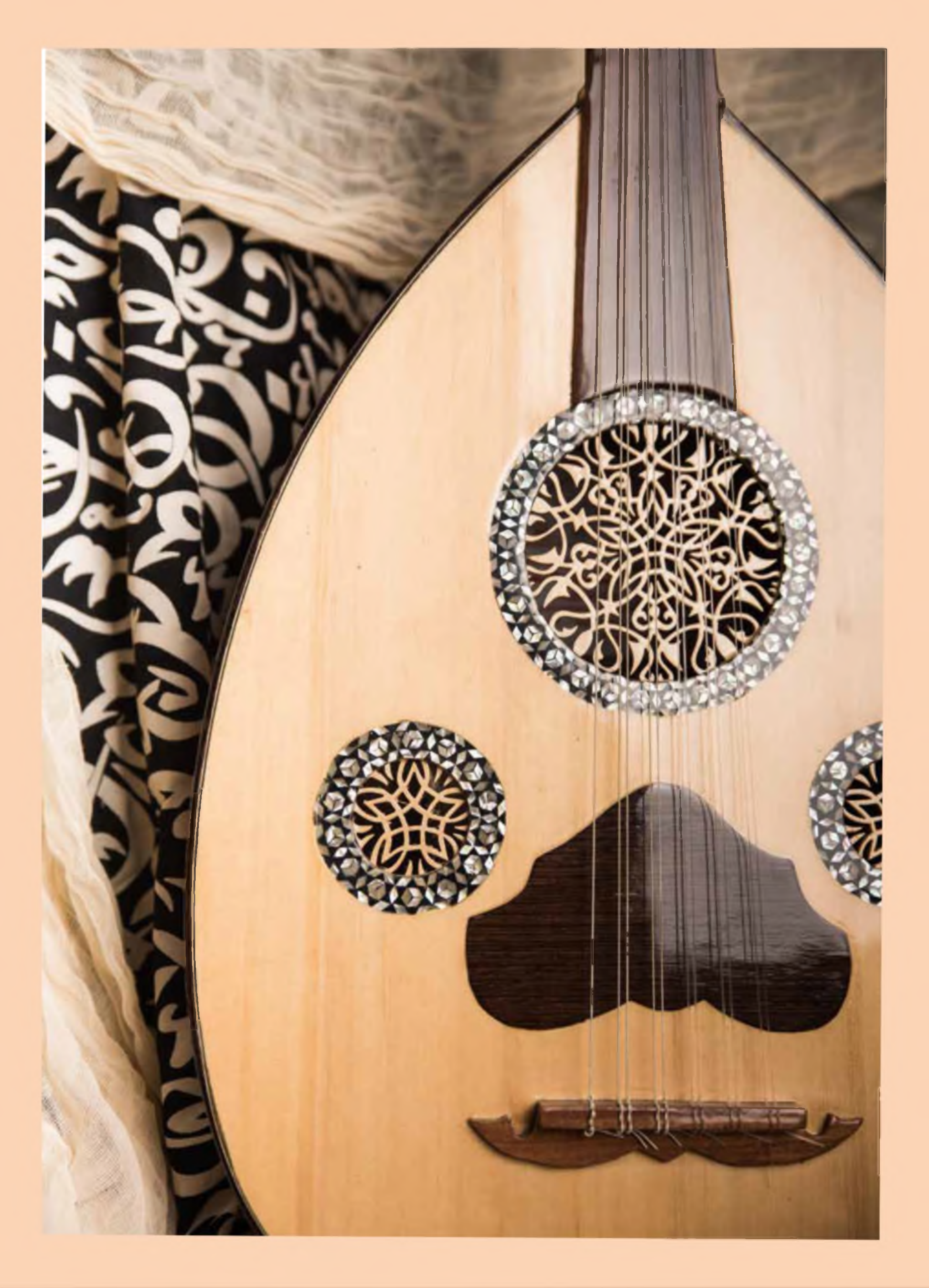
— صباح... سأعلّمك موّالًا لتغنّيه.

هزّ الطفل برأسه موافقًا، وعيناه تلمعان بتشوّق، واستجمع كلّ حواسه لسماع ما ستقول. دندنت الخانم بخافت الصوت، قبل أن تنشد ما علق بمسامع الصبي الصغير، ونقش في ذاكرته...

غنِّ يا بلبل وسلِّ الناس بتغريدك...
الله يتمّم عليك الجمال ويزيدك...
السعد لو عاد لا بإيدي ولا بإيدك...
الزم غصونك يا بلبل وطير في الجو وادعيلي...
يمكن بساعة رضا يحلها سيدك...

التفتت إلى الطفل بعد أن غنّت، وطلبت منه أن يعيد ما قالت، وفي تعابير وجهها رغبة في التسلّي، ما لبثت أن انفرجت عن إعجاب ودهشة عندما سمعته يعيد ما أنشدت كلماتٍ ومغنًى، بتحدٍّ طفوليٍّ ذكيّ لم تتوقّعه من هذا الصغير. ضمّته إلى صدرها بحنان، وهي تقول: «أحسنت يا ولدي، برافو عليك...». ثمّ استدارت إلى والدته معبّرة عن انبهارها: «أهنّئك يا عليّة... ابنك حاد الذكاء، وشديد النباهة. أتوقّع له مستقبلًا باهرًا. إنّه، برغم صغر سنّه، يؤدّي النغم والكلمات من غير أن يخطئ بحرف أو نغمة».





مَعَ عَبْدِالهَادِي

هذا الطفل الذي بدأ يشتدّ عوده، ويزداد تعلّقه بالغناء والإنشاد، لم يكتفِ من التزوّد بذخيرة النغم من الذكر والتهاليل والإنشاد؛ فقد رأى أخوه الأكبر أن يصطحبه إلى أماكن السهر التي يرتادها، ليستمع إلى عمالقة الفنّ في مدينة الطرب الأصيل آنذاك.

استأذن عبد الهادي والده الشيخ ليصطحب أخاه الأصغر إلى بيت الحاج أديب خضير، ليحضر سهرة يغني فيها بكري الكردي ومصطفى الطرّاب.[1] واستطاع عبد الهادي أن يقنع والده بوجوب تنمية الموهبة المتميّزة التي يملكها صباح الدين.

دخل صباح دار السيد أديب خضير. لم يَرهَب وجودَه بين كبار السن، لأنّه مشى خلف أخيه الأكبر، واختار كرسيًّا ملاصقًا له. جلس هادئًا مستمعًا، مصغيًا إلى الحرف والنغمة التي تصدر عن أسياد الغناء في ذلك الوقت. كان هؤلاء يتقاضون أجورهم بالليرات الذهبيّة. استمتع ليلتها الصبيّ الموهوب بسماع ألحان مختلفة، وأداء جديد خرج عن مألوف ما يسمعه في حلقات الذكر والإنشاد، فجذبته الكلمات من دون أن يعي كلّ معانيها، وسرح في أنغام لم يسمعها بعد. كلّ ذلك ضمّه صباح الدين إلى مخزونه الثمين.

لم يخطئ من قال: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر». فكلّ ما أبدع فيه صباح كان حصاد ما زُرع في رأس ذاك الطفل ووجدانه من النغم، والكلمة، والإيقاع، بعد التجويد والأذكار. لقد عاش طفولة مميّزة، في بيئة كرّسها الخالق لتجعل منه نابغة في عالم الفنّ الأصيل، وتكرّر حضوره مجالس النغم والشعر، في بيوت أثرياء حلب ومثقّفيها من الطبقة الراقية، مع كبار الفنّانين والشعراء، ما أثرى مخزونه الفنّي باكرًا وهو لم يتعدَّ السنوات العشر.

أصاب عبد الهادي عندما قرّر أن يذهب بأخيه إلى محافل الفنّ والأدب؛ فبعد أن كان الصبيّ الصغير مستمعًا، صار مشاركًا. ينتظره الكبار في جلساتهم، ويطلبه آخرون لإحياء حفلاتهم. بل غدا حديث مجتمعات الفنّ والطرب، وحظي بتشجيع من كبار المطربين الذين

---

[1] كان منشدًا وقارئًا للقرآن ويُعدّ من الأصوات الجميلة في مدينة حلب. تميّز بأسلوبه الخاص (هانغ) الذي نهل منه صباح فخري، كونه زوج أخته بالرضاعة. هذا ورافقه في الكثير من حفلاته.



بكري الكردي
1978-1909

ملحّن ومنشد سوري. ولد سنة 1909 في جسر الشغور، وتوجّه بعدها إلى حلب للتعلّم. عمل مؤذّنًا في جامع الملخانة بحلب. تعرّف في الأربعينيات إلى الشاعر حسام الدين الخطيب، حيث عملا معًا على تأليف القدود الحلبية وتلحينها. عمل الكردي في إذاعة حلب عند تأسيسها سنة 1949، ثم ترك العمل بعد فترة، وأصبح مؤذّنًا للجامع الأموي الكبير، حتّى وفاته في سنة 1978. دفن في مقبرة جبل العظام بحلب. من ألحانه: «أنستَ يا نور العيون»، «يا محمد لك اللوا والتاج»، «ابعتلي جواب»، «القلب مال للجمال».

كان يسرّهم أن يحفّزوا موهبةً بكرًا تنبئ بصوت يستحقّ أن يُسمع. بين هؤلاء الجهابذة من يدعونهم أهالي حلب بـ«السمّيعة». تعشّقت الموسيقى الشرقيّة في كيانهم، واختمرت في أذهانهم لأنّهم يتمتّعون بآذان خبيرة لا تخطئ النغم، وتكتشف خامات الصوت، وتحسن تصنيفها. واعتُبرت حلب، بوجود أمثالهم، محطّةَ اختبار وامتحان لا يجتازه إلّا مَن صلح فنّه. وحتّى يُكرَّس الفنّان مطربًا أصيلًا، لا بدّ له من أن يثبت ذلك أمام سمّيعة حلب.

من هنا، كانت الزيارة الأولى للموسيقار العظيم محمد عبد الوهاب لمدينة حلب، في العام 1930، امتحانًا يرويه الموسيقار بنفسه فيقول (بلهجته المصرية):

> «أنا رحت في حلب، غنّيت زمان، وحصلّي فصل يصحّ سرده الآن. فلمّا رحت في المسرح أغنّي، لقيت إنّ الجمهور اللي بيسمعني لا يزيد عن عشرين تلاتين نفر، في تياترو يسع ألفين تلات آلاف نفر. فصعقت، واندهشت، وانكسرت نفسي، لأنّي حسّيت إن دُول مش عايزين يسمعوني. غنّيت أوّل حفلة، ووجدت إنّ الناس اللي بيسمعوني، ناس مخضرمين، وفي سنّ كبيرة، كلهم تجاوزوا الخمسين ستّين سنة. مش في سنّ صغيّرة. وغنّيت، وحطّيت علّي في المغنى. وفضلت أغنّي طول الليل. ولاحظت إنّ الناس دُول كلّهم بيمسكوا إيقاع مظبوط باليد.
>
> بعدين، تاني حفلة، وجدت إنّ التياترو اللي كان فيه عشرين نفر، في تاني يوم بقوا ألفين، ويمكن ألفين واقفين، فاندهشت...! وندهت الراجل المتعهّد، وقلت له:



محمد عبد الوهاب.

إزّاي؟؟ إيه الفرق الشاسع بين امبارح والنهارده؟ فقال لي: هنا في حلب، أمّا بِيجي مغنّي جديد مايروّحش الشعب كلّه، لكن بيبعت المستمع الموتوق بيه. احنا عندنا هنا مستمعين بيفهموا في الفنّ ويقدّروه. فإذا ما أقرّوا المغنّي، بيجوا الشعب تاني يوم يسمعه، وإذا لم يُقِرُّوه، يروح في داهية. والحمد لله مارحتش في داهية.»

هذا ما كان مع الأستاذ محمد عبد الوهاب. أمّا السيّدة أم كلثوم، سيّدة الغناء، فقد كان لها في زيارتها حلب أيضًا قصّة رواها صباح فخري كما سمعها:

«عندما جاءت السيّدة أم كلثوم إلى حلب أوّل مرّة 1931، اجتمعت أمامها عصبة السمّيعة وشيوخ الغناء والموسيقى، ليقيّموا الزائرة الجديدة ذائعة الصيت. وكانت حفلتها في مسرح الشهبندر. وكالعادة، كانوا يستمعون بإصغاء واهتمام بالغين،



صورة للسيّدة أم كلثوم التقطت في حلب العام 1931 في محلّ شاهين،
وكيل أسطوانات أديون.

يرافقون ضارب الإيقاع بحركات أكفّهم على الركب ببراعة وحرفيّة مدهشة. وبينما كانت أم كلثوم تغنّي، إذ بعلي الدرويش يضرب بعصاه (البسطون) على الأرض ضربةً قويّة، ويقول بصوت مسموع "نشاذ!" وذلك لأنّ صوت سيّدة الغناء العربي خانها بنغمة بسيطة (وجلّ من لا يخطئ) تصعب ملاحظتُها إلّا لأذن شديدة الدقّة وعالية الخبرة.

أكملت السيّدة الذكيّة وصلتّها، ثمّ سألت عن الذي اعترض غناءها، وطلبت مقابلته. فجاءها علي الدرويش مبديًا أسفه على تصرّفه أمام ضيفة حلب، ولكنّه ما اعتاد أن يتغاضى عن غلطة موسيقية من صوت جميل كصوتها. وبذكائها المعروف، شكرت له موقفه، ورحّبت بصداقته معجبة بدقّة سمعه، وتعرّفت إلى عائلته وأبنائه. ثمّ اصطحبت ولديه إبراهيم درويش ونديم درويش إلى مصر، واحتضنتهما فنّيًا، وأمّنت لهما منحة دراسية في مصر، وذلك خدمة للشيخ علي الدرويش وتقديرًا لمكانته الفنّية. ويُقال إنّ السنباطي ومحمد عبد الوهاب وعزيز صادق كانوا تلامذةً لدى الشيخ علي الدرويش الذي علّم في معهد الموسيقى في القاهرة لمدّة ثلاث سنوات، إذ كان مختصًا في آلتي الناي والقانون، وعازفًا ماهرًا عليهما.»



الدكتور فؤاد رجائي آغا القلعة

حلب 1910-1965

باحثٌ موسيقيّ وطبيب أسنان وشاعر سوري. أرسى دعائم عدّة مؤسّسات موسيقيّة تعليميّة ومهنيّة. وأسهم، من خلال مركزه العلميّ والاجتماعي، في تحقيق مكانة عالية للموسيقيين في مجتمع محافظ. أكمل اختصاصه الجامعي في استانبول، حيث درس الموسيقى أيضًا. أدرك من خلال دراسته الجامعية أهمّية التعليم وتطوير أدواته في رقيّ الموسيقى، فافتتح معهدًا موسيقيًّا خاصًّا ومجانيًّا لأوّل مرّة في حلب سنة 1949. وفي العام نفسه، أسّس إذاعة حلب، وبقي مديرًا لها حتّى سنة 1956. وثّق لعددٍ كبير من الموشّحات والأدوار القديمة صوتيًّا، كما قدّم البرامج الإذاعيّة التي عُنيَت بنشر الثقافة الموسيقية. أصدر، عام 1955، كتابه الشهير «من كنوزنا»، حول الموشّحات الأندلسيّة. وهو أوّل كتاب يعنى بدراستها وتوثيقها على مستوى العالم العربي. ضمّ الكتاب، لأوّل مرّة في العالم العربي، تدوينًا موسيقيًّا (من خلال التعاون مع الأستاذ نديم الدرويش) لعدد كبير من وصلات الموشّحات.



الشيخ علي الدرويش

حلب 1884-1952

ولد الشيخ علي الدرويش في حلب عام 1884. درس أساليب الموسيقى والغناء في التكية المولوية في حلب، كما درس ثمّ درّس الموسيقى في استامبول في مدرسة دار الألحان، حيث وضع كتابه «النظريّات الحقيقيّة في علم القراءة الموسيقيّة». عاد إلى حلب ليعمل كرئيس لجماعة الموسيقيين والمنشدين في التكية المولوية. دعي للسفر إلى القاهرة عام 1927 للتدريس في المعهد الموسيقي الملكي، وكان من بين طلّابه عبد الوهاب ورياض السنباطي. انتقل إلى تونس عام 1931 حيث عمل مع البارون ديرلانجيه وقام بتدوين النوبات الأندلسية فمنحه باي تونس وسام الافتخار. شارك في مؤتمر القاهرة للموسيقى العربية عام 1932، وقدّم أبحاثًا هامة في المقامات الشرقية والإيقاعات. عاد أواخر عام 1939 إلى حلب، ثمّ انتقل إلى دمشق للتدريس في معهدها الموسيقي في عام 1943، ومنها انتقل إلى بغداد لتدريس الموسيقى والموشّحات في معهد الفنون الجميلة. عاد إلى حلب في عام 1951 ليعمل على تسجيل الموشّحات في إذاعة حلب، وتدريس الموسيقى في المعهد الموسيقي بحلب. توفّي في حلب في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1952.

مَعَ نِسَاءِ الدَّار

بعد أن اكتشفت الخانم صوت الطفل صباح الدين، وأعجبت به، صارت النساء يطلبن منه الغناء كلّما اجتمعن في فسحة الدار ليتسامرن. وكان يحلو له أن يسلّيهنّ بما يحفظ من أغانٍ شعبية دارجة مثل: «يا اخوان أنا شو ذنبي... وهالنسوان حرقوا قلبي». وهي لمونولجست حلبي يدعى أبو عمشة، كان ناقدًا شعبيًا في حلب، كما سلامة الأغواني في دمشق، وعمر الزعنّي في بيروت.

وله أيضًا:

شفت ستّ وعجبتني
طلعت عيونا بتغمزني
قلت يمكن حبّتني
ولما لحتقها على بيتها قالتلي
بعد المحبة تعا شوف
ما تسمع غير طرق الكفوف
وم القتل صرت ملهوف
يا تعتيري ويا غلّي
آه يا خوفي من ربي

وكان يسعد بعضُهنّ ويسلّيهنّ أن يستفزنَه ليشتمهنّ بكلّ ما سمع من الشارع من كلمات، فيضحكن.

حدث أن كانت زوجة النقشبندي، بائع الحلوى، بين سيدات التسامر يومًا. قالت له: «سنأخذ أمّك وأباك، ونتركك في قبو الدار». قالت ذلك بدون تقدير لمشاعر الهلع التي تثيرها في طفل لا يملك سلاحًا يقابلها به سوى أن ينهال عليها بكلمات يعبّر فيها عن سخطه وغضبه، دفاعًا عن كيانه.

أما ابنة خاله، السيّدة نهيدة القدسي، فقد كانت تستدعيه كلّما كان موعد استقبالها الشهري لصاحباتها (يسمونه القبول[1] في حلب)، ليغنّي، وكانت تسترضيه بهديّة ليلبّي طلبها.

بينما استمرّت والدته في اصطحابه إلى حمام السوق مع السيدات، حتّى نبّهتها صديقتها إلى أنّه لا يجوز ذلك حتّى لو كان طفلًا في الثامنة من عمره.

ربّما كانت تلك السيّدة على حقّ، فللصغار مشاعرهم التائهة بين براءة الطفولة والغرائز الكامنة، تنتظر من يوقظها حتّى قبل أن تكتمل هرموناتها وتنضج.

ها هو صباح الدين في سنّ الثامنة، ينتظر زيارة ابنة خالته التي تزوجت في بلدة تاتف، ليتمكّن من رؤية ابنة زوجها الجميلة، والتي كانت تكبره بضعف عمره؛ فكان يرقبها كلّما أطلّت من شرفتها التي تقابل غرفته، ليمتّع ناظريه بحسن جمالها وأنوثتها الهادئة، فيطلق العنان لخياله وهو يحلم بها طوال الليل. كان يعاني، بينه وبين نفسه، عذابَ الحبّ العذري الطفولي، ومتعة ألمه وأحلامه التي لا طائل منها سوى إرضاء مشاعر غضّة لا يعرف لها تفسيرًا، فتُخجله، ولا يقوى على البوح بها.

[1] القبول: من العادات الاجتماعية لسيّدات حلب أن تحدّد كلّ سيّدة موعدًا شهريًا تستقبل فيه من ترغب من صديقاتها ومعارفها. وتكون الدار مفتوحة في ذلك الموعد، دونما حاجة إلى توجيه الدعوة أو الاستئذان. ويسمى هذا الاستقبال بالقبول. ويتخلّل هذا الاجتماع النسائي الشهري الغناء والعزف والرقص، حسب رغبة صاحبة الاستقبال، إضافة إلى أنواع الضيافة التي تتباهى بصنعها وتقديمها سيّدة الدار.



صباح الدين أبو قوس في المدرسة الحمدانية، الصف الرابع.



صباح التلميذ

علاقة ربّانية تلك بين الطفل وأمّه. إنّها لا تنقطع مع الحبل السرّي الذي سُلخ من رحمها وهي تتمخّض لتقدّم للعالم حياة جديدة. فما بالك عندما يكون هذا الطفل هو صغيرها المدلّل، والمتميّز أيضًا؟ كانت علاقة الطفل صباح الدين بأمّه أشبه ما تكون بالالتحام؛ إذ كان لا يغيب عن عينيها إلّا قليلًا، وإن ابتعد عنها بقي في وجدانها.

دخلت عليّة على زوجها، تحمل إبريق الشاي، وفي فمها حديث تريد أن تبوح به، وقد اتّخذته قرارًا لا تحيد عنه. تطلّب منها ذلك حنكة وطريقة في الإقناع، فتحيّنت فرصة كان الشيخ محمد جالسًا فيها باسترخاء ينتظر كأس الشاي من يد زوجته. توقّفت أمامه برهة قبل أن تنبس ببنت شفة، فبادرها بقوله وهو يتناول الشاي:

— ماذا لديك يا أم عبده؟ هيا قولي.

— أريد أن أكلّمك بخصوص صغيرنا صباح الدين.

— إش به!؟

— أرغب في إدخاله المدرسة الحكومية.

انتفض الشيخ محمد كمن فاجأه الحديث، وقال:

— ماذا تقولين يا عليّة؟! وماذا كان يفعل عندي في المكتب!؟ ألم يتعلّم ويتفوّق على تلاميذ الحيّ كلّهم!؟ ألم يحفظ القرآن والتجويد!؟ ألم يتعلّم الخطّ والحساب!؟ أنا أدرّس أبناء الحي والأحياء المجاورة، وابني يدخل مدارس الحكومة!؟ لا، لا، دعي عنك هذه الأفكار. صباح الدين اكتفى بما تعلّمه عندي في المكتب.

التفتت عليّة بكلّ ثقة وإصرار:

— أرجوك أن تهدأ وتستمع إليّ قليلًا. إنّ صباح آخر أولادي وأصغرهم وأحدّهم ذكاء. وقد لاحظتَ تفوّقه على أقرانه بنفسك. وأملي بالله أنّه سيحظى بمستقبل باهر بإذنه تعالى، فأتوسّل إليك ألّا تقف في طريق مستقبله.



قلعة جبل سمعان. رحلة مدرسة الحمدانية ما بين 1943 و1946.
التلميذ صباح يتوسّط الصورة.

— ولكن لم يدخل أحد من إخوته المدارس، ألم تسمعي ما يقال عنها، إنّها لجماعة الماسونيّة!

— هذا كلام لا أقتنع به، وأنا أرى كلّ أبناء الذوات يسجّلون أبناءهم في مدارس الحكومة. الأيّام اختلفت يا حاج، وهناك في كلّ يوم علم جديد، فلماذا نحرم ابننا منه؟ ألا ترى معي أنّه يختلف حتّى عن إخوته؟

لم يحتج الشيخ محمد كثير وقت ليقتنع بوجوب تعليم ابنه في مدارس الحكومة، خصوصًا أنّه أنهى تعليمه في مدرسة أبيه التي لا تتعدّى كونها الكتّاب.



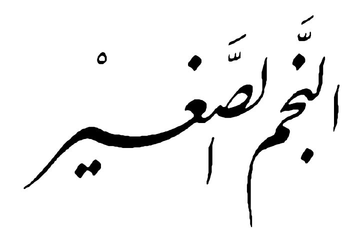
قلعة جبل سمعان.



نهر بانياس. رحلة مدرسة الحمدانية ما بين 1943 و1946.

ولم تنتظر عليّة كثيرًا لتسوق صغيرها من يده وتسجّله في مدرسة الحمدانية في حيّ الفرافرة. وعادت به مارّة بخيّاط الحيّ ليفصّل له زيّ المدرسة الموحّد.

صار صغير العائلة يرتدي كلّ صباح مريلته السوداء ذات القبّة البيضاء، ويذهب إلى مدرسته سيرًا على الأقدام بسرور وبهجة بالغين. وأثبتت الأيّام حسن ظنّ والدته بفطنته وذكائه؛ إذ بدا تفوّقه في اللغة العربية جليًّا واضحًا، كما في التربية الدينية والخطّ، ما جعله يقفز إلى الصفّ الثاني مباشرة ليكون بمستوى التلاميذ الآخرين.



1941

برز نجم التلميذ صباح الدين أبو قوس في مدرسة الحمدانية، كتلميذ مجدّ ومجتهد. تفوّقه الواضح في اللغة العربية والتربية الدينية - بسبب ختمه القرآن - جعله بارزًا بين أقرانه. أضف إلى ذلك أنّه تميّز في حفلات المدرسة التي تتطلّب إلقاء وخطابة، وغناء. ذاع صيته في المدارس الأخرى لجمال صوته، فطلبته مديرة روضة البلابل ليشارك في المهرجان السنوي لأطفال المدرسة الذي تحييه في «الفرافرة»، فغنّى يومها:

يا ليتني كنت عصفورًا   أحب الضوء والنورا

وأأبى العيش مأسورًا   فيا أولاد خلّوني.

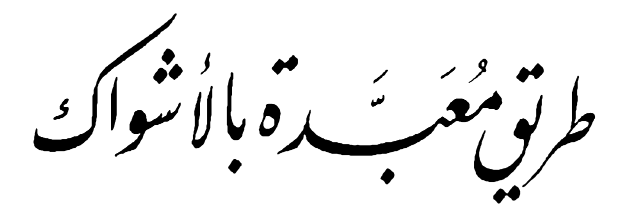
لم يمضِ كثير من الوقت حتّى عُرض على صغير القصيلة دور في مسرحيّة أقيمت على مسرح سينما الشرقي في حلب. وكأنّ الله كتب لهذا الطفل أن ينخرط باكرًا في كلّ مجالات التحدّي التي تهزّ الناضجين والشيبة.

كانت تلك المسرحيّة الغنائية تدعى «الكارثة». أخرجها أسعد حطب، ولعب دور البطولة فيها حسن بصال، ولحّن أغانيها نديم الدرويش. أما ابن الثامنة، صباح، فقد أُسند إليه دور صبيّ يستشهد شقيقه في ساحة المعركة، فيرثيه غناءً.

«يا عيون الشباب اندبيه، ويا رحمة الله تغمديه.»

أدّى صباح دوره التمثيلي على أكمل وجه. وما أن بدأ في غناء الموّال الذي يرثي فيه شقيقه، حتّى غلبته الدموع تأثرًا فبكى، وأبكى معه جمهور الصالة. تغلّبت العواطف والمشاعر على النغم واللحن والأغنية. وهذا لم يكن في حسبان الملحّن الذي كان يفضّل أن يظهر الصبي قدرته الغنائيّة، وجمال اللحن، بدلًا من البكاء الذي خدم القصّة، ولكنّه ذهب باللحن.

كانت تجربة مفيدة لصباح، وكانت الوحيدة في العمل المسرحي الذي لم يخضه ثانية في حياته الفنّية.



طريق معبّدة بالأشواك

الفنّ رسالة وكرامة...

في مدينة الطرب الأصيل، ولدى عشّاق الغناء والنغم، لم يكن امتهان الغناء سهلًا لفتًى تربّى في حضن مجتمع متديّن محافظ، يعتبر الفنَّ مهنة الملاهي. فالبيئة الدينية - التي تعلّم من خلالها الإنشاد، والابتهالات الدينية، والنغمات، والإيقاعات الشرقية، والموّال - نفسها ترفض امتهان حرفة الغناء والموسيقى، خضوعًا لبعض فتاوى المتشددين، بسبب انطباعات خاطئة عن الوسط الفنّي.

هو المجتمع نفسه الذي يساهر المطرب المبدع حتّى الصباح، يتعامل مع المطرب الناشئ وكأنّه ملكه ما دام يدفع له أجر غنائه. ولكنّ هذا الفتى الطموح كان قد عقد العزم على أن يفرض للفنّ الذي يقدّمه مكانته العليا، متمثّلًا في ممارسته واحترامه لفنّه وكبريائه.

خرج الفتى مع مصطفى الطرّاب لحضور «صَبَحِيِّة»[1] في دار أحد الأثرياء في مدينة حلب. وكان محمد صباح[2] يومها، ممّن يدعمون الجوقة بالمشاركة (يدعونه في حلب الجحّيف، أو السنّيد)، قبل أن يبدأ المطربون الكبار بغنائهم. يومها طلب الطرّاب من محمد صباح أن يسعفه ويسنده بالموشّحات، فتفرّد بأداء الموشّح ريثما يغنّي الطرّاب. وإذ بأحد الحاضرين السمّيعة يقف على قدميه قائلًا: «اسمعوا اسمعوا... هون في شي جديد!» فأنصت الجميع إلى جمال الأداء والصوت الفتيّ، ما منحه فرصة الاستمرار في الغناء منفردًا، ولفت أنظار الحضور وأسماعهم، فأبهرهم.

كان هذا هو الأستاذ سامي العطري، وهو من خيرة جليسي المغنى في حلب. ومن أوائل من استمع وأحبّ صباح، وتوقّع له مستقبلًا رائعًا. وممّا لا شكّ فيه أنّ تلك الحفلات كانت تفسح المجال للفتى ليستفيد من غناء الكبار، ومن تشجيع الجمهور الحلبي الناقد. وقد تعلم صباح من «هانغ» الطرّاب القصيدة، وأجاد. وقد سُرّ الفتى الناشئ بردود الفعل لدى

---

[1] الصبحيّة: هي مناسبة مسائية تجمع الرجال في جلسة طرب وغالبًا ما تستمرّ حتّى الصباح.

[2] محمد صباح كان اسمه الفني في بداياته في حلب.

الحضور الحلبي المميّز. شهد بنفسه كيف ينسجم الحاضرون مع الطرب الأصيل، وكم يتودّدون للمطرب ليلبي لهم ما يفضّلون من المغنى والفنّ العريق. لاحظ الفتى مدى احترام الناس للمغنّي، ومدى تشجيعهم إيّاه. وعاد إلى منزله منتشيًا، بعد أن نال من استحسان الحضور ما يكفيه ليعيش حلمًا سعيدًا ينقله إلى عالم جميل، يعتلي فيه عرش المجد بين أباطرة الغناء العربي الأصيل. في اليوم التالي، خرج الفتى قبل الظهر مع مصطفى الطرّاب، وإذ به يقابل أصحاب الدار التي أحيوا صبحيتها. وفوجئ بأنّهم تجاهلوهما، وابتعدوا إلى الرصيف المقابل متجنّبين أن تتقابل الأعين، فيضطرون محرجين إلى تحيّتهم. تساءل عن السبب. ولم يدع تساؤلاته بين جنباته، بل طرحها صراحة على مصطفى الطراب.

— أوليسوا هؤلاء الذين كنا في صبحيّتهم البارحة؟

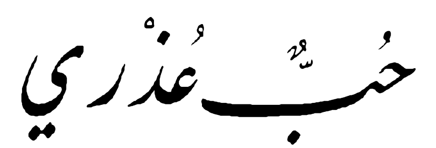
— نعم يا بنيّ، لا داعٍ للفت نظرهم.

— ولكنّهم رأونا، وأنا واثق من ذلك. فقد وقعت أعينهم عليك، فاستداروا!

— نعرف ذلك جيّدًا يا بنيّ. نحن، أنا والمطربون الكبار، من صبري المدلّل إلى بكري الكردي وعلي عبد الجليل، نحيي كلّ سبتيّاتهم، وخميسيّاتهم. في الليل يرتجوننا لنغنّي، ونتجاهلهم في اليوم التالي لأنّهم لا يحبّذون العلاقات الاجتماعية مع الفنّانين. بل لا يعتبرونهم من مستواهم الاجتماعي.

كان لهذه الحادثة الأثر الأكبر في نفس هذا الفتى المعتدّ بشخصيّته. وصار السؤال زائره كلّ يوم، وكلّ ساعة: لماذا؟ ومع الأيام حضره الجواب البسيط في عبارة: «من يهن يسهل الهوان عليه». فقد كان يرى أنّ كثيرًا من الفنّانين يحضرون الحفلات ليتناولوا ما لذّ وطاب في بيوت الذوات، ويقبضون لغنائهم أجرًا يعيشون منه. بالإضافة إلى أنّ بعضهم كان قليل الثقافة، ولم ينل قسطًا كافيًا من التعليم يتحصّن به. وأكثرهم جاؤوا من بيئات شعبية بسيطة طيّبة ترضى بما قُسم. من يومها اتّخذ صباح قراره بأن يخلق لنفسه كيانًا مختلفًا، وأن يسعى إلى أن يكون الفنّ رسالة، يحفظ فيها كرامة الفنّان وعزة نفسه. وصار هدفه أن يجعل من الفنّان شخصًا محترمًا، يتهافت الناس عليه للتحيّة، بدلًا من أن يتجنّبوا لقاءه على رصيف آخر.

وكلّنا نعرف أنّ صباح فخري حقّق ذلك. وحفظ لنفسه مكانًا بين النجوم. وأعلى مكانة الغناء والفنّ الأصيل إلى مرتبة قفزت عن الإنشاد، وتخطّت الأذكار، وتجاوزت تسلية الناس، إلى عرش العراقة، والإبداع، والرقيّ بغنائنا وموسيقانا الشرقية إلى مصاف العالمية.



حبّ عذري

لا بأس من أن نطوف قليلًا في جوانب مراهقة صباح، وأرجاء شبابه. ولا سيّما أنّ الأجواء الفنّية هي التربة الخصبة لهيجان العواطف ونشأتها. وبرغم كونه خجولًا، وابن تربية دينية، إلّا أنّه مرّ في سنّ المراهقة بقصص لا تُنسى ممّا كان يظنّه حبًّا. في عذابه لذّة. وفي ألمه متعة. وبوجوده تفيض السعادة وتحلو الحياة.

يذكر أنّه كان يراقب فتاةً لفتت نظره بجمال قوامها، ومشيتها الجدّية التي توحي بأنّها من بيئة خلوقة في تربيتها. ولم يكن يجيد طرق الغزل، ومعسول الكلام ليجذبها به. كما أنّه كان خجولًا، ينتظر خروجها من المدرسة ليلحق بها، محاولًا لفت نظرها. ولم يفلح إلّا في ترداد عبارة: «خبّي شعرك... شعرك باين». فقد كانت تضع على رأسها ووجهها منديلًا أسود، كان يتمنّى أن ترفعه ليرى معالمها بوضوح تام.

كانت تعي تمامًا أنّ هذا نوع من أنواع الغزل والإعجاب، ولم تتجاوب تهذيبًا، ولكنّها لم تمتنع في الوقت ذاته. كانت رؤيتها ظهر كلّ يوم، والاقتراب منها ليقول لها عبارة «خبّي شعرك»، هي زاده العاطفي اليومي الذي يملأ نهاره بأفراح الحبّ وإحساساته البريئة؛ فيعيش سعادة يمتزج فيها الوهم بالخيال، ليبثّا في روحه أملًا بوصال يدفعه إلى التحليق في عالم الفنّ والغناء. كانت تجربة مراهقة جميلة، وإحساسًا مرهفًا، لفنّان ينتظر الإلهام ليبدع.

من شغبه الطفولي:

كان لزوج ابنة خالته ابنة جميلة من زواجه الأوّل. راح يتردّد على بيت هذا الأخير ليشاهد تلك الفتاة - التي كبرته سنًّا، إذ كان طفلًا في الثامنة من العمر، ولكنّه وقع في حبّها - وليتمتّع بجمالها كلّما أطلّت من شرفة غرفتها. كانت لحظات حبّ بريء طواه الزمن، واحتفظت به ذاكرة الطفولة.

وفي مراهقته، أحبّ المطربة الشحرورة صباح، حين شاهدها في فيلم «أول نظرة» عام 1946. فعشقها من دون أن يلتقي بها، فكانت تلك إحدى قصص حبّه العذري.

جوهرة نادرة.. جوهرة سامي الشوّا

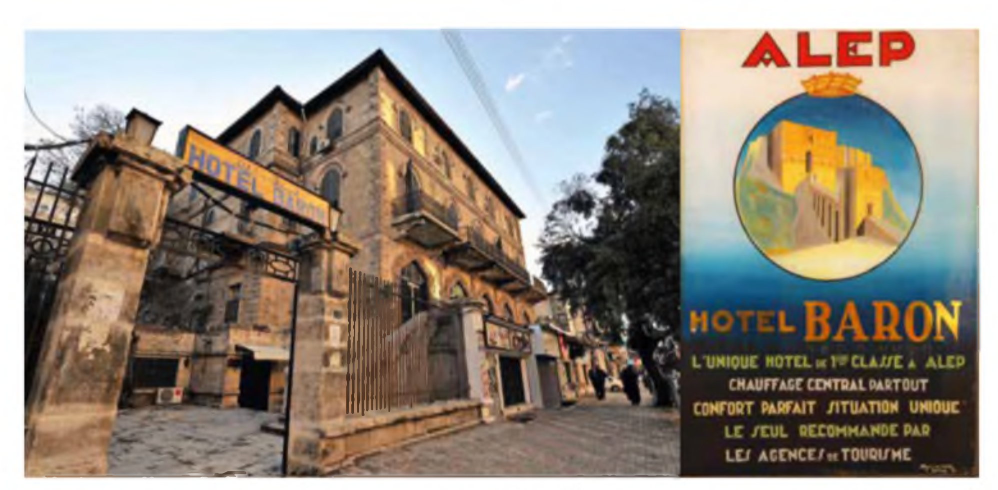

سامي الشوّا.

في وسط مدينة حلب، فندق شهير عريق في قدمه، زاره مشاهير العالم على مدى قرن من الزمن. إنّه فندق بارون الذي يُعدّ من أقدم الفنادق في سورية. وقد احتفظ بعراقته وجماله كمعلَم هام من معالم حلب التاريخية. كلّ غرفة فيه تحمل اسمًا لأحد المشاهير الذين مكثوا فيها؛ من ملوك ورؤساء وكتّاب وفنّانين وباشوات وتجّار وجنرالات ومستشرقين، مع صور توثيقية تحكي كلّ منها قصّة، وتروي أحداثًا مرّت على تلك المدينة العظيمة.

فندق بارون كان مقر إقامة السيّد سامي الشوّا، حين يأتي إلى حلب ليصطاد المواهب الفذّة من الأصوات الجميلة التي تخبّئها بيوت الشهباء وحاراتها. ولا يخفى على أحد كونُ حلب منبعَ الفنّ الأصيل الذي لا ينضب، وكنز التراث الموسيقي العريق بلا منازع.

من هو سامي الشوّا؟

إنّه أنطون الياس الشوّا. موسيقي حلبي المولد والمنشأ، اشتهر بعزفه المتميّز على الكمان. وهو الذي أدخل آلة الكمان إلى التخت الشرقي بدلًا من الربابة. وكان يعتزّ بآلة كمان قديمة ورثها عن جدّه الذي سبق أن عزف في حضرة القائد إبراهيم باشا عند غزوه سورية. غادر



فندق بارون. من روّاد هذا المعلم التاريخي: الشاعر الفرنسي لامارتين، أغاثا كريستي، لورانس العرب، الملك فيصل، جمال عبد الناصر، أسمهان، يوري غاغارين، فالنتينا تريشكوفا، شارل ديغول، مصطفى أتاتورك، وشاه إيران...

سامي الشوّا حلب إلى مصر، بلد السينما والأضواء آنذاك. هناك استقرّ قريبًا من الأوساط الفنّية. وكان يزور حلب كلّما اشتاق إليها.

بينما كان سامي الشوّا يحتسي القهوة على رصيف فندق بارون (Café Trottoir)، تقدّم منه رجل مهيب الطلعة، وبرفقته صبيّ تخطى السنوات العشر بقليل. اقتربا منه، وقدّم الرجل نفسه قائلًا: «أستاذ سامي، أنا فوزي الشقاع من تجّار المدينة. بلغني أنّك تبحث عن الأصوات الجميلة، وأعتقد أنّني جئتك بصوتٍ جميل، وموهبة نادرة. وأتمنى أن تسمعها». اقترب الصبيّ بحياء مطرقًا برأسه أدبًا وخجلًا. حيّا الأستاذ سامي الذي مدّ له يده مصافحًا، ثمّ سأله عن اسمه، فأجاب الصبي: «صباح الدين أبو قوس». وقف الأستاذ سامي كمن لا يرغب في إضاعة وقت أو فرصة، وقال: «تعالَ معي لنسمع شيئًا مما يتقنه صباح الدين هذا». انتقل الثلاثة إلى جناح في دق، وهناك طلب سامي من الصبيّ أن يغني ممّا يعرف. شدّ الصبي قامته، وبدأ بالغناء بدون موسيقى. وهنا زال الخجل، وظهرت ثقة صباح الدين بنفسه وبموهبته. غنّى، وطُلِبَ منه المزيد، فغنّى...

وكأنّي بالشوّا قد وجد ضالته بعين خبيرة وأذن لا تخطئ. ففرح بها في سرّه، كمن اكتشف جوهرة ثمينة ما زالت تحتاج إلى من يصقلها ويلمّعها ويرعاها. وهو خير من احتوى الكنوز الفنّية وأظهرها للجماهير.

بين أنامل خبيرة

أهو الحظّ؟! أم القدر!؟ لا شكّ في أنّها إرادة الخالق أن يدفع بالموهبة النادرة إلى من يحتضنها، ويرعاها. وهكذا وقع صباح الدين في يد من أُمِّن عليه ورعاه. إنّه، كما عرفناه، الأستاذ الفنّان سامي الشوّا الذي عشق الفنّ والموسيقى، واحتضن من أتقنها. ولمّا التقى درّته الثمينة - صباح الدين - استنفر قواه وذكاءه وخبرته في العمل الفنّي والاجتماعي، لصقل موهبة هذه الخامة التي قد وقعت في جعبته في الوقت المناسب.

لا يخفى على مضطلع أنّ ابن حلب سامي الشوّا، خلال وجوده في قاهرة المعز، انخرط في الأجواء الفنّية التي ساقته إلى المجتمعات المخملية بين قصور الباشوات ونخبة المجتمع هناك، فأتقن الاندماج بها واستقى من أسرارها. يضاف إلى ذلك أنّ أضواء السينما المصرية ومسارحها، وإبهار نجومها، جعلته يجيد اللعب خلف الكواليس؛ فيختار الموهبة، ويقدّمها لهوليوود العرب، لتنصهر ضمن نجومها. كما حدث مع أسمهان وفريد الأطرش وغيرهم من الفنّانين الذين قذفت بهم الظروف إلى منبر الشهرة، في مدينة الفنّ والسينما.

عندما وقع اختيار سامي على صباح الدين أبو قوس، عرف أنّه التقى مبتغاه. فبدأ بتغيير اسمه إلى محمد صباح، وهو الاسم الذي عرف به في الحفلات التي دعاه إليها الشوّا، ليكون اسم الشهرة الفنّي له. وابتدأ بعين الناقد الخبير يغير في هندام نجم المستقبل الذي عقد آمالًا كبيرة عليه؛ فألبسه الطقم الفرنجي مع «البابيون» على القبّة، عوضًا عن القميص والبنطال. وغيّر له تسريحة شعره مستخدمًا «البريانتين» (ملمّع الشعر ومثبّته). وابتدأ بتدريبه على الأغاني السائدة في الأربعينيات، مرافقًا إياه بعزفه الراقي على الكمان، وهو أمير الكمان.

غنّى محمد صباح برفقته في جولاته في جولاته على المحافظات. أكّد الشوّا هنا تبنّيه للصوت الجديد الصاعد. وفي إحدى جولاته إلى مدينة حمص، طلب من محمد صباح أن يغنّي أغنية أسمهان «أنا أهوى». ولم يكن الصبي الناشئ متمكّنًا منها، ولم يغفر له جمهور حمص هفواته، بل تناولت الصحافة في اليوم التالي سامي أفندي الشوّا بعناوين، أهمّها: «سامي الشوّا على السفود» (بمعنى أنّه وضع نفسه على سفود الشوي). لم يكترث الفنّان الكبير لما قالته الصحافة، بينما تأثر الفتى الناشئ لأنّه شعر بعدم تمكّنه من الأغنية؛ إذ لم تأخذ حقّها من التدريب والحفظ. طيّب أمير الكمان خاطر تلميذه المتبنّى، وأعاد له ثقته بنفسه وبموهبته التي يجب أن يتحدّى بها العالم.



صباح الدين أبو قوس (1946).

في حضرة رئيس الجمهوريّة



زيارة الرئيس شكري القوتلي
إلى حلب.

1946

استعدّت حلب لاستقبال رئيس جمهوريتها شكري بك القوتلي، في أوّل زيارة له للمدينة بعد استلامه منصب الرئاسة، وكان ذلك لوضع حجر الأساس لمشفى دار التوليد الحكومي. وكان لا بدّ من أن تُكرم المدينة ضيفها الكبير بأفضل ما تميّزت به من فنون الطعام والطرب، فأقيمت على شرف فخامته في قصر المحافظة، بعد مراسم الافتتاح، حفلةُ استقبال وترفيه دُعي لإحيائها كبار فنّاني حلب آنذاك. فوجئ الفتى محمد صباح بالأستاذ سامي الشوّا يدعوه ليجهّز نفسه لمرافقته إلى قصر المحافظة. بلغت الفرحة ذروتها عنده، وهو يستمع إلى نصائح سامي أفندي في اختيار اللباس المناسب لأهمّ حفلة يشارك فيها هذا الفتى الناشئ. والحقّ يقال، إنّها كانت فرصة العمر لفتى غضّ العود في الثانية عشرة من العمر، أن يَمثُل في حضرة رئيس الجمهورية، ويشارك كبار فنّاني حلب ترحيبهم بفخامته.

دخل محمد صباح القصر تتنازعه مشاعر الرهبة والفرح معًا. لم يصدّق وهو يرى نفسه وجهًا لوجه أمام فخامة رئيس الجمهورية، وكبار شخصيّات البلاد ليغنّي لهم. كان يحاول أن يستجمع كلّ ما اختزن من شجاعة، ليُظهر أفضل ما عنده. ولم ينبس ببنت شفة، بينما كان يدعو في صمته الله ليزيل عنه رهبة الموقف، حتّى ابتدأت كمنجة سامي الشوّا تتخطّى الرسميّات بحنين ينساب بين قوسها والأوتار، مضيفة إلى نفس صباح شيئًا من الراحة والطمأنينة. وما أن رافق أنينها بالغناء، حتّى تغلّبت الموهبة على الرهبة، وطغى



الرئيس شكري القوتلي.

رنين الصوت على هدوء القاعة، وكسر تشجيع الحاضرين الوقور حاجز الخوف لدى الفتى الموهوب، فأبدع وهو ينشد: «تعلّم بكائي ونِح يا حمام وخذ من شجوني دروس الغرام».

لم يخفَ على أحد طربُ فخامته إذ انفرجت أساريره، وباح ببعض كلمات الإعجاب مغلّفة ببروتوكولات المنصب، وتقاليد الوجاهة، ما جعل الشوّا يبتسم فخورًا، وهو يربّت على كتف الصبيّ الذي احتضنه، فرفع رأسه عاليًا أمام أهمّ المستمعين.

أمر الرئيس مرافقه ليمنح الفتى مئة ليرة سوريّة. رفَّ قلب الصغير فرحًا، وشهق بزقزقة مكبوتة، ولمعت عيناه ببريق النجاح الذي حققه. ونال مكافأته التي لم يكن ليحلم بها، إذ كان مصروفه الأسبوعي آنذاك ربع ليرة سورية.

لم يفت صاحب الفخامة شكري بك القوتلي أن يوصي به المحافظ ومسؤولي القصر، ليهتموا بتعليم هذا الفتى اللامع، وبمسيرته الفنّية.

حمل محمد صباح المئة ليرة في جيبه، وصار يتحسّسها بين الحين والآخر وهو في طريقه إلى المنزل، مطمئنًّا على وجودها، ريثما يبشر والدته بالأخبار المفرحة التي أثلجت فؤاده.

مَحَطّاتُ قَدَرْ

الدنيا محطّات نمرّ فيها. نتوقّف عند إحداها لنركب قطارًا يسير بنا إلى مكان آخر قد نجد فيه حظّنا المكتوب.

وهناك منعطفات قد تغيّر مجرى حياتنا بالكامل.

أشياء صغيرة تسكن ذكريات الطفولة، يحمل فيها صباح جميلًا لا ينساه لأناس وضعوا بصمتهم في تاريخ معجزة الغناء الأصيل. من هؤلاء الفنّان محمد رجب الذي كان العازف الوحيد على آلة «النشأت كار» في سورية.

أعجب هذا الفنّان بصوت الفتى صباح عندما التقاه بصحبة أخيه عبد الهادي في إحدى السهرات الغنائية، فعلّمه لحنًا لموشّح تقول كلماته:

يا هلالًا غاب عنّي واحتجب
وهجرني دون ذنب أو سبب
في الهوى ما نلته إلّا التعب.
(بإيقاع: نوخت سبعة على أربعة)

هذا الموشّح الذي يصعب على الفنّانين، فلا يؤدّيه إلّا كبارهم، أجاد أداءه صباح، ليعجب به كلّ من سمعه. فكان من الدرجات التي ارتفع بها صباح الدين، في مستوى الأداء، إلى الأصعب.

وكانت في تبنّي سامي الشوّا له وثبة أخرى لا ينكرها صباح ولا التاريخ.

أمّا لقاء رئيس الجمهورية، فكان محطّة مصيرية قفزت بمحمّد صباح خارج حلب القديمة والجديدة معًا، إلى العاصمة دمشق.

إلى دِمشق

خلال حفلة في القصر الجمهوري في دمشق، توجّهَ فخامة الرئيس شكري بك القوتلي إلى الأستاذ سامي الشوّا بسؤال قائلًا: «يا سامي... فين ابنك؟» وكان يقصد بسؤاله الفتى محمد صباح طبعًا. ابتسم سامي هازًّا رأسه بانحناءة خفيفة، لم تختبئ علائم السرور التي ارتسمت على وجهه وهو يجيب: «بين الأيادي فخامة الرئيس»، وكأنّه حقّق انتصارًا لحسن اختياره، بشهادة أهمّ رجل في الدولة السورية آنذاك.

هكذا ركب محمد صباح بساط الريح إلى دمشق، عبر دعوة من فخامة رئيس الجمهورية. وهي القفزة الأكبر إلى محطّة، رسم القدر له فيها تغييرًا كبيرًا، بل انقلابًا في حياة الفتى ذي الموهبة الفذّة والنادرة.

اجتاز صباح الحلم وهو يدخل القصر. نعم، إنّه مدعوّ إلى عشاء في القصر الجمهوري مع رئيس البلاد والوزراء وشخصيات دمشق المعروفة. دخل في جميل هندامه وبهاء طلعته، وقد أضافت الغبطة على خدّيه تورّدًا، وعلى نظراته ثقة. تقدّمه أستاذه الشوّا غير بعيد عنه. أجلسه إلى جواره على مائدة الطعام، مكثرًا من الملاحظات والتعليمات التي اعتاد أن يغمره بها كزادٍ يومي، لشدّة حرصه عليه: «لا تُكثر من الملح... إيّاك والماء المثلّج... تجنّب البهارات الحريفة... ضع السكين جانبًا... و... و...» حتّى توقّف الفتى عن الأكل مستغيثًا بالله، مدّعيًا الشبع، ليتخلّص من سيل النصائح المنهالة عليه، والتي تحرج فتًى خجولًا - نظرًا لتربيته المنزلية التقليدية - وبقي بانتظار دوره في الغناء، حتّى أشار الرئيس إلى سامي، فوقفا معًا. وأبدعت كمنجة أمير الكمان، وتجلّى صاحب الصوت الصاعد في قصيدة: «تعلّم بكائي ونُح يا حمام». تبعها بـ«حوّل يا غنام حوّل بات الليلة هِين»، وقصائد أخرى أنشدها ابن حلب براحة وانشراح، فأطرب بها دمشق ممثلةً برئيس البلاد ورجالاتها الأكارم. وأثبت مرّة أخرى قدرته على حسن الأداء بكلّ جدارة، وعلى نيل استحسان الجماهير على كافّة المستويات وأرقاها.

كان اهتمام أمير الكمان يزداد بالفتى، بينما كانت تكبر آماله به. فلم يتوانَ عن سؤاله، بإصرار مَن صمّم على إغرائه بعرض سخيّ، للذهاب معه إلى مصر التي كانت أمّ الفنون والمسرح، و«هوليوود» العالم العربي: «ألبّسك إيه يا محمد؟ بدلة؟ والّا حطّة وعقال؟ والّا إيه!؟»



الرئيس شكري بك القوتلي.





صباح مع عائلة الرئيس شكري بك القوتلي، دمشق-زبداني (1947).



فخري البارودي

دمشق 1887-1966

ولد فخري البارودي في دمشق عام 1887 لعائلة يعود نسبها إلى ظاهر العمر، تعلّم في مدارسها وتخرّج عام 1908 من المدرسة الثانوية. أسّس مع صديق له صحيفة هزلية باللغة العامية «حط بالخرج» كتب فيها باسم مستعار. تجنّد لمدّة ثلاثة أشهر دفع بعدها البدل النقدي فتمّ إعفاؤه من الخدمة العسكرية. عمل بعدها كاتبًا في محكمة الاستئناف. سافر إلى فرنسا وقطن فيها لمدة عام عاد بعدها إلى دمشق بضغط من والده.

بعيد اندلاع الحرب العالمية الأولى دخل مدرسة ضباط الاحتياط وتخرج منها ضابطا وانضم إلى الجيش العثماني وشارك في عدة معارك ضد الجيش الإنجليزي في فلسطين، أسره الإنجليز في معركة بئر السبع وسجن في قصر النيل بالقاهرة وبعد أن أفرج عنه عام عاد إلى دمشق والتحق بالثورة العربية الكبرى عين بعدها ضابطا في بلاط الملك فيصل. شارك في معركة ميسلون عام 1920 وسجنه الفرنسيون بعدها في قلعة دمشق وحوكم وأُفرج عنه. مع تدهور الأوضاع السياسية اعتقل ثانية عام 1936 ونفي مع آخرين إلى مدينة الحسكة في شمال سورية لكن هذه نفيه أدى إلى إضراب في دمشق استمر ستين يوما حتى تراجعت السلطات الفرنسية عن قرارها وعاد ورفاقه إلى دمشق.

بعيد بدء الحرب العالمية الثانية اتهمته السلطات الفرنسية بامتلاكه للسلاح فغادر سوريا لاجئا إلى مملكة شرقي الأردن حيث بقي لمدة عامان عاد بعدها إلى دمشق وانتخب نائبًا في البرلمان تم اعيد انتخابه عام 1947 لكنه اعتزل العمل السياسي عام 1948 واهتم بجمع وتدوين التراث الموسيقي العربي، ووضع موسوعة في الموسيقى العربية، كما بدأ بتأليف معجما للعامية الشامية. توفي في مشفى المواساة في الثاني من آيار/مايو 1966.

كان فعلًا عرضًا مغريًا لابن الثالثة عشر، لما تعنيه مصر في أحلام كلّ فنّان. فهي منصّة الشهرة، ومنبر الصعود إلى النجومية في ذلك الوقت بلا منازع. ظلّ فتانا ساكتًا بعلامة الرضا، وهو يشعر أنّ بساط الريح سيطير به ويحطّ في أرض العجائب، أرض الكنانة، ولكن...!

محطّة أخرى ربّما ستذهب بالحلم إلى مكان آخر، إلى حيث بارك الله، وجعلها قَدَرَهُ...!

تلت حفلة القصر الجمهوري، دعوةٌ من نقابة المهندسين في دمشق إلى حفل في فندق بلودان الشهير. وأراد الأستاذ سامي أن يغنّي فيه لونًا مختلفًا، فطلب من عازف القانون إبراهيم عبد العال، الذي كان رئيس الفرقة الموسيقية في إذاعة دمشق، أن يختار له أغنية تناسب صوته اليافع، ليؤدّيها هناك. وقع اختيار هذا الأخير على أغنية «يا جارحة قلبي» للمطربة نجاح سلام، وكأنّه كان حسن الخيار، إذ أجاد محمد صباح في الصوت والأداء، ونال استحسان الجمهور وإعجابه.

لقي هذا الصوت البديع موقعه في قلب من يحسن اختيار النخب، حيث توسّط فخري بك البارودي، النائب والسياسي المخضرم، جمهورَ الحفل، فأعرب عن إعجابه الشديد بخامة صوت فريدة يتوقّع لها مستقبلًا ساطعًا.

وكان فخري بك قد أسّس معهدًا للموسيقى في دمشق، جمع فيه نخبًا من الأصوات الجميلة، والمواهب الفنّية. في الوقت ذاته، لاحظ بعين الخبير اهتمام سامي الشوّا الفائق بهذا الفتى، وإحاطته له بعناية لا تخفى على أحد، كمن يداري درّته الثمينة قبل أن يصل بريقها إلى الآخرين. لذلك بادره بسؤاله:

— أستاذ سامي... لماذا أراك ملتصقًا بالفتى مثل الدبور!؟ دعه وشأنه.

— أنا...!؟ فخري بك... اسأله ليجيبك.

لم ينتظر السياسي البارع جوابًا من هذا ولا ذاك، بل أشار إلى الفتى ليحدّثه عن قرب. لبّاه صباح بحياء معروف عنه، فدعاه إلى زيارته، مع ولي أمره، في مكتبه في شركة الإسمنت.

بين الشوّا والبارودي




سامي الشوّا وفخري البارودي.

حوار دار بين أمّ حريصةٍ على مصلحة أصغر أبنائها، وداهية سياسة مخضرم وعاشق فن يجمع له المواهب والخبرات النادرة...

— لقد عرض الأستاذ سامي الشوّا على ولدي أن يصطحبه إلى مصر، حيث ينوي أن يصقل موهبته ويخلق منه نجمًا لامعًا.

— ولماذا يريد أخذه إلى مصر، وعمله متوفّر عندي؟! سأعينه في الإذاعة السورية براتب شهري قدره مئتان وخمسون ليرة، فلا حاجة لتغرّب عن بلده. وذلك بالإضافة إلى أجر كلّ حفلة على حدة مئة وخمس وعشرون ليرة (وكان متاحًا أن يحصل على حفلة أسبوعيًّا)، شريطة أن يداوم مساءً في المعهد الموسيقي الشرقي.

سُرّت الوالدة لعرض فخري بك، الذي أمّن لها بقاء ابنها إلى جانبها، كما ضمن تعليمه المدرسي والموسيقي.



في اليوم التالي، كان موعد محمد صباح مع الأستاذ سامي الشوّا الذي انتظر جوابه شبه المضمون بالموافقة على عرضه بالسفر إلى مصر. أذهله جواب الرفض الذي نقله صباح بقوله: «يعزّ عليّ أن أرفض لك طلبًا، وكانت أمنيتي وحلمي أن أذهب إلى مصر. ولكن ليس بإمكاني أن أخرج عن قرار والدتي، وسأبقى معها نزولًا عند رغبتها». احمرّ وجه سامي الشوّا، وتملّكه الغضب، انطلق بما علق في ذاكرة الفتى حتّى يومنا هذا: «أمّك العجوز دي قفلت باب مستقبلك». لمس صباح في ذلك شيئًا من الاستخفاف بأغلى إنسان في حياته، ما لم يسمح للندم بالتسلّل إلى القرار الذي اتّخذه ووالدته. وهكذا كان نصيبه أن يلبّي رغبة فخري بك البارودي بأن يمكث ووالدته في دمشق، يداوم في ثانوية «إبراهيم هنانو» صباحًا، وفي المعهد الموسيقي الشرقي مساءً.



مجدي العقيلي.

في هذا المعهد الذي أسّسه فخري بك البارودي، سنحت الفتى الموهوب فرصة الاحتكاك بحشد من خيرة الأساتذة والفنّانين الذين استقطبهم المذكور لخدمة الهدف المنشود من إنشاء المعهد؛ ألا وهو إحياء تراث الموسيقى الشرقية، والحفاظ على الغناء الأصيل، وتطويره، وتنمية المواهب الفتية والشابّة في هذا الخط أمثال مجدي العقيلي،[1] وهو حلبي من أعلام الموسيقى العربية. استضاف هذا الفنّان العظيم، فتى حلب الناشئ في داره، بعد أن أودعته أمّه في أمانته، وعادت إلى حلب، واحتضنه فنيًّا خلال الأشهر الثلاثة التي أمضاها في منزله. ثمّ قدّم له ألحانًا خاصّة به لأوّل مرة، ومنها:

يا سايقين النوق ماللہ هداكم
لا تكثرون السوق ولفّي معاكم
ولفّي ربيب الفاي ما يقدرن عالحار
واللي خده من حداي حرق فؤادي بنار
يا عازفين الناي والعود والمزمار
لا تحرقون حشاي بحنّة لغاكم
يا سايقين النوق...
يا عين لا تغفين خليكِ سهرانة
إن مرّ الولف من هِين يلقاك صحيانة
سامع حِدا وحنين وأجراس رنانة
هاك الظعن يالفين يا عين هاهم
يا سايقين النوق بالله هداكم.

من ألحان مجدي العقيلي، وقد عدّل صباح فخري اللحن بعد سنين، وهو ما نسمعه حاليًّا.

---

[1] مجدي العقيلي 1917-1983 م: موسيقي موهوب من أسرة حلبية عريقة، من السلالة العمرية. ابتكر آلة موسيقية جديدة تشبه القيثارة، صوتها بين القانون والماندولين، ويعزف عليها بالريشة أو القوس، وتسمى «غنكران». درس الموسيقى في إيطاليا. تعلّم في معارف حلب. عمل مراقبًا فنيًا في إذاعة دمشق، ثم أستاذًا في معهد فخري البارودي للموسيقا. عاد إلى حلب عام 1949 ليدرّس في المدارس الثانوية، وليساهم في إنشاء إذاعة حلب.





صباح القبّاني.

وفى نائب دمشق الأصيل بوعده. صار الصوت الجديد يصدح من الإذاعة السورية التي كانت قد ابتدأت بثّها في ذلك العام (1947)، فكان من أوائل المطربين الذين شاركوا عبر أثيرها.

وفي إحدى الحفلات الإذاعيّة المباشرة التي كان يقدّمها المذيع صباح القبّاني[1]، قال معلنًا عن المطرب المعروف باسم محمد صباح: «أراد النائب الكريم فخري بك البارودي أن يتبنّى المطرب محمد صباح ويعطيه لقبه، لذلك نقدّم لكم الآن المطرب صباح فخري...».

كانت مفاجأة رائعة، وشعورًا بالفخر والاعتزاز اعترى الفنى الصاعد. إنّه لشرف كبير أن يحصل على لقب رجل دولة ومجتمع بهذا الوزن والانتشار. وهذه من أهمّ المحطات التي تركت في مسيرته بصمة أبديّة، إذ نال يومها لقبه الفنّي الذي طار به على جناح الشهرة حتّى اليوم، وكُرّس به على قمّة الفنّ العربي الأصيل ملكًا، وفارسًا تصعب منافسته. ذاك اليوم وضع حدًّا نهائيًّا للمنافسة التي دارت بعيدة عن وسائل الإعلام، بين سامي الشوّا وفخري بك البارودي، لاقتناء هذه الجوهرة وإصدارها. وحكم النصيب، أن يكون الاسم «صباح فخري».

وهكذا خسره سامي الشوّا... وخسرته مصر...

وفاز به فخري بك البارودي... وربحته بلده...

وغدا صباح فخري اسمًا تفخر به سورية، وكلُّ من ناطق العربية على مدى الدهر.

---

[1] صباح القباني: ينحدر من عائلة القبّاني الدمشقية. وهو شقيق الشاعر نزار قباني. عمل مذيعًا في إذاعة دمشق، ثم تخرّج من كلية الحقوق عام 1949. أتمّ تعليمه في السوربون، وحصل على الدكتوراه في القانون الدولي. عاد إلى مجال الإعلام ليصبح مديرًا لبرامج الإذاعة السورية، ثم مديرًا للإذاعة عام 1953، واستلم إدارة التلفزيون في عام 1960. انضمّ إلى السلك الخارجي في عام 1962، وأصبح سفيرًا للجمهورية العربية السورية في واشنطن عام 1974.

في معهد الموسيقا الشّرقية

واكبت إيقاعات القدر خطوات الفتى الموهوب، لتضيف إلى العطاء الإلهي علمًا يصقل موهبته، ويمكّنه من أداء المستحيل في عالم الفنّ والغناء. رأى الفتى نفسه فجأة في المكان الحلم، في البيئة التي تحتضن الموهبة بأيدي خير من خبر الموسيقى الشرقية ورعاها؛ ألا وهو الأستاذ عمر البطش (كيف لا وهو من لُقِّب بالوشّاح الأول). ورأى البطش في صباح تربةً صالحة ليزرع فيها عشق الموشح، وأسرار أدائه. ولم يخطئ ظنّه في ذلك؛ فقد سلم رسالة التراث لمن هو أهلٌ لحملها، وحمايتها، وتقديمها للجمهور في أجمل صورة وأحسن أداء.

تلميذ البطش لم يكتفِ بتعلّم الإيقاعات الصعبة، والموشّحات والقدود، بل تعلّم أيضًا رقص السماح. وفي جلسة ودّ بين الأستاذ وتلميذه المفضّل، طلب صباح منه أن يعلّمه فنّ التلحين (في سنّه المبكرة تلك). ولم يبخل أستاذه الكريم في إرشاده إلى أسرار التلحين الأصيل: «يجب عليك يا بنيّ أن تقيس الشعر على الإيقاع، الحرف القويّ على (الدُمْ)، والخفيف على (التَكْ)، وأن تستعمل (يا لا لا لي أمان) لتفصل اللحن ريثما تصل إلى (الدُمْ) القوي...». ولم تخلُ تلك الفترة من محاولات تلحين كان يخوضها الفتى الطموح ليرضي قدرته على صياغة الأغنية بالطريقة التي يفضّلها. في العام 1947، كانت لصباح، وهو في الرابعة عشر من عمره، أولى تجاربه في التلحين، وهي أنشودة دينية تقول:

يا رايحين لبيت الله
مع السلامة وألف سلام
مبروك عليك يا عبد الله
يا قاصد كعبة الإسلام
يا هناوتكم يا فرحتكم
يا هناوة اللي تاب وكفَّر
يا قاصدين بيت الحرمين
والقلب يقول الله أكبر
هنّيتو القلب وملّيتوا العين
وشربتوا من ماء الكوثر

يا هناوتكم يا فرحتكم
يا هناوة اللي تاب وكفَّر.

وهذه الأغنية لم تُغنَّ بعد ذلك، ونامت تنتظر من يوقظها. قدّمها في الإذاعة السورية في دمشق، دون أن يُذكر اسم ملحّنها، وهي على نغمة الكرد، إيقاع سماعي ثقيل مركّب. ونذكر هنا أنّ صباح كان يمرّ، في طريقه إلى حلب، بالخيّاط سميح البنك في مدينة حمص، الذي كان يهوى الموسيقى والأدوار القديمة، ويحسن العزف على العود. وقد غنّى أمامه قصيدة الأستاذ الشاعر ابن حماه، بدر الدين الحامد. وهي من ألحان سري الطنبورجي، وهو حمصي المنشأ سكن في دمشق، وعمل في جادة الصالحية كبائع أحذية.

أنا في سكرَين من خمر وعين
واحتراق بلهيب الوجنتين (في لهيب الشفتين)
لا تزدني فتنة بالحاجبين
أنا في سكرَين...

يا حبيبي أقبل الليل فهيا للمدام
وابعث العود يغنينا تراتيل الغرام
نفحتني منك في الخمرة أنفاس الهيام
يا حبيبي إن تكن لي فعلى الدنيا السلام
أنا في سكرين...

أترع الكأس وطيّبها بعطر من لماك
واسقنيها إن عيني لا ترى شيئًا سواك
وليقولوا ما أرادوا أنا صبّ في هواك
جنّتي كأس الحميا ونعيمي في رضاك
أنا في سكرَين...

استمع صباح إلى هذه القصيدة المغنّاة، وتعلّمها بسرعته المعهودة، ولكنّه أضاف إليها بعد ذلك من روحه في اللحن والكلمة، حتّى غدت هذه القصيدة ملتصقة باسم صباح فخري.

ومن أساتذة المعهد الذين عرفهم صباح، كان الأستاذ سعيد فرحات (جزائري الأصل)، وقد أحبّ أن يعلّم صباح دور «ياللي تشكي من الهوى هون عليك» لسيد درويش. أحسّ الصبي بأنّ شيئًا في النغمة لم يرحْه، فما كان منه إلّا أن اشترى أسطوانة سيد درويش التي يغني فيها هذا الدور، وتعلّمها من أداء صاحبها ومؤلّفها، لا كما علّمه إيّاها الأستاذ فرحات.



عمر البطش

1885

درس في الكتاتيب. كان يعزف على آلة «البكلة» خلال خدمته الإلزامية، حيث تعلّم الموسيقى آنذاك. عمل كضابط إيقاع في أكبر مسارح حلب. عشق الموشّح وبرع فيه، وأضاف إليه، فاعتُبر ملك الموشّحات، ولُقِّبَ بالوشّاح الأوّل. كانت له طريقة في توثيق الإيقاع وتعميقه، وذلك بأنّه يربط بين ضرب الإيقاع بيده وتأكيده بحركة الأرجل. وأضاف إليها حركة بالجسم متجاوبة مع النغم. وهذا ما كان يؤدّيه في رقص السماح، ويعلّمه لتلاميذه. ولا شكّ في أنّه كان جديرًا بلقب ملك الإيقاع أيضًا، إذ كان عظيمًا في الأوزان. ابتكر وصلات من رقص السماح، من مقامات الراست والبيات على أوزان المحجر، والمربّع، والمدوّر، والمخمّس، والسماعي الثقيل، والدارج. فهو أستاذ في رقص السماح.

نتاجه في الموشّح 134 موشّحًا، وقد لحّن خانات لموشّحات سيد درويش.

يعتبره صباح فخري في مقام سيد درويش في مصر (كمكانة فنيّة)، وهو أكبر منه سنًّا، واستمرّ زمنًا أطول في عالم الفنّ. ولولاه لاندثر الموشّح في سورية، ولما ارتفع إلى المستوى الذي شهده في حلب. ويسمّيه صباح رائد الموشّح في العالم العربي.

ويقال إنّ سيّد درويش، في مقتبل عمره، زار حلب للاطلاع على فنّ الغناء فيها، فاقتبس منها. كما أنّ البطش التقى محمد عبد الوهاب في حلب مرّتين، وأسمعه موشّحين على نغمة السيكاه، ولحّن موشّحًا على نغمة الزنجران (الزنغولاه في مصر) لأوّل مرّة.

علّم عمر في معهد الموسيقى الشرقية الذي أسّسه فخري بك البارودي، وكان يطمح إلى أن يفتتح معهدًا للموشّحات ورقص السماح في دمشق، إلّا أنّه توفّي قبل أن يحقّق حلمه.

مَعَ مارِي جبْران



ماري جبران.

كانت السيّدة ماري جبران في إذاعة دمشق عندما كان الفتى صباح يغنّي «يا هلالًا...» وأبهر مَن سمعه وحضره هناك، فطلبوا من السيّدة ماري جبران أن تستمع لهذا الصغير وهو يؤدّي أصعب الألحان. التفتت إليه بحنوّ، وقالت: «ماذا تحبّ أن تسمعني يا صباح؟»، فأجابها الفتى: «حوّل يا غنّام». استمعت إليه وهو يجيد الأداء، ثمّ استوقفته عند الكوبليه «عاهدني المحبوب ببالو...» لتصحّح له الألف المضخّمة التي لفظها في كلمة «ببالو» قائلة: «أداؤك جميل. ولكن أتمنّى أن تخفّف الألف في «ببالو»، وتقولها هكذا...»، وكرّرت أمامه المقطع كما يجب أن يُلفظ.

كان في كلام السيّدة ماري جبران درسًا استفاد منه صباح. فبدأ يخفّف من لهجته الحلبية الطاغية، وحاول أن يلفظ الكلمات العامية في الأغنية كما يلفظها صاحبها. أما الفصحى في القصائد والموشّحات، فهو يتحدّى الآخرين في قراءته ولفظه الشعر، بعد أن ختم القرآن...

يذكر صباح تمامًا ذلك الموقف من المطربة المشهورة؛ فذكرها مرّة أمام العوّاد أمين حلاق، الذي حكى له كيف كانت هذه السيّدة راقصة تعمل في ملهًى ليلي، وجاء صاحب الملهى

ليطلب من السيد أمين الحلّاق أن يستمع إلى صوتها، ويدربها على الغناء. وهكذا دخلت عالم الغناء، وغدت مطربة شهيرة.

كان العقد الذي أبرمه صباح مع فخري بك البارودي يقتضي أن يغنّي في الإذاعة مرّة في الأسبوع. ومن حسن حظّه أنّه التقى هناك بالملحّن الموسيقار مجدي العقيلي، الذي أعجب به وبأدائه، ووجد فيه ضالته المنشودة، فاستضافه في داره بين أولاده - كانت عائلته مؤلّفة من الزوجة وابنة وابن - مدّة ثلاثة أشهر قدّم له خلالها ألحانًا غنّاها في الإذاعة. وكان يتحدّى به طلّاب المعهد بقوله: «تعوا شوفوا صباح، بيحفظ من أوّل مرّة الكلمات واللحن».

صباح كعادته تلميذٌ مجدٌّ ملتزم. انتظم في برنامج لا يخلّ به، فهو يداوم صباحًا في ثانوية هنانو، في حي نوري باشا، ثمّ يقضي فترة بعد الظهر في كتابة وظائفه المدرسية، ويكمل مساءه في المعهد الموسيقي. وكما جرى الاتّفاق، يشترك في الغناء في إذاعة دمشق مرّة في الأسبوع، وغالبًا ما كان ذلك يحدث يوم الخميس.

لم يُفاجأ أحد من أساتذة الفنّ والموسيقى بتفوّق هذا الفتى الجديد، فقد أبهرهم صوته، وحنجرته المتميّزة، وقدرته على بلوغ الطبقات العالية لمغني «التينور». فكان يصل إلى أعلى من الـ«سي بيمول» بسهولة لا تُلزمه تغيير تعابير وجهه، أو شدّ عضلاته، أو فتح فمه على أقصاه أبدًا (وهذا ما امتاز به صباح فخري حتّى أواخر فترات غنائه، قبل أن تلمّ به الوعكة الصحّية وتؤثّر في نطقه وصوته).

كانت تلك مرحلة ظهرت فيها بوادر تكوين نجم. كلّ ما أحاط بهذا الفتى كان ينبّئ بأنّه سيلمع، بمؤهلاته، باجتهاده، بإرادة الخالق الذي مهّد له الطرق، وفتح له أبواب النجاح، وهيّأ له من يرعاه ويحميه، ويضعه على طريق المجد.

فتى حلب في إذاعة دمشق



الجمهورية السورية

الاسم والشهرة

الجنسية

الوظيفة

محل الاقامة

يسمح لحامل هذه البطاقة الشخصية بالدخول الى دار الاذاعة ويبرزها عند كل طلب .

دمشق في

برامج الاذاعة دمشق

مدير برامج الاذاعة

المدير العام

لطالما كانت الإذاعة السورية من دمشق منبرًا لظهور كبار الفنّانين الموهوبين، وكانت انطلاقتهم منها. ومن خلالها، استطاع الفتى الصغير، بقدراته الصوتية النادرة التي منحه إيّاها الخالق، أن يُشهر اسمه وهو في الرابعة عشرة من عمره، فعُرف بالفنّان الموهوب صباح فخري.

كانت الأسماء التي تتردّد على الأثير في بدايات الإذاعة السورية: رفيق شكري، كروان (جميلة نصول)، فتى دمشق (بهجت الأستاذ)، نجيب السراج، ياسين خطّاب (تيسير الغوازي).

واتّفق أن طُلب من الفنّان الفتى صباح فخري أن يؤدّي مغناة ثنائيّة مع الموهبة التي تصغره سنًا، نجاة الصغيرة. فوضعوا لها كرسيًّا خشبيًّا ترتفع عليه، لتتمكّن من الوصول إلى مكبّر الصوت (الميكروفون)، وغنّيا معًا ثنائيّة (دويتو) يقول فيها:

يا واردة عالعين ظمآن أريد المي
وحياة عينيك الزين لا تبخلين عليّ»

وكانت تردّ عليه بالقول:

إن كنت يا فتى ظمآن نسقيك
وإن كنت عطشان نرويك
أمّا الهوى إن كان يلاعب بيك
لا تقربين للقا الموت حداي



صباح الدين أبو قوس، زهير منيني، بهجت كعدان، وجميل ولايا
في منتزه السبيل في حلب (1947-1948).



صباح الدين أبو قوس، جميل ولايا، زهير منيني، وبهجت كعدان،
في منتزه السبيل في حلب.



نجاة الصغيرة.

وقد اشتركا مرّة أخرى في حفلة في حديقة البرلمان في دمشق، وغنّى كلّ منهما منفردًا. وعندما قدّم عريف الحفلة نجاة، قال: «والآن أقدّم لكم أم كلثوم الصغيرة». وغنّت نجاة، وسُرّ الجمهور لسماعه ابنة العائلة الدمشقيّة (البابا). ولمّا جاء دور مقدّم البرامج ليعلن عن ظهور صباح، نهض فخري بك من كرسيّه متحمّسًا، ووقف أمام مكبّر الصوت ليقول: «أما الآن، فنقدّم لكم أبو كلثوم سورية الصغير، صباح فخري».

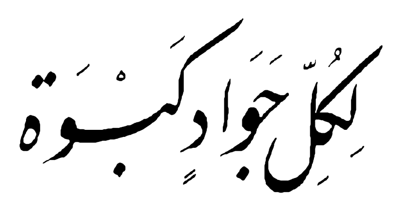
وأبدع صباح، مفاجئًا الجمهور الدمشقي بصوت قادر متمكّن لفتى واعد بمستقبل ساطع، وزاد اعتزاز فخري بك بمن تبنّى.

كانت مرحلة علم وفنّ وإشهار تلك التي قضاها صباح في دمشق. اكتسب وأعطى. ربح من تبنّي أشهر شخصية دمشقية له (فخري بك البارودي) حبّ المجتمع الدمشقي ورعايته. وتشبّع من علم المعهد الموسيقي برعاية البطش، والعقيلي، وغيرهما، فرسّخ مخزونه الحلبي العريق، من مغنًى وإيقاع، بطريقة علميّة صحيحة. ووضعته المنافسة على منبر التحدّي، فقدّم نفسه ومواهبه على صهوة الأثير غير آبه بمنافسيه من كبار المطربين آنذاك.

كانت كلّ الحفلات الإذاعية تُبثّ على الهواء مباشرة، ولا تحتمل الخطأ أو التغيير. ولم يكن ذلك محرجًا لابن الأربعة عشر عامًا، فقد مارس الغناء طفلًا، واستمرّ... بحيث ينتظر المستمعون موعد البرنامج الإذاعي الذي يغنّي فيه صباح لشدة إعجابهم به، على رغم أنّه كان يردّد أغاني الآخرين، ولم تكن هناك أغنية باسمه: «حوّل يا غنّام»، لكارم محمود؛ «يا جارحة قلبي»، لنجاح سلام؛ «يا واردة عالعين»، «يا هلالًا غاب عني واحتجب»، «يا حماة الحمى»، «يا ويله الما يخاف ربّه»، ودَور «ياللي تشكي من الهوى»... وغيرها من أغاني الأربعينيّات لمشاهير من المطربين آنذاك.

ولم يكن يقلّ عنهم جمالًا أو براعة في الأداء.





هذا الفتى الذي قارب سن البلوغ، بدأت علامات الرجولة تزحف إلى تضاريس جسمه، وبدأ الشعر يظهر على وجهه وذراعيه، ويغزو جسده. وتسلّلت الخشونة إلى الحنجرة الذهبيّة، فتاه الصوت بين أوتار مشدودة وأخرى غليظة. وتحوّل «السوبرانو» إلى حشرجة فاجأَت صاحبَها، كما صعقت خبراء الغناء، وعلى رأسهم الأستاذ عزيز غنّام.

دخل صباح مبنى الإذاعة، قاصدًا الصالة التي يجتمع فيها العازفون ليتمرّنوا معًا على أداء الأغنية. وما أن ابتدأ في إنشاد دوره، حتّى طلب المايسترو الإعادة، وكأنّ شيئًا ما أزعج أذنه. فطلب منه أن يرفع طبقة صوته إلى حيث كان يصل قبل اليوم. ارتبك صباح على غير عادة، ولم تلبِّ عضلات حنجرته حاجته إلى رفع الطبقة، وبدا صوته كالمبحوح. فتأجّلت البروفة إلى اليوم التالي، واستعيض عن صباح بفنّان آخر.

لقد غيّرت هرمونات الرجولة من طبيعة صوته عندما تدخلت في تكوين حنجرته التي بدأت في تشكيل تفّاحة آدم في عنق الفتى، ناقلةً إيّاه من مرحلة الطفولة إلى الشباب، مهرولةً إلى الرجولة التي تزيّن صاحبها. ولكنّها، في الوقت ذاته، أدّت إلى تغيير جذري في الصوت، والأداء.

لعبت الحالة النفسية لصباح دورها السلبي؛ كلّما حاول أن يرفع عقيرته للغناء، كان يُفاجأ بشخص آخر يغنّي من حنجرته. «إنّه ليس صوتي! لستُ أنا! ما الذي حصل!؟»، كلّها تساؤلات كان يضجّ بها رأس الشاب الذي بدأ يشعر بفقدان أغلى ما وهبه إيّاه الخالق. حتّى أنّه كان يخنق بكاءً يكاد يفلت من سيطرته، كلّما حاول استعادة قدرته الغنائية، فيبقيه في حنجرته وفي صدره.

أسوأ ما في الأمر أنّ خبراء الغناء في الإذاعة طلبوا منه التزام الراحة في البيت، ريثما يتحسّن أداؤه، ويستقر صوته. ووعده عزيز غنّام الذي كان يعشق صوته، خيرًا حين قال: «أنصحك يا بنيّ ألّا تقسو على حنجرتك الآن. إنّها فترة زمنية وستتجاوزها. لا تحاول أن تغنّي قسرًا، فصوتك سيتكيّف مع حجم حنجرتك الجديد رويدًا رويدًا. ولا حاجة اليوم لأن ترغم أوتار

الصفحة المقابلة: صباح في شارع أبو رمانة (1947).

عزيز غنّام

«كان الأستاذ عزيز غنّام من أهمّ عازفي العود والنشأت كار في العالم العربي، برغم أنّه لم يحقّق شهرةً كبيرة في سورية أو خارجها، بسبب شخصيّته الهادئة، وابتعاده عن المجالات التي تؤمّن الشهرة. عاصر، في منتصف القرن الماضي، عازفين كبارًا من أمثال محمد عبد الكريم، وسامي الشوا، وتوفيق الصباغ، وفريد غصن، ومنير وجميل بشير، وفريد الأطرش، وجورج ميشيل، وآخرين ممّن كانوا روّادًا في محاولة إبراز قدرات الآلات الموسيقيّة التعبيريّة مع إدماج أساليب الموسيقى الغربيّة في عزفهم. تعلّم عزف العود على يد الأستاذ أحمد الأوبري في حلب. وتفرّد بأسلوب خاص في استخدام الريشة، سُمّيَ الريشة المقلوبة، مقتربًا من أسلوب العزف على الجيتار، بخاصة في تنفيذ توافقات الأصوات المتزامنة. كما ابتعد عن أساليب الارتجال السائدة في التقاسيم المعتمدة على التطريب والقفلات المسرحيّة، متأثّرًا في ذلك بتركيزه على الإذاعة وابتعاده عن العزف أمام الجمهور. عمل أوّلًا في إذاعة حلب، ثمّ أقام في دمشق لسنوات طويلة وعمل في إذاعتها، مسجّلًا الكثير من التسجيلات المحفوظة في مكتبتها.»

د. سعد الله آغا القلعة

«لقد تعمّق عزيز غنّام في علم العروض حتّى أصبح في بحوره بحرًا، وفي علم الإيقاع حتّى أصبح فيه حجّة. وبخاصة في الإيقاعات العرجاء التي تتّسم بها الموشّحات العربية. ولطالما كان يهابه الضاربون بالإيقاع لما يبتكره من أوزان جديدة في الموسيقى العربيّة، لم تطرق أسماعهم من قبل...»

الأستاذ ممدوح الجابري

كان حجّة في النغم ومطوّرًا، اشتهر بميله للنغمة المبتكرة، والإيقاع المعقّد الذي يهابه العازفون... وخير من ربط الكلمة باللحن. لم ينل حقّه من الشهرة. يقدّره الموسيقيّون والفنّانون ومحبّو الأصالة، ويعترفون به عازفًا وملحّنًا عظيمًا.



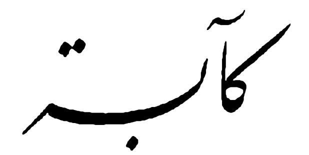
من اليسار (الصفّ الأمامي): عبد الرحمن مدلل، صباح، عدنان عبيس.
(الصفّ الخلفي): عبد القادر صباغ، فؤاد كلزية (1951).

صوتك على بلوغ الـ«سي بيمول»، كما كنت تجتازها بكلّ سهولة، فأوتار الصوت عند الفتى تبلغ ارتفاعًا لا يبلغه الرجل. انتظر حتّى يستقرّ تكوينك الجسدي، ويتوقف نموُّ حنجرتك وجهازك التنفسي. عندها، ستغنّي ما يتناسب معها. أمّا الآن فتوقّف عن الغناء نهائيًا، وسأراقبك لأقول لك متى يمكنك الغناء ثانية».

استقبل الشاب الكلام كمن يتلقّى لكمة تلو الأخرى على رأسه. فحبس الدمعة في عينيه، وحمل النصائح كالأشواك في صدره، وهرع مسرعًا وقرار السفر إلى حلب يسبقه إلى والدته التي اعتادت انتظاره في منزله في جادة الرئيس في دمشق. فلمّا نقل إليها خبر إيقافه عن الغناء، وأنّه تمّ إلغاء عقده مع الإذاعة السورية[1]، حزنت وغصّ قلبها على وليدها الذي كان الغناء زاده، ومصدر رزقه، وكلّ حياته.

لكنّها تسلّحت بإيمانها وإرادتها القويّة التي ورثتها عن أبيها، وقالت له: «يا بنيّ، إنّها إرادة الخالق، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. ودعائي لك بالتوفيق في كلّ مهنة تعمل فيها، حتّى لو لم تكن الغناء. لابدّ أنّ حكمته في ما اختاره لك، فلنذهب إلى حلب ولنا فيها الخير كلّه».

[1] تمّ إلغاء العقد بين الإذاعة السورية وصباح فخري بانتهاء عام 1948.



بدأ الفتى، ابن الخمسة عشر ربيعًا، بجمع أغراضه، وقد أحسّ أنّ الحظّ قد غدر به وأنّ الدنيا قد أظلمت في وجهه، لأنّه، في كلّ مرّة حاول الغناء بينه وبين نفسه، كان يشعر بأنّه مختنق، ولم تعد حباله الصوتية تطيع رغباته. وكذلك حنجرته. والأهمّ من هذا كلّه هو الكآبة التي ملكت عليه كيانه، فصارت تشدّ الخناق على إمكانيّاته، وتزيده وهمًا واقتناعًا بأنّه لن يتمكّن من الغناء بعد الآن.

وجاء قراره، المبنيّ على الظروف والاستنتاجات، أن يتوقّف نهائيًّا عن الغناء، «مكرهًا أخاك لا بطل». وبدأت تلك المرحلة الكئيبة في حياته. توارى فيها عن الأضواء والإذاعة، ولم يكن أمامه إلّا أن يطوي صفحة الشهرة، ويلتفت إلى حياته العملية. فلا بدّ للحياة من أن تستمرّ، وعليه أن يعمل ليكسب معيشته ويساعد والدته التي لم يعد لها معيل سواه، بعد أن سافر إخوته للعمل في العراق.

لا يغيب عن عالم أو طبيب أنّ أفضل دواء للاكتئاب هو العمل، وكانت حاجة والدته إلى العون عاملًا ملحًّا ليحاول صباح البحث بجدّية وإصرار عن عمل.

صَمتٌ مُطبقٌ وعمل

غادر صباح فخري دمشق مدينة النور. وطوى صفحة الفنّ، متوجّهًا إلى مسقط رأسه، ليتوارى عن الإذاعة والأضواء، مؤدِعًا كنزه الربّاني في صدره. وقد أطبق على حنجرته، وكبت صوته الجميل مع أحزانه، ليخطّ لنفسه طريقًا جديدًا بعيدًا عن الفنّ وإحباطاته. ويفتح صفحة يعيد فيها بناء شخصية «صباح الدين أبو قوس»، مسلِّمًا أمره لربّه الذي لا ينسى عباده. بينما بقيت دمشق وإذاعتها في أحلام اليقظة والمنام لديه لا تغيب.

في حلب، دار بينه وبين والدته هذا الحديث:

— يا بنيّ، يا صباح... إنك مازلت في الخامسة عشرة من عمرك، والطرق أمامك مفتوحة، وأراك قلقًا حزينًا. نشكر الله أنّنا في مدينتنا حلب. وفي بيتنا. بقي أن تتسجّل في مدرسة لإكمال تعليمك.

— ولكنّ المدارس الحكومية لن تقبلني بعد أن تركت التعلّم. وللمدارس الخاصة أقساطٌ ربّما لا نقدر على تسديدها. ونحتاج مصروفًا يكفينا لنعيش، قبل أن ينفذ ما ادّخرناه خلال عملي في دمشق.

— لماذا لا نحاول أن نسجّلك في الكلّية الإسلامية؟ لنرَ إن كان الأستاذ بشير العبّاسي ما زال هناك.

وفعلًا، قَبِل هذا الإنسانُ الشهم أن يسجّل صباح الدين أبو قوس بين تلاميذه مجانًا، وهو معروف بأياديه البيضاء في خدمة المجتمع. كما اتّصف بالطيبة والكرم في مسيرة حياته كلّها. وهكذا، عاد صباح تلميذًا في الكلّية الإسلامية، في الوقت نفسه كان لا بدّ من أن يعمل ليؤمّن معيشته ووالدته، فبدأ يبحث عن عمل خارج أوقات دوام المدرسة.

عمل جابيًا لنقابة خاصة لأصحاب معامل النسيج، وكان عملًا مرهقًا، يتنقّل فيه بين حيّ الكلّاسة والعرقوب، ليجبي من النقابيين ما يتوجّب عليهم. وللوداعة التي وضعها الخالق في محيا هذا الفتى، ولجميل تهذيبه، وحسن تصرّفه، صار الذين يماطلون في دفع مستحقّاتهم يدفعون له بطيب خاطر.



الأستاذ محمد بشير العبّاسي.

أراد بعد أشهر أن ينتقل إلى عمل أقلّ إجهادًا، ليتسنّى له أن يجد وقتًا للدرس. واستطاع أن يجد غايته عند آل الدليل، حين ساقه صديق العائلة زكي قنيدر إليهم، وقال: «أرجو أن تمنحوا هذا الفتى فرصة للعمل عندكم، وسيكون عند حسن ظنكم».

نظر إليه الحاج نديم الدليل وقال:

— أليس هو صباح فخري المطرب المعروف؟

— إنّه اليوم صباح الدين أبو قوس.

— وهل ما زال يغنّي؟

— لا، لقد اعتزل الفنّ. وهو يبحث عن عمل إلى جانب دراسته، ليتمكّن من رسم طريق جديدة لحياته.

— أهل حلب يقولون إنّهم سقوه في الشام سُقية ذهبت بصوته...

— هذا كلام يتردّد على ألسنة من لا يعلم أنّ صباح اعتزل الفنّ باختياره. إنّهم يحبّونه في الشام كما في حلب.

قبله الحاج نديم مرحّبًا، وكان حسن التعامل، كريم الطبع. وكذلك أخوه علي. فعمل في مضخّة محطّة الوقود (الكازيّة) في النيرب، كاتبًا بمئة وعشرين ليرة، كان يدفع منها أجرة الغرفة التي استأجرها ليعيش فيها مع والدته خمسين ليرة سورية، إذ ترك صباح وأمّه بيت القصيلة لإخوته من أبيه.

ما كان همّ الفتى إلّا أن يكرّس نفسه للدراسة، والعمل لتأمين دخل أكبر يمكّنه من العيش وأمّه بكرامة. وحرص على أن يجمع بين هواياته وعمله، إذ كان يمرّ في طريقه على الأرصفة التي ارتمت عليها الكتب البيع، فيشتري كلّ يوم كتابًا يعجبه. حتّى أصبحت لدى صباح مكتبة



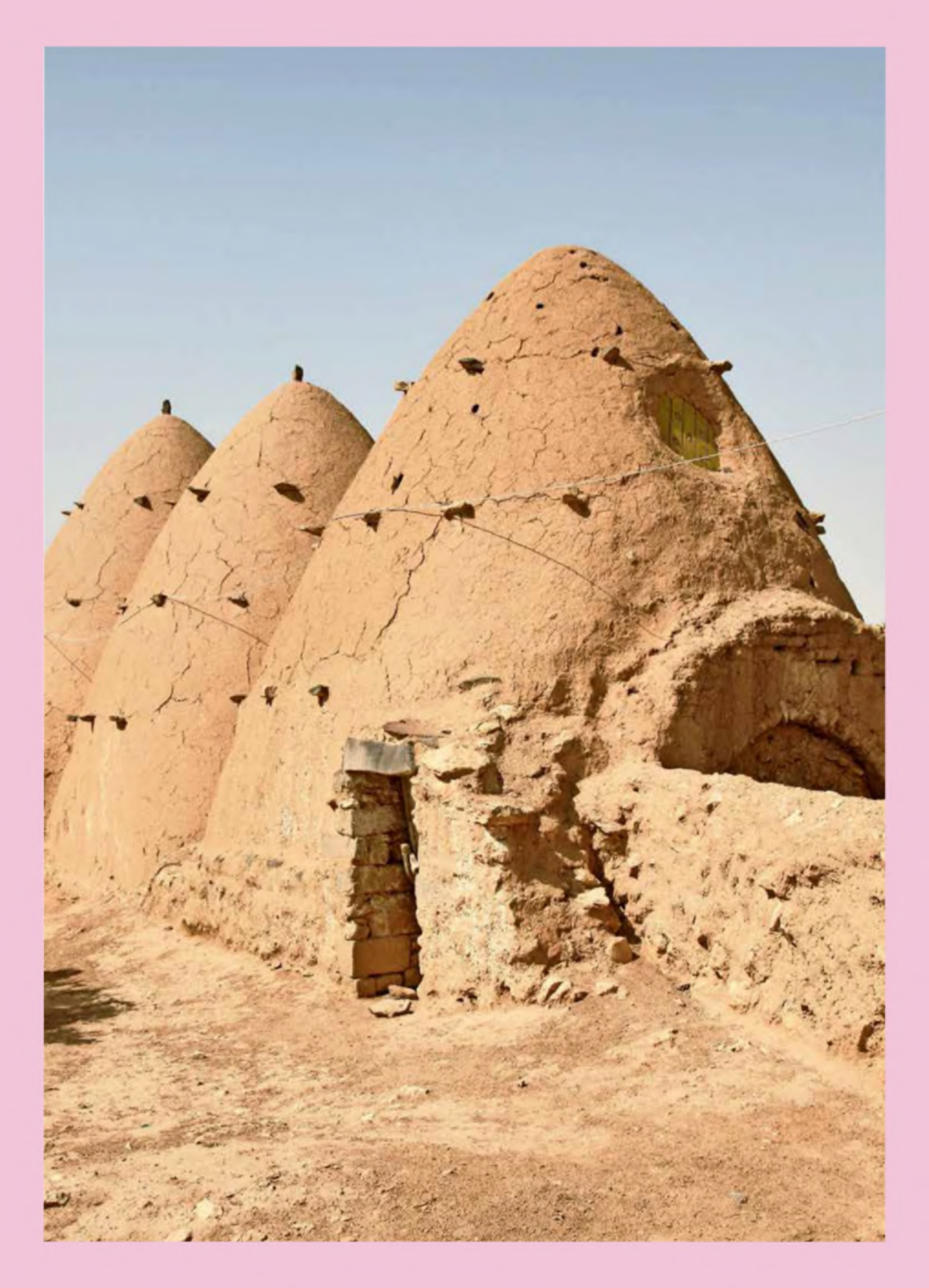
حلب، المعهد العربي الإسلامي عام 1949-1950.

عامرة بمختلف أنواع الكتب. يغلب على تنوّعها كلّ ما يتعلّق بالموسيقى والشعر والغناء؛ فهذا هو الجانب العزيز على قلبه، والذي لم يتمكّن من إبعاده عن حياته. إنّه العشق الذي كبته في أعماقه، ولم يغب عن وجدانه حتّى وهو منغمس في العمل، عشقه للموسيقى.

كان يعزّ عليه أن يضطر إلى بيع بعض من كتبه، ولكنّه اعتبر ذلك جزءًا من تجارة مربحة ومفيدة في الوقت ذاته.

ثمّ جاءت الفرصة السانحة ليعمل في سلك التدريس (وكيل معلم) في مدرسة الأنصاري، براتب شهري قدره مئة وعشرون ليرة سورية. وبذلك لا يكون قد ابتعد عن الجو التعليمي، كما تسنح له الفرصة ليعمل عملًا إضافيًا بعد الدوام.

ظلّ يكافح في سبيل لقمة العيش، وتحسين سبل المعيشة. فلمّا علم أنّ الراتب في الأرياف أكثر، طلب أن يعمل هناك. وفعلًا تحقّق له ما أراد، وكان نصيبه في قرية «إرجل»، وهو في السابعة عشرة من العمر.



في قرية إرجل

لملم الشاب حوائجه في حقيبة صغيرة، وشد رحاله إلى قرية إرجل ليبدأ حياة جديدة ومختلفة، بين عشائر الهيب في ريف حلب الجنوبي. قرية صغيرة جميلة، وكأنّها هربت من التاريخ ببنيانها الذي تحلّى بالقباب. شُيّدت بيوتها من الطين المجبول بالتبن والماء، في طراز عمراني موروث عبر تاريخ موغل في القدم.

لا غرابة في أن يحافظ أبناء قرى الشمال السوري على نمط بناء كاد يغمره النسيان؛ فمواده الأوّلية متوفّرة في المكان. وهي أثبتت جدواها على مرّ الأزمان في التكيّف مع المناخ الصحراوي الحار؛ إذ تكون الجدران الطينية عازلًا حراريًّا، يحتوي ضمنه هواء معتدل الحرارة، ينساب الساخن منه إلى أعلى نقطة في القبة المخروطية العالية، ليخرج من فتحة صغيرة تتوسّطها. وعادةً تخلو الجدران من الفتحات، إلّا بعضها الموزّعة في الأسفل لتسمح بحركة الهواء، بحيث يُحافظ على درجة حرارة معتدلة مهما ارتفعت في الخارج.

ولا تقلّ أهمية القبّة شتاءً، إذ تنزلق مياه الأمطار على الجدران بحنان، بدون أن تتجمّع، ويمتصّ الطين ما تبقّى منها.

لا يستصعب سكان القرية ترميم بيوتهم الطينية تلك، لتوفّر مجبول الطين والتبن في البيئة ذاتها. أمّا الطريق إلى قرية إرجل، فكان مثالًا لصفة وعر. والسبيل إلى القرية، بوسائل المواصلات القديمة، لم يكن بالأمر السهل.

استقلّ صباح الدين البوسطة بين جماعة من أهالي القرية وما جاورها، إذ نادرًا ما يرتادها أهالي المدن الكبرى، وسارت به ساعات، وهي تترنّح من حمولتها التي أُلقيت على ظهرها من حقائب، وحوائج في «بقج».[1] وتميل مع كلّ حفرة تعترض سيرها، فتهوي بركّابها إلى الأمام ثمّ إلى الوراء، بدون أن يعتري سائقها ومساعده أيّ شعور بالذنب تجاه ركّابه، في طريق حَفظ كلّ تضاريسها ومنحنياتها.

---

[1] البقجة: هي قطعة من القماش يجمع فيها المرء حوائجه، وغالبًا ما تكون مطرّزة.

الصفحة المقابلة: بيوت طينية تقليدية.

بعد كثير من الهدهدة والخضّ، وصل الأستاذ الجديد إلى القرية.

وبحماسه المعهود في كلّ عمل يستلمه، سأل عن مدرسة القرية. وكعادة أبناء الريف من العشائر، رحّبوا به، ورافقه أحدهم إلى دار الضيافة عند شيخ العشيرة عبده الأسعد - وهو المكان الذي اعتاد رجال الضيعة أن يجتمعوا فيه كلّ صباح، ويدعى «المقعد» (وتُلفظ القاف هنا كالجيم بالمصرية) - حيث تكون القهوة العربية جاهزة لتدور، وتدور بينهم الأحاديث والسوالف.

استقبله أبو هلالة، وهو من ظرفاء الضيعة، بحفاوة وتكريم العربي. فالمعروف عن عشائر الهيب أنّهم صعبو المراس، ولكنّهم في الوقت ذاته مميّزون بكرمهم وطيبتهم.

قدّموا له القهوة. ثمّ صحبوه إلى مقر إقامته ليرتاح من عناء السفر في بيت ذي قبّة عالية، كأغلب بيوت القرية. أثاثه البسيط اقتصر على بساط وفراش، ومقاعد مبنية من الطوب على طول أحد الجدران، رُميت عليها المخدّات الملوّنة، وكرسي منفرد. أضاف إليها مع الوقت ما يحتاج إليه من تكملة للأثاث، كخزانة ملابس، وطاولة للكتابة، والعود (صديق العمر الذي لم يفارقه في مسيرة حياته).

استقبل المدرّسُ الجديد صباحه بالذهاب لتحيّة شيخ العشيرة (الأسعد)، ولتناول قهوة الصباح في دارته، بين رجال القرية الذين التمّوا يومها للتعرّف إلى الساكن الجديد. ومنهم فرحان أخو الشيخ، وأبو الهلالي الذي كان يجيد إعداد القهوة العربية، ويحسن تقديمها.

ثمّ استأذن ليبدأ أوّل يوم عمل في مدرسة القرية، كمعلّم لجميع الصفوف الابتدائية، ولكلّ المواد المطلوبة في المنهاج.

ولكي يحفظ المدرّس الشاب هيبتَه أمام طلّابه، كان يحمل بيده كرباجًا لم يستعمله، إلّا بالتلويح عندما لا يلقى الطاعة العمياء التي يطلبها من تلاميذ القرية. ولكنّهم تجاوبوا معه، فأحبّوه واحترموه في الوقت ذاته.

تناوب أهل القرية الطيّبون على دعوة المعلّم الصغير إلى تناول الطعام في بيوتهم البسيطة، التي غمرته بالمحبّة والكرم طيلة العام الذي قضاه بينهم. فكان كالابن المدلّل الذي حلّ ضيفًا موقّتًا، يحوفونه بالرعاية والعناية، مثلما تكفّل بتعليم أبنائهم.

لم يحتج صباح طويل الوقت ليألف الحياة الجديدة. برغم أنّ ذكريات جميلةً كانت تقضّ مضجعه كلّما قارنها بخشونة العيش وبدائيّته في القرية. أين هو الهندام الذي تمسّك به

سامي الشوّا؟ الشعر المسرَّح بالبريانتين؟ الحذاء الأسود الملمَّع؟ أين الشوكة والسكين؟ هل نسي هذا الشاب أنّه كان يومًا في مجلس رئيس الجمهورية؟ وعلى مائدته؟ بينما صار يشرب القهوة مع شيخ العشيرة، ويأكل على الأرض مع أهلها، ويمارس رياضة الجري مع شبابها.

وكما يُقال، صار للخبز والملح فعله بينه وبين أهل القرية جميعًا، أحبوه، واعتاد العيش بينهم، منتهزًا العطل والأعياد ليزور والدته وأهله وأصدقاءه في حلب.

لم تكن الطرق معبّدة بالورود، بل كان العمل شاقًّا. والطريق إلى القرية بالبوسطات القديمة ليس سهلًا، إذ كانت تغرز بالوحل مرارًا في الشتاء الممطر. ولا ينسى صباح، ذات مرّة استقلّ فيها القطار متوجّهًا إلى عمله، فأنزله في محطّة الحديد التي تبعد عن إرجل مسافة طويلة، اضطرته إلى أن يمشي أربع ساعات وحيدًا في طريق مقفر، لا يخلو عادة من ضباع أو كلاب بريّة، وفي جوّ ممطر، وصل بعدها القرية منهكًا مبلّلًا. ولكنّه كان يذلّل الصعوبات التي تواجهه دومًا بإرادة قوية. شعاره الصبر، وغايته النجاح في العمل.

بين العقارب

اعتاد شباب القرية، في الليالي الصيفيّة الحارّة، أن يناموا في الهواء الطلق حيث تخفّف نسائم الصحراء الليلية الباردة من حرٍّ اختزنته البيوت في جدرانها وداخلها. وهذا ما فعله الشاب المدلّل، فقد اختار أن ينام على الدكّة - وهي مصطبة من طين مرتفعة عن الأرض - وذلك بعد أن يفرشها بحصير، يحيطه بأحجار لترتفع أطرافها عليها بميَلان خفيف وذلك منعًا من تسلّق العقارب المتواجدة هناك بكثرة، فإن تسلّقت طرف الحصير المرفوع لا بدّ أن تنقلب واقعة على ظهرها، قبل أن تصل إلى داخل الحصير.

وقد بلغت الجرأة في شابنا الذي اختار أن يخشوشن مقدّرًا نعم الله عليه، أن يتسلّى باصطياد العقارب ليلًا قبل أن يخلد إلى النوم.

فجارى أهل إرجل في كلّ عاداتهم، وكأنّه منهم.



كان لا بدّ لابن السابعة عشرة من أن يندمج بأهل القرية، وينعجن بعاداتهم، حتّى في جلسات الأنس والسهر. كان يحلو لصباح أن يستمع إليهم وهم يتبادلون الزجل والأشعار، في غناء هو أشبه بالحداء والهزج، قلّما رافقته ربابة أو ناي. تميّز من بينهم أبو هلالة الذي استحسن صباح عِشرته لأنّه كان ذوّاقة للشعر والمغنى. حفظ منه ابن حلب بعض الأشعار التي كان يغنّيها بلهجة العشيرة التي ينتمي إليها (الهيب):

رماني الهمّ وقلّ شوفاي — غثيث وتكره الدشمان شوفاي

علاي هالداقة المنحر والشفاي — متى لحجن دعا ثير الجناب

وزجل عفويّ آخر:

سلج (سلك) لمّا لملم جروحي وشلهن
أداويهن عسى يبطل وشلهن (الصديد)
وسنين العسر يا ابن أمي وشلهن
علينا تيلحن بالجفا

ابتدأ صباح باستساغة هذا اللون بعد أن اعتاد سماعه وفهم كلماته، ورأى فيه من الأحاسيس ما حرّك مشاعر ابن السابعة عشر الذي كبر ونضجت عواطفه باكرًا، وقست عليه الحياة، فذاق حلوها ومرّها، وهو غضّ العود، كثير الأحمال.

ومن حلو ما مرّ به في إرجل، كانت مليحة من القرية حنطيّة اللون، كثيفة الأهداب، لخّصت في أوصافها كلّ ما قرأه صباح عن الجمال العربي. كانت تخطف بصرها نحوه كلّما مرّت من أمامه، ثمّ تحيد بوجهها لتخفي ابتسامة تكاد تفضح مشاعر دفنتها في قلبها، فترمي بطرف وشاحها على وجهها وتلملم ثوبها، وكأنّها تحاول أن تخبّئ ذنبًا اقترفته أحاسيسها. ولكنّ احمرار وجنتيها لم يخفَ على صباح، فهزّت مشاعره وغابت عن أنظاره، إلّا أنّها لم تغب عن مخيلته، بل قبعت صورتها في ذهنه، يخرجها من جعبة ذاكرته، كلّما اختلى بنفسه، لتمسّ شغاف قلبه، ويهربا معًا إلى عالم من العواطف الرقيقة، والمشاعر الغريبة.

كان الشعور بالسعادة يغمره كلّما مرّت أمام ناظريه، أو حتّى في مخيّلته.

أتراه الحبّ الذي يتغنّى به؟ أم أنّها وحيٌ ككلّ أشعار الزجل التي يترنّم بها أهل القرية؟ يكفيه من هذا كلّه أن يضع رأسه على وسادة، ثمّ يغمض عينيه، حتّى يرى ابتسامتها أجمل من أشهر لوحات العالم الفنّية.

وباتت القرية تشدّه إليها كلّما غادرها لزيارة والدته، فلماذا يترك قلبه مشتّتًا بين عزيزين؟

دعا الولد والدته للمكوث معه في إرجل، وشعر بالراحة والأمان حين لبّت نداء مدلّلها والأقرب إلى قلبها. فحلّت ضيفة على القرية وأهلها، وأحاطوها بعناية ذاقها ابنُها قبلها من كرم العشيرة العربية الأصيلة.

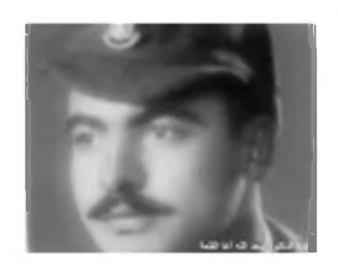
تهافتت نساء القرية على منزل السيّدة عليّة القدسي والدة صباح، ليرحّبن بها. ومن بينهن جاءت المليحة، وأكثرت من تردّدها على زيارة أمّ صباح، فحظي منها صباح بلقاء، استطاع فيه أن يكلّمها، ويعيد تأمل ملامحها، حتّى ترسّخت صورتها أكثر في بنك أسراره الدفينة.

حيّاها، وسألها عن أحوالها. سألته إن كان سعيدًا في القرية. أجابها بأنّ مكانًا هي فيه يفيض عليه سعادة وحبورًا.

كان هذا هو الحبّ العذري الذي زاره لأوّل مرّة، وقد بلغ سن الرجولة، ووضحت معالمها على فتوّته. وكانت القلوب هي الناطق الوحيد المعبّر عن المشاعر البكر حينذاك. لأنّه حبٌّ مكبلٌ بتقاليد موروثة، وأخلاق سكنت النفس، ومنعت البوح بمكنوناتها.

وعلى الرغم من كلّ القيود التي فرضها المجتمع والعاشقان على نفسيهما، بقي هذا الشعور ملجأً للسعادة، ومقرًّا للاستراحة يبعدهما عن هموم الحياة ومصاعبها. ويبلغ هذا الحبّ ذروته بتحيّة، أو بابتسامة. ويشتعل بنظرة تطول فتلهب ما في قلبيهما، وتبدو على خدّيها، ويغرف منها في أعماقه زوّادة لليل طويل.

كان لا بدّ لهذا الحبّ من أن يُوأد حيث وُلد؛ في تراب الحياء والخجل، وفي غياهب الخوف من المجتمع، وغاب مجهولًا كما ابتدأ.




مركز التدريب الثاني - دورة شعب التجنيد لعام ١٩٥٤

سبحان الدّايم

لم تدم سعادة صباح الدين بحبّه العذري وانسجامه مع أهل القرية، الذين أحبّوه وأجلّوه برغم صغر سنّه، لكونه رسول الثقافة والعلم إليهم، ومربّي أولادهم. فقد ناداه الواجب الوطني لخدمة العَلَم، بعد أن قضى سنة كاملة في خدمة العِلْم. وبانتهاء العام الدراسي، بدأ بالاستعداد للرحيل. وانتشر خبر نقله في الضيعة الصغيرة، فحزن كلّ مَن سمع من الذين عرفوه وأحبّوه واعتادوا مؤانسته.

عبّر كبار رجال القرية وشيوخها عن حزنهم لفراقه. وناب عنهم في الكلام شيخ العشيرة في جلسة المقعد الصباحية، إذ قال: «لم يمرّ على إرجل معلّم بحسن أخلاقك وتربيتك. وقد أحبّك أبناؤنا وأحبّوا المدرسة لأجلك. ستبقى في ذاكرة إرجل دائمًا، نتمنّى ألّا تنساها، وتزورها كلّما سنحت لك الأيام».

أما الصبيّ سالم، تلميذه الذي كان وكالة الإعلام التي تدخل زواريب الضيعة وتنقل لصباح أهمّ أخبارها: «فلان خطب. علّان ناوي يفتح دكّان. هاد نصب على هاد. هداك التلميذ غشّ بآخر امتحان. المليحة اشترت خبز من الفرن...»، فقد زاره في داره والحزن بادٍ على وجهه، وأجهش بالبكاء وهو يعانقه مودّعًا، من دون أن يقوى على الكلام.

حتّى النساء اللواتي أتين إلى الدار لوداع الوالدة، لم تخلُ زيارتهنّ من مفاجآت. اغتنمت إحداهنّ التهاء النسوة بالحديث مع السيّدة عليّة، لتختلي لثوانٍ بصباح مودّعة إياه وهي تلطم على وجهها وتقول: «بدك تروح يا حَرق قلبي» (تُلفظ القاف هنا كالجيم بالمصرية)، ثمّ قدّمت له مرآة صغيرة، احتفظ بها صباح لمدّة طويلة. وكأنّها كانت تكتفي بحبّ تحفظه لنفسها بين جوانحها، حبّ من طرفٍ واحد، أدمنت عليه عامًا، وبكته حين غاب. كان هذا هو الحبّ الذي لم يشعر به صباح طيلة إقامته في القرية، ولكنّه حمل ذكرياته حتّى اليوم.

أما السيّدة عليّة فقد عزّ عليها فراق أناس طيبين، ألفت الحياة الهادئة بينهم. كما ودّعت «حام» الكلب الذي كان يحرس البيت، ويرافقها أينما ذهبت، لأنّها كانت تكرمه، وترعاه، ولا تنسى إطعامه. فكان لها الحارس الأمين، وللكلاب وفاء لا يضاهيه إخلاص الإنسان. وهكذا... طُويت صفحة من كفاح صباح، وابتدأ حياة جديدة بعودته إلى حلب.

في خدمة العَلَم

ما كان الالتحاق بخدمة العَلَم يشكّل رهبة في نفس صباح، ولا وجلًا؛ فقد اعتاد خشونة العيش، كما ذاق نعومته. عاش الشهرة والأنوار، كما جرّب العزلة في الأرياف. وفي كلّ الأحوال كان منسجمًا مع واقعه، لا تهون إرادته، ولا يتملّكه اليأس. شعاره الاتّكال على الله الذي لا يخيب عنده رجاء. ولكنّ ما أقلقه كان بقاء والدته وحدها في الدار أثناء خدمته العسكرية، وانقطاع الدخل الذي يؤمّن لهما معيشتهما. فبدا على محيّاه تراكمُ الهموم على كاهله، ولم يغِب هذا عن أمّ ذكية كوالدته.

اقتربت أمّ عبد الهادي من ولدها صباح، وهي تحمل في يديها إبريق الشاي مع كأسين صغيرين على صينية. وضعتها على الترابيزة، وقالت وهي تصبّ الشاي وتناوله لولدها.

— أراك مهمومًا يا ولدي... هل هي الجندية يا صباح؟

— سلمت يداك. رائحة الشاي من يدك مميّزة، لا أرى ألذّ منها...

تعيد السؤال الذي تجاهله:

— أهي العسكرية التي أنت منزعجٌ لأجلها؟

— أبدًا يا حجّة، وهل يخيفني واجبٌ وطني!؟

— إذن؟

— الجندية لكلّ شاب في سنّي واجبٌ مقدّس، وتعلمين يا أمّي ولعي بتعلّم كلّ جديد، حتّى في العسكرية وفنون القتال. ولكنّ ألمي لبقائك وحيدة في المنزل يقضّ مضجعي.

انفرجت أسارير عليّة، وقد لمست سموّ مشاعر ابنها نحوها، وقالت:

— ما عليك يا حبيبي. لن أكون وحدي أبدًا. البركة في إخوتك، سأزورهم في غيابك، ولن يملّوا من زيارتي، فلا تقلق يا صباح. اذهب على بركة الله.

أكمل احتساء الشاي بسرعة، ثمّ قبّل يد والدته، وغادر المنزل ودعوات أمّه تلاحقه متعالية حتّى أغلق الباب، منطلقًا إلى شعبة تجنيد الفرافرة.

هناك يقف طالعه الحسن ليستقبله من دون أن يدري. رفيق قديم، هو كاتب في الشعبة، يستوقفه ليذكّره بنفسه بعد أن عرفه، يحييه بحرارة ويقول:



دورة الجيش (1955).

— صباح... ما رأيك في أن تكون معي هنا؟

قال صباح مستئنسًا بوجوده: «ولم لا؟ الله وإيدك».

وفي اليوم التالي، ابتدأ صباح أوّل يوم من الخدمة الإلزامية في مركز التدريب أمام شعبة التجنيد، مثلما وعده رفيقه. في بلده، وقريب من الحيّ الذي يقطنه المجنّد صباح الدين أبو قوس.

وقف المجنّد الجديد في الساحة منتظمًا مع أقرانه من المجنّدين، ليحضر باكورة صبح في حضرة رئيس المركز، المقدّم مارين الذي عُرف بصرامته الشديدة.

«اجتماع!»

يرفع المقدّم عمرته عن رأس حليق بالموس، ويقول للمتدرّبين الجدد: «مارين... قدوة». بما يعني أنّه على الجميع الاقتداء به في حلاقة الشعر بالموس. وبينما نفّذ الجميع أوامر قدوتهم، تلكّأ صباح، وذهب إلى المُرَشَّح[1] محاولًا الحصول على التماسٍ للعفو عن شعره الذي يعتبره من مقوّمات مظهره، إذا ما عاد إلى الغناء كما لا يزال يحلم.

ولم يحالفه الحظّ هذه المرّة، فاستسلم لموس الحلّاق الذي قام بواجبه على أكمل وجه، بعد أن عرف أنّ الرأس الذي بين يديه، هو للشاب صباح فخري الذي تعرفه الحارة جيّدًا، وكذلك حلب، وتترنّم بصوته، بينما لم يعرف أحد في إرجل أنّه يغنّي على الإطلاق.

دخل المجنّد صباح على والدته في أوّل إجازة له، يختال في بزّته العسكرية، فاحتوى يديها يقبّلهما، ثمّ رفع عمرته ليرى ابتسامة الفرح على وجهها وهي تقول: «مبروك عليك يا ولدي. أجمل ما بك هو هذا الرأس الحليق. إنّه صحّة للشعر. يحميه من الأمراض، ويزيده كثافة».

هكذا كانت السيّدة عليّة دومًا، سندًا ومشجّعًا لصباح في كلّ خطوة أقدم عليها، وعنصرًا هامًا في كلّ محطّات حياته.

أمضى صباح دورته التدريبية بين زملاء متحابّين، متكاتفين. فرفاق السلاح هم دومًا أعزّ الأصدقاء وأشدّهم إخلاصًا. انتهت الدورة التدريبية، وآن أوان الفرز.

اجتمع شباب الدورة، وتولى رقيب قراءة الأسماء وفرزهم إلى مناطق بعيدة عن حلب، ينادي:

— محمد مصطفى.

— حاضر.

— القامشلي.

وهكذا كان نصيب أغلب الدورة تلك، إلى دير الزور والقامشلي.

---

[1] المُرشَّح: هي رتبة بين المساعد أوّل والملازم، وكانت في الخدمة الإلزاميّة للمجنّدين حاملي الشهادات. وقد أُلغيت الآن.



دمشق، حديقة السبكي، مع عمر شيخ القهواتية (1954).

ولمّا نادى اسم صباح أبو قوس لم يجب صباح. كرّر الاسم، أجاب رفاقه «غايب» فأمطره بسيل من الشتائم، ونادى الاسم الذي يليه.

وبقي صباح ينكر وجوده، دون أن يشي به أحدٌ من أبناء دورته، حتّى وُزِّع الجميع، عدا قلّة بقوا في المركز، ومنهم صباح، وأقاموا لهم دورة خاصة. حبّب الله أصحاب صباح به، فكانوا يحرصون على راحته، وإبعاد الأذى عنه. فلا يُقلقون ساعات نومه، ويستمتعون بأحاديثه في أوقات الراحة، إذ كان يحلو لهم أن يصغوا إليه وهو يروي مرحلة جميلة من حياته في عالم الشهرة.

مع اكتمال رجولة الشاب صباح، تبلورت حنجرته، واكتمل تكوينها لتعيد للكنز الدفين تألّقه. وعاد صوت صباح فخري الرَّجل يشقّ لنفسه مكانًا بين ذكريات سنوات المراهقة في أحياء حلب وبيوتها. إذ ارتضى أن يشارك في حفلات صغيرة في البيوت، إيذانًا بانطلاقة جديدة، تزيح الكآبة التي اعترته خمس سنوات انقطع فيها عن الغناء.

وكان يحرص على أن تكون مشاركته في أيام العطل والإجازات. وحين تضطرّه ظروفه إلى حفلة خلال الدوام، كان يلجأ إلى العريف خليل، فيصارحه بأنّه ملزم بإجراء حفلة عرس، فيغضّ خليل النظر عنه ويداري غيابه.

العزوبيّة طالت عليَّ

كانت لصباح محاولات جدّية في الحبّ والزواج؛ إحداها مع فتاة من عائلة «الباقي» في حلب. نالت إعجابه، وبادلته الشعور والإعجاب بعد إبداء حسن نيّته في الارتباط بها. وتقدّم فعلًا، برفقة أبيه وأخيه الكبير، لخطبتها من أعمامها الذين سبق أن درّسهم والدُه في مكتبه، وانتظر الردّ. فنقلت له الجواب بنفسها، معبّرة بأسفٍ عن رأي أهلها في الزواج من أهل الفنّ. وكانت تلك مشكلة حقيقيّة تواجه الفنّان عندما يقدم على الزواج، حتّى لو كان الأهل من المعجبين به والعاشقين لفنّه، وذلك حرصًا منهم على عدم الزجّ بابنتهم في جوّ من عدم الاستقرار العاطفي الذي يتعرّض له مجتمع الفنّانين عامة. وقد تفهّم صباح ذلك بعد سنوات، فهو نفسه لم يتزوّج من الوسط الفنّي - مع احترامه وحبّه للفنّ والفنّانين - لأنّه كان يرغب في بيت يتمتّع بالاستقرار. ونادرًا ما نرى زواجًا يدوم طويلًا في أوساط الفنّانين.

أمّا ابن خاله عبد الله القدسي، فقد رغب في أن يزوّجه ابنته. ارتاح صباح للفكرة. فرتّب أموره وجهّز كلّ ما طُلب منه لإتمام الزواج. ولكن، لسوء الحظّ، تدخّلت أخته لتعارض الفكرة وتلغيها من أساسها، لأسباب غير وجيهة - وهي أنّ العروس وأمّها اشترتا البدلة البيضاء (ثوب الزفاف) مع العريس، من دون استشارة أخت العريس ووالدته - ما حدا بابن خاله إلى أن يتراجع عن الوعد الذي قطعه له، كي لا يُغضب عمّته الغالية.

هكذا كانت التقاليد تقف لحبّه، أو لرغبته في الزواج، بالمرصاد حتّى أذن الله تعالى وآن الأوان.

فِي دِمَشقَ ثانيةً

ما إن انتهت الدورة التدريبيّة تلك، حتّى تمّ فرز صباح ورفاقه إلى دمشق. وُزّع شباب الدورة بين مكاتب المجلّة، والعقود، والمبايعات، حيث كان نصيب صباح في الأخيرة. هناك ساعد صباح المرشّح المسؤول في القسم، على اجتياز امتحانات البكالوريا باللغة العربيّة، بأن حمل عنه همّ المعاملات كلها.

كان الراتب الشهري للمجنّد 12.5 ليرة و4 قطع من الصابون، دفعها صباح أجرة لغرفة في عين الكرش[1]. قضى فيها عام الخدمة العسكرية مع رفيقه عدنان المصري الذي تكفّل بنقل الماء من البركة التي يرتوي منها أهالي المنطقة.

---

[1] في منطقة عين الكرش، بركة ماء تفرّعت عن قساطل قديمة تحت الأرض، تأتي ممّا يُعرف الآن بشارع العابد. تتفرّع عنها ساقية عرضها بضعة أمتار، تذهب منها الماء إلى قنوات في جوف الأرض، وتنتقل عبر المدينة. تلك البركة التي كانت تُعتبر عينًا، كانت مصدر المياه لسكّان المنطقة.



إلى يمين صباح، والده الشيخ محمد نجيب أبو قوس، وإلى يساره، شقيقه محمد أبو قوس.

طريق رحمة القدّوس

1954

مع انتهاء الخدمة العسكرية، وعودة صباح إلى حلب، كانت الحيرة واقفة له بالمرصاد؛ فلا بدّ من أن يختار طريقًا ليسلكه في حياته. كلّما ارتمى على فراشه، تزحف الأفكار إلى رأسه، راسمةً له طرقًا متنافرة، ويبتعد القرار.

لطالما عزم، حين فقد صوتَه، على ألّا يحترف الغناء. وكم شدّته بيئته الدينية إلى خيار مهنة تنتمي إليها. بينما جذبه العلم ومهنة التدريس، حتّى لو كانت في الأرياف. أمّا وقد تحطّمت الأغلال التي ربضت على حنجرته، فهل يطلق العنان لها لتسمح للصوت الحبيس بحرّية الشدو والغناء؟

وكأنّه عاد إلى نقطة البداية. هل يعود إلى سلك التدريس؟ أم إلى إحياء حفلات في البيوت أو موالد؟ أم يبحث عن وظيفة هنا وهناك؟ أم يلتفت إلى التجارة التي أعانته في أيّام الضيق؟

مع كلّ هذه الأفكار المتلاطمة، اخترق الاكتئابُ نفسَ هذا الشاب الواقف على مفترق الطرق. فسكن غرفته. وأغلق الباب على نفسه. وكبّل تفكيره بأغلال متشابكة من الحيرة.

كان الاعتكاف ملجأً لصباح ورثه من أجواء قديمة عشّشت في بيئته الدينية. يقضي أيامًا في الصلاة والعبادة، وفي الدعاء والتوسّل لله عزّ وجل، لينير له طريقًا يسعى فيه.

وسبق أن شكى أمام صديقه الشيخ جميل العقاد المصري، أستاذ التربية الدينية، عن اكتئابه وقلّة حيلته. فقدّم له نصيحة من تجربته الشخصية، إذ قال: «ما عليك يا صديقي إلّا أن تتّجه إلى الخالق بأسمائه الحسنى. فقد مررت بضيقٍ وكربٍ أسماني حياتي. فلجأت، بعد يأسٍ، إلى القدّوس. أسبّح باسمه في غرفة اعتكافي ألف مرّة في كلّ زاوية من زواياها. حتّى ارتاحت نفسي. وما لبث أن زال الغمّ عنّي، وحُلت مشكلتي التي كانت سبب قلقي، وعُدت إلى مزاولة عملي».

نفّذ صباح نصيحة صديقه الشيخ، فصلّى لربّه مستخيرًا إيّاه في مسيرة حياته. وكأنّ ستارة كانت تحجب عنه الطريق، الذي بعُد عنه سنواتٍ، قد ارتفعت ورآه مضيئًا كالمنارة، فلا ريب أنّه هو الطريق الذي اختاره الله له. استيقظ في صباح اليوم التالي ليقبّل يد والدته، وقد انفرجت أساريره، ولينبئها بقرارٍ اتّخذه، فقال: «إنّ الله تعالى قد منحني كنزًا يكمن في حنجرتي، وصدري. وفي صوتي الذي ما توقّف عن ذكره منذ نعومة أظفاري، إنشادًا وتسبيحًا وذِكرًا وأذانًا للصلاة. وهو سبيل رزقي حتّى آخر العمر».

وهكذا عاد صباح إلى الغناء بقوّة وإيمان.

عودة إلى طريق المجد

كان قرارًا حكيمًا ذلك الذي اتّخذه صباح بالسير في طريق الفنّ، حتّى لو كان معبّدًا بالأشواك. عاد اسم صباح فخري يتردّد في أوساط حلب الفنّية التي تلقّفته بأذرع ممدودة، وصدر رحِب، وآذان مشتاقة لسماع الجمال، والاستمتاع بالكمال. وكانت عودةً لصوت ذكوريّ اكتمل ميزانه، بحنجرة سليمة نادرة، وحبال صوتية مشدودة، وقدرة على التلاعب بالنغم، والعِرَب والكلمة، وبخصوصيّة تميّزت عن كلّ من غنّى بالعربية بالمطلق.

نعم، عاد صباح فخري إلى الساحة الفنّية، الصوت الأقوى والأجمل بجدارة. وتهافتت عليه نوادي حلب الشهيرة التي يرتادها الجمهور الحلبي العاشق للطرب والموسيقى، كنادي اللواء، ونادي السعد، والنادي العائلي. إضافة إلى أصحاب الحفلات الخاصة من مجتمع حلب الذوّاق.

وهنا سبح صباح فخري في بحره. وحلّق مع أهل الطرب في أجواء مدينة الفنّ والأصالة الساحرة.

كان يغنّي ما يحبّ الجمهورُ الحلبي سماعه من أدوار قديمة، وموشّحات، وأغانٍ شعبية متوارثة، وما حفظ من شرقاويات، وأغانٍ لمطربي الخمسينيّات المشهورين. فلم يكن قد اكتسب ألحانًا تخصّه، إلّا الدويتو الذي شاركته فيه نجاة الصغيرة في إذاعة دمشق «يا واردة عالعين». وأغنيةً كان قد ألّفها ولحّنها لنفسه وهو في الرابعة عشرة من العمر:

يا رايحين لبيت الله مع السلامة وألف سلام...
مبروك عليك يا عبد الله...
يا قاصد كعبة الإسلام...
يا هناوتهم... يا فرحتهم...
يا هناوة اللي تاب وكفّر...



حفلة في نادي اللواء في حلب (1958). من اليسار إلى اليمين: مصطفى زينب (كمان)، خالد صقر (كمان)، محمد صابوني (قانون)، رزوق وردة (عود). من الخلف: اسكيف (أبو المكروفونات)، محمد ناشي، محمد درويش، فاخر نيال، كامل بصال، عبد القادر تونونجي (مذيع)، وصباح في الوسط.



في نادي اللواء. صباح مع عازف الناي والقانون زهير قصص (بحبوج)، عازف العود عمر جارور، عازف الرق مصطفى الجمال (1955).

نادي السَّعْد

في سنة 1956، ذات ليلة، وبينما كان صباح فخري يشنِّف آذان جمهور نادي السعد[1] بأغنية:

جاني حبيبي أبو الحلقة
والكاتب يكتب بالورقة
قلبك قاسي وماله شفقة
روح يا عزول وابعد عني
عالهيلة الهيلة الهيلة...

وإذ به يفاجأ بالأستاذ عادل خيّاطة بانتظاره حتّى ينهي «نمرته»، ليتحدّث معه.

— أخي صباح، لقد كُلِّفتُ بتأسيس إذاعة حلب، وأرى أن نتكاتف مع باقي الشباب لإنجاح هذا المشروع الهام.

وكان يقصد بباقي الشباب: محمد خيري، مصطفى ماهر، أحمد الصابوني، سمير حلمي (ادمون حداد).

ولاحت أبواب الشهرة للفنّان الشاب تفتح من جديد.

— بكلّ سرور، هذا واجبنا تجاه مدينتنا وجمهورنا الحلبي.

— وقد حدّدنا راتبًا شهريًّا مقطوعًا لكلّ منكم. مئة وخمسون ليرة سورية. إضافة إلى مئة وعشرين أخرى لقاء كلّ أغنية تُذاع للمطرب.

أما الرعيل القديم، من أمثال: بكري الكردي، أسعد سالم، مصطفى الطرّاد، محمد النصّار أبو كامل، فقد كانوا يتقاضون أجورهم بالليرات الذهبيّة من الأماكن التي عملوا بها، كدليل على تقييم أهالي حلب لمستوى الغناء والطرب، وتقديرهم للفنّ عامة.

---

[1] نادي السعد: أحد النوادي الاجتماعية في مدينة حلب.

عَوْدٌ إلى الشهرة...

لم تكن إذاعة حلب منبرًا واسع الانتشار، ولن تكون وحدها السبيل إلى الشهرة، والذي ينطلق منه إلى أحلامه. كانت طموحات هذا الشاب تريد أن تطير خارج المدن والبلدان. إذ كان بثّ الإذاعة لا يتعدّى الساعتين، استمع خلالهما جمهور حلب إلى الصوت الذي كان يؤدّي أغاني أم كلثوم، وأَدوار سيّد درويش بنكهة خاصة، استحسنها الجمهور، وأحبّ أداء صاحبِها المختلف.

هذا الشاب العشريني (23 سنة) يؤدّي نوتاته من دون خلل، فترتاح الأذن لسماعه، كمن يستلقي على الحرير، من دون أن تخشى أيّ أذى أو شرود عن بحر الجمال والصفاء، مهما ارتفع اللحن أو انخفض.

واعترف الخبراء لهذا الشاب بأنّه لا يصعب عليه نغمٌ، كفرس أصيل متمكّن من قفز الحواجز مهما ارتفعت، ومن السير في الزواريب مهما تعرّجت.

في حلب نشأ، ومنها انطلق، وفي إذاعتها تمرّس. فكان من المشاركين في تأسيسها، واختيار الصالح للغناء فيها.

قدّم صباح فخري أوائل الأغاني التي لُحِّنت له خصّيصًا وحصرًا، لإذاعة حلب. مثل قصيدة الشاعر عمر بهاء الدين الأميري التي لحّنها نديم درويش:

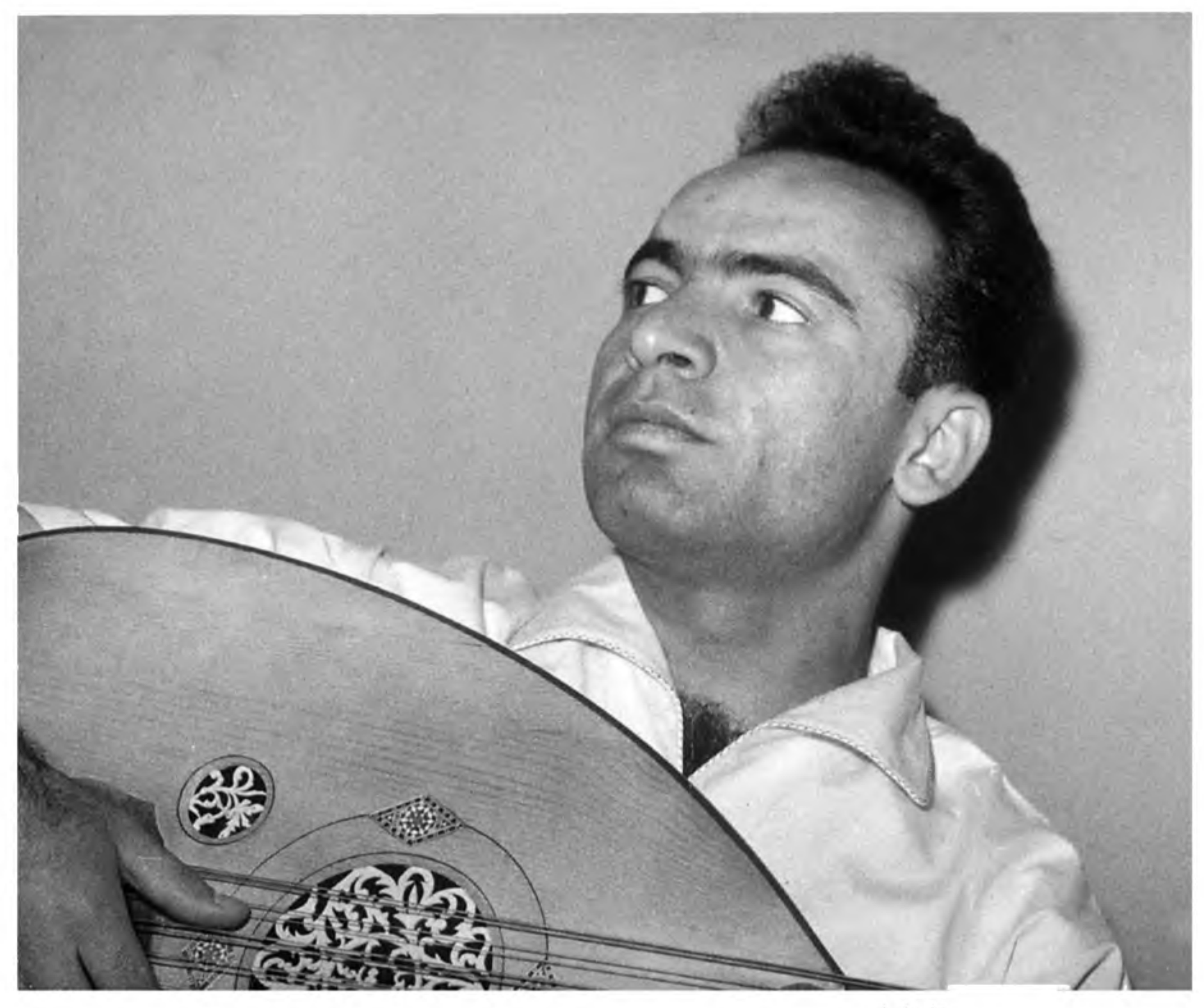
أدعوك يا ربّ من روحي ووجداني
أدعوك من قلب إسلامي وأشجاني
أدعوك يا ذا المنّ والشان
مستعجلًا كشف ضرٍّ مسَّ إخواني

ومن ألحان منير الأحمد:

فراش الخميل تهادى يميل
يحيي الزهور قبل الرحيل

ومن ألحانه أيضًا، للشاعر شارل خوري الذي جنَّ من عشقه، فقال قصيدته «سماح»:

أنت التي أبكيتني وجعلتني أشقى الورى



صورة لصباح في العام 1955.

أيّام كان العمر روضًا بالأماني مزهرا
لهفي على عهد الصبا قضيته متحسّرا
وسواي يضحك للشباب وللهوى مستبشرا

أما عبد الحميد التنّاري،[2] وهو مطرب وملحّن وعازف عود وكمان، فقد لحّن لصباح أغنية «يا همسة المعلّل».

[2] عبد الحميد التنّاري، هو والد عازف العود المعتبر حسان تنّاري. وهو عازف عود طوّر نفسه إلى عازف كمان ماهر، ثم قفز إلى التلحين من خلال «يا همسة المعال». ولم يكرّر تجربته تلك.

حَدَثَ ذاتَ مَرَّة

كان من عادة تجّار حلب الكبار وصناعيبها، أن تكون لهم ثلّة من الأصدقاء الذين يرتادون دورهم للسمر، في سهرات أسبوعيّة كانوا يدعون لإحيائها خيرةَ المطربين آنذاك.

لا ينسى ابن الثالثة عشرة يوم دعاهُ أحدهم مرّة لإحياء ليلة في دارته، وقال له: «يا صباح، خذ راحتك في الدار، كما اعتاد غيرك... يأتي إلى منزلي كبار الفنّانين، أمثال بكري الكردي، شكري أنطكلي القانونجي، القرقناوي... كلهم يتصرّفون في المنزل على راحتهم، ويفتحون الشعريّة».[1]

أجابه الفتى بكبرياء وهدوء لم يُخفِ دماءً صعدت إلى وجهه: «أشكرك، لأنّني لا أتناول الطعام خلال عملي. ولا أفتح مطابخ البيوت، وأَجري هو عشر ليرات سورية على الحفلة...».

فعليًّا، احتسب صباح أجره سبع ليرات ونصف، ثمّ ذهب قبل الحفلة إلى محل الحلويات المشهور «مهروسة»، ليأكل ما لذّ وطاب من حلوياته بما تبقى له من مال، شاريًا كبرياءه، حافظًا كرامته، دون أن يضطرّ إلى اجتياح مطابخ البيوت التي يغنّي فيها.

في حارة البستان

حادثة أخرى حصلت في «حارة البستان»، حيث كان صباح يحيي سهرة غنائيّة. كانت الحفلة في بداياتها، والأنغام الهادئة تهيّئ الحضور لسماع ما يُطرب. بعد أن دار «الكاس» بينهم، وإذ بمشادة كلامية بين اثنين تقطع حبال النشوة، وتأخذ مجرى الحفل إلى مكان آخر؛ حيث يستنهض الكلام المستفِزّ ثأرًا قديمًا لم يخلُ من الدم بين أسرتي المتشادّين، فصارت الباحة مسرحًا لعراك بالأيدي والكراسي. قرّر الفتى أن يغادر الدار قبل أن يحتدم الصراع، ويصبح بين الضحايا. ولكن، جاءه أحد القبضايات ليخبره بأنّ الباب قد أُغلق، ولا يمكنه مغادرة

---

[1] الشعريّة: تُسمّى في مدن أخرى كدمشق وبيروت النمليّة. وهي المكان الذي يحتوي ألوان الطعام في المطبخ، ويكون بابه من المُنخل.



من اليسار إلى اليمين: عزيز حجار (كمان)، صافي زينب (قانون)، كامل بصال، صباح.

المكان، فاحتال عليه صباح بأن عرسًا ينتظره خارج الحارة، وطلب منه السماح بالخروج منها. ولما وصل إلى باب الدار (الحوش) وجده مغلقًا، فما كان من صاحب الدار إلّا أن أمر بفتحه للمطرب، ليصل إلى العرس المزيّف الذي اختلقه صباح.

في قاضي عسكر

في دار أخرى في «قاضي عسكر»، كان صباح يحيي ما يسمّونه بالصبحيّة (وهي في الحقيقة احتفال مسائي). وما أن رأى رؤوس الرجال قد دارت بالخمرة، انتابه شعور بأنّ الجوّ قد تعكّر. ولم يكن قد اصطحب معه أحد القبضايات كعادته، فلجأ إلى صاحب الدار قائلًا: «إن أردت أن أحيي لك عرس أخيك القادم، أخرجني من هذا المغطس».

لبّاه صاحب الدار، فأدخله إلى غرفة استطاع أن يقفز من شباكها إلى الحارة المجاورة هاربًا من المشاكل.

حفلة بيت بوبس 1954

كان صباح لا يحبّ الانجراف إلى المعارك، ويفضّل تجنّب المشاكل التي لا تجديه نفعًا، بل تدخله في متاهاتٍ يصعب الخروج منها. وكما قال الشاعر:

فز بنفسك إن وجدتَ ضيمًا وخلِّ الدار تنعَ من بناها

ولكنّ هذا لم يمنع من أنّه قد تورّط يومًا في موقف تطلّب منه ممارسة العنف.

بعد أن أنهى خدمته العسكريّة، طُلِب من صباح إحياء حفلة في «بيت بوبس» في حلب. فجهّز فرقته التي كان قد جمعها لذلك، وهيّأها للذهاب إلى المكان المتّفق عليه. وبينما كان في انتظار من يأتي لمرافقتهم إلى الحفل، حضر ابن بوبس ليطلب من الفرقة أن يتهيّأوا للذهاب مع المغنّي أحمد محبّك ليعزفوا معه بدلًا من صباح، طاعنًا في الاتّفاق المسبق. وكردّ فعل طبيعي، توقّف أعضاء الفرقة ينتظرون رأي صباح، الذي التفت إلى ابن بوبس قائلًا بهدوء اصطنعه، وببرودة أعصاب أخفت ما يغلي في صدره: «إنّني أنتظر أصحاب الشأن الذين استدعوني وفرقتي». وكأنّه بجوابه يقلّل من شأن الشاب المغرور الذي احتدّ غضبه، فرفع يده على صباح ليضربه، وفعل. لم يكن صباح ممّن يتخاذلون في الملمّات، أو يتقبّل الإهانات، فمدّ يده بسرعة البرق ليختطف كرسيًّا كان يستند إليه، ويهوي به على الشاب الذي اعتدى عليه، والذي بدوره خلا بنفسه مسهّلًا الطريق للكرسي ليصيب الرجل البريء الواقف خلفه، محمد قماز، بجراح. واحتدمت المعركة مع البوبس حتّى تدخل الموجودون ليخلّصوه من بين يدَي صباح الغاضب. فيما اضطر بعدها أن يحمل الرجل المصاب إلى أقرب مستشفى ليضمّد جراحه. وفي اليوم التالي، أُجري الضبط عند النائب العام، الذي أبدى تعاونًا مع صباح فخري، وأوقف ابن بوبس، حتّى تنازل صباح عن القضية.

ويروى عن كامل البصّال، وهو من كورال فرقة صباح، أنّه قال: «لا تمزحوا مع صباح، إيده تقيلة».

في مسبح حلب الصيفي

وكما ذكرنا، ليس كل ما في الفنّ عزف وغناء ومرح. إنّه لا يخلو من العثرات والأشواك. مشادّة أخرى حدثت في مسبح حلب الصيفي، حيث كان كرام العائلات ومحبّو الطرب

يقضون أجمل السهرات. حدث أنّ الشيف الذي اعتاد أن يجلب المشروب (العرق) من عند خليل كعدة، جاء به من مصدر آخر، ما أثار حنق كعدة وغضبه. فأتى إلى الملهى متذمّرًا، وفي نيّته التشويش على أجواء الليلة الجميلة التي ينتظرها روّاد المكان. وبينما كان صباح يغنّي، إذ بخليل كعدة يرفع صوته بالشتائم البذيئة على الحفلة وأصحابها. حاول المطرب أن يتدارك المشكلة، بأن أرسل له مع النادل خمسمائة ليرة سورية تعويضًا له عن المشروب المتّفق عليه، ولكن ذلك لم يزده إلّا غضبًا، فاستمرّ في شتائمه على أصحاب الحفلة، وعلى المغني. هنا لم يتمالك صباح نفسه، وقد انتابته فورة دم عارمة؛ فرمى بالمذياع، ونزل عن المسرح، وألقى بجسمه على خليل ليعلقا في عراك هبّ فيه الحاضرون لنجدة صباح ومؤازرته. حتّى احتمى السيّد كعدة بأحد الحاضرين، الرائد معن شيشكلي، وهو دامي الرأس، فما كان من الأخير إلّا أن تدخّل ليصلح بين الاثنين. واستمرّت الحفلة بعد أن صعد صباح إلى المسرح، وقال الكلمة الساحرة عند أهالي حلب: «هلق جينا». فضجّ المكان بالتصفيق والهتافات المعهودة.

كانت تلك من نوادر السهرات التي اضطرّ فيها صباح لاستخدام عضلاته، من دون أن تكون هناك رغبة منه بذلك. وقرّر منذ ذلك الحين أن يتجنّب الدخول في مشادات لا تخدم فنّه، فكان لا بدّ من وجود أشخاص يرافقونه للحماية (bodyguards).

حادثة أخرى يذكرها فنّاننا العريق، وقد عاد إلى الغناء تحت اسم صباح فخري؛ كان من عادته أن يجالس معارفه في فترة الاستراحة خلال الحفلات. وبينما هو على إحدى الطاولات يتسامر مع جلّاسها، يتقدّم منه أحد الحاضرين من طاولة بعيدة، ليدعوه إلى مجالسته، فهزّ صباح له رأسه بالموافقة، وأكمل جلسته مع أصحابه. ولمّا تأخّر عنه، عاد الرجل إليه، وأمسك بيده ليأخذه إلى طاولته، فالتفت إليه قائلًا:

— انت بتعرف عربي؟

أجاب:

— طبعًا.

— إذًا اترك إيدي وروح لمكانك.

وردّه إلى طاولته بلهجة لم يعتد عليها زبون مرموق مثله، كان يتخيّل أنّه يستطيع أن يأمر وينهي على من يريد.



عندما يأتي ذكر كلمة السبيل أمامي، كأيّ فرد من أهالي حلب، تطوف في ذهني صورة حديقة جميلة كانت تتوسّط أجمل أحياء المدينة. لها في وجدان كلّ حلبيّ ذكرى نزهة، أو لقاء، أو حفلة طرب في جنانها صيفًا، وضمن مبناها الداخلي شتاءً.

أمّا صباح فخري، فيعني له منتزه السبيل الكثير...

إنّه المنتزه الذي كان يقيم فيه حفلاته. تقصده العائلات الراقية نهارًا لتنفّس الهواء العليل. ومساءً للترويح عن النفس في سماع الطرب الأصيل، وتذوّق الطعام اللذيذ.

في الخمسينيّات، استثمر نادي منتزه السبيل الشتوي السيدان أبو جارو ووانيس. وقد اشتهرا بخبرتهما في إدارة المطاعم وتشغيلها. واختارا صباح ليكون نجم السهرات الجميلة. أبدع ملك الغناء مستقطبًا جمهورًا من هواة الطرب. فقاما، إثر ذلك، بتوسيع المكان ليستوعب توافدَ عدد أكبر من الروّاد. فطلب صباح، في المقابل، زيادة أجره من 600 ليرة إلى 800. فذهبا عندها إلى من سُمّي حينها بـ«شيخ الصنعة»، ودود مغربية، ليستشيراه في جدوى رفع الأجر إلى هذا الحدّ، فأشار عليهما بإيقاف هذا المطرب عن العمل، حتّى يضطرّاه إلى تخفيض المبلغ.

ولكن صباح لم يخضع لمثل هذا الابتزاز الرخيص، فقد كانت كرامته دومًا تأبى عليه أن يتراجع، وأصرّ على طلبه. فأتيا بمطربين غيره مدّة غير قليلة من الزمن، لم يتمكّنا خلالها من جلب الزبائن، ما أجبر المالكَين على أن يدفعا له الأجر الذي طلبه مرغمَين. يمكننا القول إنّه رفع حينها سقف الدخل الذي يناله بجدارة. وغصّ المكان بعدها بالرواد وذوّاقة الطرب الأصيل كالعادة.



في حديقة السبيل.



مع جورج أبو كارو والمخرج الإذاعي ماجد اسبير.

سهرة الحمام



العازفون من اليسار: عبد الحميد تناري (كمان)، جوزيف طاشجيان (كمان)، علي واعظ (قانون)، ابراهيم جودت (عود)، عدنان أبو الشامات (كونترباص)، مصطفى بصال (كورس)، جوزيف توما (كورس)، محمد ناشي عساني (كورس).

حادثة يذكرها كلّ من حضر تلك السهرة المميّزة في السبيل، ويرويها كثيرون من أهالي حلب. إنّها واحدة من السهرات الحلبية التي بلغ فيها التجلّي، بين صباح وجمهوره، قمّةَ التألّق والانسجام. استمرّت، كالمعتاد في كثير من حفلاته، حتّى الصباح. ولكن ما لم يكن من المعتاد هو أنّ العصافير بعد الفجر، وقد حان موعد استيقاظها، غادرت أعشاشها في أشجار المنتزه، واقتربت من المسرح تحوم حوله، بزقزقة مستمرّة ترافق المعزوفات، بل ويعلو صوتها على صوت الفرقة الموسيقية. واستمرّت الحفلة يومها حتّى السابعة صباحًا.

ومن قال إنّ الطيور لا تُطرَب! كلّ ما في الكون يعشق النغم، ويحبّ الموسيقى. ما أجمل أصوات العصافير والشحارير والبلابل. إنّ الصوت الجميل يجلب السعادة والارتياح لكلّ المخلوقات، ومحظوظٌ من يملك موهبة جمال الصوت والأداء المطرِب، سبحان الله!

خارج إذاعة حلب

ألّف عزيز غنام «اسكتش»، من بطولة كنعان وصفي والسيّدة مها الجابري. وأُعطي كلّ مطرب دورًا فيه. وكان نصيب صباح فخري منه جملةً صغيرة في كلّ الاسكتش، ما اعتبره انتقاصًا من حقّه في أن يكون له دور أكبر، فلم يغنِّه.

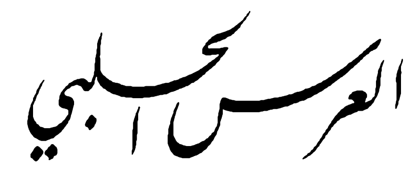
التفت إليه الأستاذ غنّام متسائلًا: «لماذا لا تغنّي دورك؟»، فأجابه بكلّ احترام: «صوتي لا يؤدّي هذه الجملة». فقال عادل خيّاطة[1]، مساندًا غضب عزيز غنّام: «ما دمتَ غير قادر على تأديتها، فأنت غير صالح للإذاعة».

كان ردّ فعل صباح السريع إجابتَه بسؤال: «إن كنتُ غير صالحٍ للإذاعة، لماذا جئتني إلى نادي السعد، وطلبتني للإذاعة؟».

وانقلب مغادرًا مبنى الإذاعة بغضب وعتب واضحَين، ممّا حدا بالأستاذ بهجت حسان، وبعض الزملاء الآخرين أن يلحقوا به محاولين إعادته. ولكنّه خرج ولم يعد، حتّى... حتّى آن الأوان.

---

[1] عادل خيّاطة: واحد من كبار المذيعين السوريين، ومن أجملهم صوتًا، مثلما كان الأستاذ خلدون المالح. خلافه مع صباح كان لمرحلة قصيرة، وهذا رأي صباح فيه، وقد اختير في ولادة الجمهورية العربية المتحدة، ليذيع أهم خبر في تاريخ العرب الحديث، ألا وهو «ميثاق الوحدة».
وتُحكى عنه طرفة، أنّه عندما تمّ تقديمه للرئيس جمال عبد الناصر على أنّه الذي سيذيع ميثاق الوحدة، حيّاه قائلًا بثأثأة معروفة عنه: «سسسسيادددة الررئيس».
صُعق الرئيس جمال، وقال: «هو ده اللي حيزيع الميثاق!؟».
ولكن عادل أجاد كالعادة في قراءته النصَّ صوتًا وتعبيرًا، بغياب للثأثأة التي لا يعانيها عندما يقرأ نشرة الأخبار، أو أيّ مادة أخرى.



لكلّ مدينة تقاليدها وخصوصيّاتها في احتفالات العرس، التي تحمل في طيّاتها تراثًا مميّزًا من عادات يمارسها المحتفلون، أغان وأهازيج، رقصات، أطعمة وحلويات وشراب. اندثر بعضها مع الوقت، وما زال منها قليل حتّى يومنا هذا.

ولا شك في أنّ لحلب خصوصيّتها في أعراسها؛ من الطليبة، التشكّر، الخطبة مع الجاهة، إلى كتب الكتاب (عقد القِران)، إلى الأهازيج التي يردّدها الحلبيون حتّى اليوم في أعراسهم. بينما اختفت تقاليد الحنّة، والتلبيسة، والزفّة الأصلية، لتُستبدَل بعادات غربيّة طغت على كلّ احتفالاتنا، تاركة مساحة صغيرة للزغاريد (الزلغوطة)، وللأهزوجة الحلبية (الشدّية) والتي تقول:

الله اللي ساوا دوز دوز والجبي...
صلوا على محمد...
والزين زين...
مكحول العين...
والعاذلة...
الله عليه...

ارتأى الأستاذ سليم قطاية أن يقدّم نموذجًا غنائيًا عن العرس الحلبي في دمشق، فجمع له خيرة المطربين والمطربات الحلبيين، وعلى رأسهم صباح، ليجروا تدريبًا (بروفة) قبل السفر إلى دمشق.

وبالمصادفة، حضر البروفة الأستاذ ممدوح الجابري الذي دخل عليهم بأناقته الواضحة المتجلّية ببذلته الجميلة، وطربوشه المكوي، وعقدة الرقبة المميّزة. جذب انتباهه أداءُ صباح البديع، فأرسل إليه مبديًا رغبته في الحديث معه، حيث بادره بالسؤال:

— لماذا لا نسمعك في إذاعة حلب؟

أجاب صباح مبديًا رفضه:



من طقوس العرس الحلبي: الحمام.

— لن أعود بوجود عادل خيّاطة مديرًا هناك، لأنه لم يفِ بالتزاماته معي، ولم يكلّفني بحفلة للإذاعة كما وعدني.

فالتفت ممدوح مندهشًا، وقال:

— أين عادل خيّاطة؟ إنّه في دمشق، ولم يعد مديرًا لإذاعة حلب، ومكانك هناك محفوظ.

وهكذا عاد الأصيل مجبور الخاطر، معزّزًا ومكرّمًا. وأصبح كالساعد الأيمن للأستاذ ممدوح، وكمستشاره الفنّي في اختبار المطربين المتقدّمين للجنة الفاحصة للغناء في الإذاعة من حيث الصوت، واللفظ، واللغة العربية. وذلك لخبرة صباح في التجويد والشعر والغناء.

وقد مرّ على اللجنة الكثيرون ممن رغبوا في الغناء الإذاعي. ومنهم الفنّان فهد بلّان الذي لم تختره اللجنة آنذاك. ولكنّها اختارت له أغنيّة قدّمتها إذاعة حلب، غادر بعدها إلى دمشق.

حَلَبْ وَعَبْدُ النّاصِر

1958

أظنُّ، ولا أجزم، أنّه ما من مدينة أحبّت جمال عبد الناصر كما أحبّته حلب. وكان أهاليها من أشدّ المتحمّسين للوحدة، ولتولّي ناصر رئاسة جمهورية الحلم العربي، الساكن في قلوب ووجدان كلّ مؤمن بالعروبة، ومخلص للوطن.[1]

في 24 آذار عام 1958، حطّت طائرة خاصّة في مطار حلب، على متنها الزعيم جمال عبد الناصر، في أوّل زيارة له للمدينة التي عشقته، برفقة الرئيس شكري القوتلي. وبلا موعد، سرى خبر الزيارة التاريخية، فاحتشدت الجماهير بحبّ عارم على طول الطريق الذي سار فيه موكبه. خرج الناس يومها من منازلهم ليشاركوا في هذا الحدث العظيم، بعفويّة خالصة، وبعاطفة صادقة غمرت أجواء حلب وقلوب أهلها. حيّت الجماهير يومها الرئيسين اللذين أطلّا من على شرفة قصر المحافظة، وقد أمسك كلّ منهما يد الآخر مرفوعة، في مشهد يحكي شموخ الوحدة وعزّتها.

أمّا اللقاء الثاني لحلب مع زعيم الأمة، فقد كان في احتفالات الوحدة في شباط عام 1959، برفقة الرئيس جوزيف تيتو رئيس يوغوسلافيا، والأمير البدر ولي عهد اليمن.

كانت حشود الجماهير الحلبيّة، تحكي حبًّا استثنائيًا لزعيم استثنائي. في هذه المرّة زار الرئيس وضيوفه قلعة حلب التاريخية. ثمّ عكف جمال عبد الناصر والأمير البدر إلى الجامع الأموي الكبير ليؤدّيا صلاة الجمعة. وكان التكريم الذي أحبّ أهالي حلب أن يقدّموه للزائر الكبير، أن يؤذّن للصلاة صباح فخري. وفي ذلك شرف كبير لمطرب حلب، وهدية لجمال عبد الناصر.

لم يكن صباح مختلفًا في مشاعره الوطنية عن كافة الحلبيين. وقد ساهم في إنشاء جامع الكلّاسة، الذي سُمِّي بجامع جمال عبد الناصر.

---

[1] كان للتأميم غير المدروس أيّام الوحدة، تأثيرًا سلبيًا في عشق جماهير حلب لجمال عبد الناصر، خصوصًا من تضرّرَ بتأميم معامله وأراضيه (جلّ من لا يخطئ). ولكن، بقيت شعبيته كاسحة لدى الجمهور الحلبي.



الوطن

قدوم عبد الناصر يهز حلب فتزحف للتحية

الرئيس عبد الناصر يصل حلب فجأة مع الرئيس القوتلي

كانت فكرة إنشاء جامع تعيش في ذهنه منذ نعومة أظفاره، وتداعب مخيّلته دومًا. ولم تغب عن تفكيره، حتّى سنحت له الفرصة في طرحها على السيّد سليمان النسر، مدير أوقاف مدينة حلب في الستّينات، فرحّب الأخير بالفكرة، خصوصًا أنّه اقترح تسميته بجامع جمال عبد الناصر، حيث كان في قمّة شعبيّته وكان تعلّق الشعب السوري به، والحلبي على وجه الخصوص، في أوجّه. تبلورت الفكرة بمساعدة السيّد النسر الجدّية، ودخلت حيّز التنفيذ بمساهمة المتبرّعين من أهل الخير وتجّار حلب الأوفياء، وبدعم من الدولة والمحافظة. وقد تبرّع السيّد سليمان النسر بالسجّاد الذي يفترش مكتبه، كما تبرّع مهندس الصوت السيّد سكّر بأجهزة الصوت ومكبّراته للجامع المذكور.

وقد حرص صباح على أن يكون جامعًا مستوفيًا الشروط الجمالية والصحّية، وأن يؤمّن للمصلّين وسائل راحتهم، وسبل تشجيعهم على ارتياده. فوفّر لهم عشرة حمامات، وأماكن للوضوء، وخزائن للأحذيّة.



عبد الناصر يخاطب حلب (1960).

وقد كُرّم بالأذان في هذا الجامع مدّة من الزمن، هاويًا ومحبًّا، محافظًا على نظافته وترتيبه وجماله.

ترك الأذانَ في جامع جمال عبد الناصر عندما طُلب منه أن يجوّق لأحد وجهاء آل قباني، الذي توفّي وصُلّي عليه في الجامع. فالتجويق يكون لعالِم من علماء الدين، إذ يعلن عن الوفاة في مآذن الجوامع. أمّا الأشخاص العاديون، حتّى لو كانوا من الميسورين، فيُصلّى عليهم، وتُقام لهم الطقوس المتّفق عليها عند كلّ الناس.

رفض صباح أن يقوم بعمل يوحي بالتزلّف، فاستشاطوا منه غضبًا، وتوعّدوه مهدّدين. فاضطُرّ إلى طلب نقله من مدير أوقاف حلب الذي عيّنه في جامع «بيش قبّة»، أي ذي القباب

الخمس، في منطقة خان الحرير. كان يؤذّن فيه ثلاثة أوقات فقط. وقد أُعجب أهالي الحيّ بالأذان، وطلبوا منه أن يؤذّن في كلّ الأوقات مقابل مضاعفة الراتب، فوعدهم خيرًا.

ومن أسباب تردّده أنّه كان قد بدأ الغناء في الحفلات الخاصة، وازداد إقبال الناس على طلبه لإحياء سهراتهم وحفلاتهم وأعراسهم. ولم يعد باستطاعته أن يؤذّن ثلاثة أوقات، فطلب نقله إلى جامع يؤذّن فيه لوقتين فقط. وكان له ذلك بأن نُقل إلى جامع بشير باشا بالجديدة.

هناك، كان أهالي الحي حريصين على سماع الأذان في أوقاته. حتّى أنّ كثيرين من إخواننا المسيحيين سكّان الجديدة، كانوا يحرصون على التوقّف قرب الجامع وقت الأذان لسماع صوت المؤذّن الجميل، مردّدين كلمة الله.

مع الوقت، توسّعت دائرة حفلاته أكثر وأكثر. فكان لا بدّ له من أن يتوقّف عن الأذان نهائيًّا. وبقيت صداقته مع السيّد سليمان النسر متينة على الدوام.

يذُكر المرء بأعماله، وقد كان لهذا الإنسان الكبير، السيّد سليمان النسر، فضلٌ في مساعدة كبار الفنّانين الحلبيين بعد انقطاعهم عن الغناء، حين عيّنهم كمؤذّنين في جوامع حلب المختلفة. وبذلك أمتع أهالي حلب بأجمل الأذان من أصوات رخيمة، وفي الوقت ذاته حمى الفنّانين من الفاقة والحاجة. فلم تكن لهم في تلك الأيام نقابات تحمل همومهم، إضافة إلى كبريائهم الذي يمنعهم من مدِّ اليد إلى الأهل والأصدقاء. أهم مثال على ذلك: بكري الكردي في الجامع الأموي الكبير، أسعد سالم في جامع باب الفرج، أبو كامل محمد النصّار في جامع السبيل، ومصطفى الطرّاب في جامع بنقوسة.

هؤلاء كانوا من أعلام الطرب في مدينة حلب، وكانت أجورهم تُدفع بالليرات الذهبية. فحفظ لهم هذا الإنسان - من موقعه كمدير لأوقاف حلب - كرامتهم، بأن أمّن لهم دخلًا شريفًا من مهنة كريمة تقيهم من العوز. لا تُنسى لهذا الرجل أياديه البيضاء خلال وظيفته كمدير للأوقاف، كذلك خلال ممارسته مهنة المحاماة.

خُطْوَةٌ.. خُطْوَة عَلَى طَرِيقِ المَجْد

لمدينة حلب أبعادها التراثية والثقافية التي تغوص في أعماق التاريخ، وتحلّق في سماء الفنّ والأدب. وهي نبع الموسيقى الأصيلة، ومقياس عراقتها. ولكن لدمشق العاصمة، قيمتها في إظهار المواهب ونشرها.

وقد عاش الإعلام أوجّه أيّام الوحدة مع مصر التي كانت سبّاقة في مضمار السينما والإذاعة.

وفي الزمن الجميل للجمهورية العربية المتّحدة، أُعلن عن افتتاح بثّ تلفزيوني في كلّ من القاهرة ودمشق، في آنٍ واحد، يوم 23 تموز من العام 1960. وكان المدير العام وقتذاك الأستاذ صباح قبّاني.

كلّف الأستاذ قبّاني السيّد غالب طيفور بالاتّصال بصباح فخري ليشارك في افتتاح تلفزيون الجمهورية العربية المتّحدة من دمشق. إذ كانت مهمّة صباح قبّاني البحث عن الوجوه والمواهب الصالحة تلفزيونيًّا. وبعد جمع الأصوات، خضع صباح فخري كغيره لامتحان الصورة وصلاحيّتها للتلفزيون، ونال يومها إعجاب اللجان الفاحصة صوتًا وصورة.

كمنَت الصعوبة في أنّ البرامج كانت تبثّ مباشرة، بدون تسجيل. ولكنها لم تشكّل أيّة مشكلة لمن عُجن بالغناء والموسيقى كصباح فخري. ونجح صباح وتميّز في أدائه أغنية نجاح سلام «يا جارحة قلبي»، التي وضع إبراهيم جودت لها مقدّمة موسيقية جديدة، ميّزتها عن أغنية نجاح سلام نفسها.

ومن البرامج التي ظهر فيها صباح على تلفزيون دمشق: «الله يمسّيكن بالخير»، و«سهرة دمشق»، و«خيمة حمّاد». وقد غنّى في خيمة حمّاد مع المطربة الشحرورة صباح التي أُعجبت به كوجه جديد، وصوت رائع في عالم الغناء الأصيل، وسألته: «لماذا لا تأتي إلى لبنان، ليسمعك الجمهور اللبناني؟».

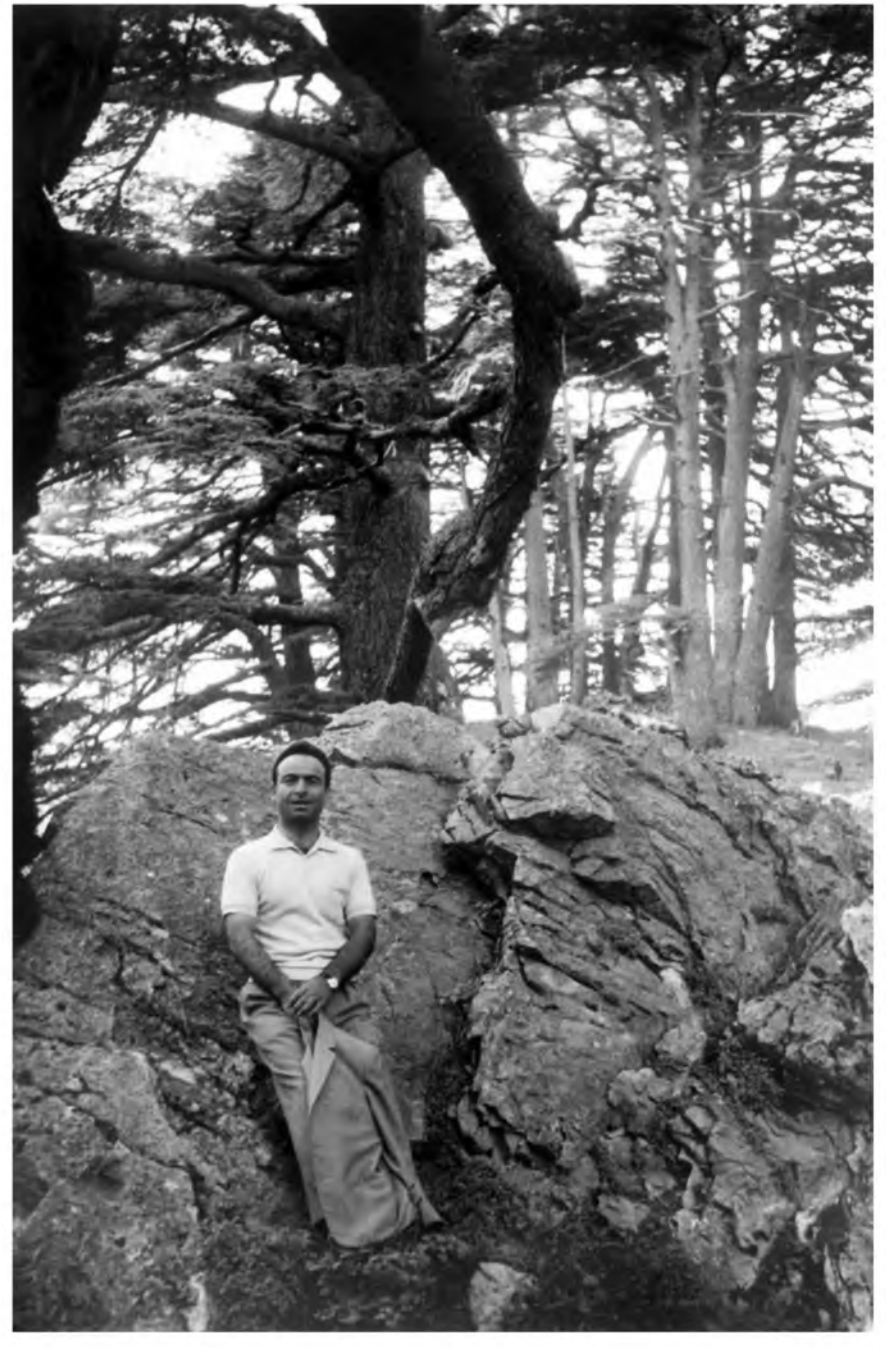
ولا يخفي صباح فخري إعجابه بالشحرورة، وبصوتها الجبلي القادر، وبمظهرها المتألّق، وبأنوثتها الطاغية.




صباح فخري والشحرورة صباح في «خيمة حمّاد».

«خيمة حمّاد» كان من البرامج التي جذبت المشاهدين، وقد قدّم حمّاد ضيفه بطريقة الحزورة، إذ قال باللهجة البدوية:

هالدنيا الله خلقلها صباح واحد
إلّا بهالليلة عنّا صباحين
صوت جميل، وفنّ ممزوج بطرب...
مغنى جميل وأصله من بلاد العرب...
يسبح خيالك في بلاد الأندلس...
والأصل من بلادي من مدينة حلب...
— عرفتوها...؟
— ما عرفناها...
— عرفتوها...؟
— عجزنا... يا حمّاد...
— اسمه
فنّان نطلبله من الله النجاح...
لا يعتمد عالشوبرة وكتر الصياح...
فخري أفندي لقبه، واسمه صباح...
صوته يجينا بفنّ جدودنا...
هو اللي طعماني القراصيّة...
والله طعماني القراصيّة...



أرز لبنان (نحو العام 1965).

كان تقديمًا موفّقًا، غنّى بعده صباح:

أيّها الساقي إليك المشتكى
قد دعوناك وإن لم تسمع
يا لا لا... يا ليبيل... آه يا لا لا للي
ونديم همت في غرّته
وبشرب الراح من راحته
كلّما استيقظ من سكرته
جذب الزقّ إليه واتّكى
وسقاني أربعًا في أربع
يا لا لا... يا ليبيل آه يا لا لا لي
ما لعيني عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر

وفي سهرة دمشق، قدّم:

سلوا فؤادي سلوه فهو يخبركم
عنّي ما غبتم إذ فيه محضركم
أيا بدورًا أنار الكون مظهركم
لولا تعلّل قلبي حين أنظركم
ووضع كفّي عليه جنّ أو طار
لو شاب دمعي بحار الأرض أغرقها
من مقلة حرّ نار الوجد أرّقها
والحبّ فتّت أحشائي ومزّقها
لو قربوا النار من قلبي لأحرقها
فهل سمعتم بقلب أحرق النار

يستتبع الموّال بالقدود الحلبية:

والنبي يمّا تعذريني وتأنّي عليّ
حبّ حبيبي شاغلني لاني رايحة ولا جاية
والنبي يمّا

ثمّ:

مالك يا حلوة مالك؟

تليها:

يا مال الشام ويالله يا مالي
طال المطال يا حلوة تعالي

طارت مال الشام بصباح، وكأنّه من ابتدعها... وحطّت به المليحة في قلوب مليحات العرب. وصارت الليالي بأدائه منارة العشاق وأهل الطرب.

توَّج صباح الموّالَ في مكانة ما طالها غيره. قدّم للناس القراصيّة بأنامل مختلفة حتّى عن جهابذة الطرب في حلب.

وهذا ما فعله بدمّر والهامة. وارتفع صباح بمستوى الأغنية الشعبيّة المتداولة، فجاورت القصيدة.

أرضى صباح فخري، منذ بداياته، الجماهير على اختلاف أذواقهم؛ الموشّح، الدور، القدّ، الموّال، الليالي، القصيدة، الشرقاوي، الدارج، اللهجات العربية...

في الستّينات، كنّا أمام عملاق شابّ، فنّان صاعد, صارت له بصمته الواضحة التي سنرى تأثيرها في مجرى الموسيقى العربيّة، وهو في هذه السنّ المبكرة.

بدا صباح على شاشة التلفاز هادئًا، وقورًا، واثقًا من نفسه، ومن صوته، ومن أدائه، ومن جمهوره... تخرج الجملة الموسيقيّة من حنجرته بنغمة موزونة، تقفز بين السلالم أعلاها وأخفضها، ترافقها الكلمة الجميلة بلفظ صحيح لا يشوبه لحن ولا لغط، بدون أن يشعر المشاهد والسامع بجهد مضنٍ، بل ينساب الصوت البديع براحة لينفذ من الأذن إلى القلب كبلسمٍ للروح.

لقد أثبت صباح تميّزه. ورسم شخصيته الفنّية. وبدأ بالانتشار عبر الفضاء، ليصل حيث وصلت الشاشة الفضيّة السورية.

ولكنّ طموحات هذا الشابّ العصامي ابن القصيلة، لم تقف عند هذا الحد. بل كان لا بدّ له من الانتشار خارج أسوار حلب ودمشق. ومشى صاحبنا على طريق المجد بتؤدة.





استديو التلفزيون السوري في برنامج «مع الموسيقى العربية» مع بعض الأصدقاء.



كازينو الشاطئ الأزرق، اللاذقية. إلى يسار صباح: كامل بصال خلفه محمد ناشي؛
إلى يمينه: عبد الحميد تناري ورمضان حايك (1962).



كازينو الشاطئ الأزرق (1962): صباح، جبرائيل سعادة، حسن بصال، عبد القادر تونونجي.



مع المطربة دلال الشمالي في أوائل الستّينات.



اللاذقية (1960). القانون: محمد الصابوني، الكورس: عمر خانطوماني (يسار)، محمد ناشي (وسط)، حسين فحام (يمين).



في سيّارة الأوبل (1966).

زواجه الأوّل

كان زواجه الأوّل وهو في الثلاثين من عمره، من السيّدة عليّة الإدلبي طليقة أخيه بعد مرضه، إذ أصيب بفالج أعاق حركته لمدّة طويلة. راح صباح خلالها يرعاه ويقوم بالإشراف على طبابته، يحمله إلى الطبيب والمعالجة الفيزيائيّة، ويساعده في قضاء حاجاته في بيته، ويقدّم العون لزوجته وأطفاله. كان محبًّا لأخيه الذي يكبره سنًّا، وحزينًا لمرضه الذي أقعده واضطره إلى أن يطلّق زوجته، تاركًا لها ثلاثة أولاد لتعيلهم، وقد عجز عن العمل.

عندها ذهب صباح إلى أخيها قائلًا: «إنني أتقدّم إليك لأتزوّج أختك عليّة، فأنا الأَولى، بتربية أولاد أخي وإعالتهم، من الغريب». عارضت والدته الأمر في البداية، لأنّها مطلّقة أخيه، ولكن... كان له ما أراد. فربّى أولاد أخيه: عبد الحسيب، وإلهام، ومنى.

وكانت عليّة الإدلبي سيّدة فاضلة، عاشت معه سبع سنوات وأنجبت له ثلاثة أبناء. بينما كان صباح منخرطًا في غمرة أجواء الفنّ، كثير الحفلات، والسهرات، والسفر.

ولم تعتد أمّ محمد على أجواء الفنّ، وحياة الفنّان طيلة مدّة زواجها. لكنّ هذا لم يمنع صباح من أن يلتزم ببرامجه الفنّية، وأن يعطيها حقّها.

جاء المخاض السيّدة عليّة الإدلبي في حلب، بينما كان صباح في جولة فنّية في سورية. حلَّت والدته، السيّدة عليّة القدسي، مكانه إلى جانبها في الولادة، حيث كان مخاضها عسيرًا، أنجبت بعده محمّد، بكر صباح.

فوجئ صباح بأوّل مولود له، وانتابه فرح عارم يعرفه كلّ الآباء حين يُبشَّرون بمجيء الخليفة الذكر. وكما جرت العادة في المجتمعات الحلبية، سمّاه صباح «محمّد»، على اسم جدّه الشيخ محمّد أبو قوس (وخير الأسماء ما حُمِّد وعُبِّد).

أما ولده الثاني، الذي أتى إلى الدنيا في الثامن من آذار عام 1966، فقد أطلق عليه اسم «عمر»، كجدّه الثاني لوالدته. كذلك كانت ولادته في غياب صباح.

وولد ثالث أولاده عام 1967، وقد سمّاه «طريف» محبّة بالاسم ومعناه.



أوبريت «كليلة ودمنة» مع وزارة الثقافة على مسرح المعرض (1966).

الصفحة المقابلة: مع الزميلة ناديا شموس.





زيارة وفد الصداقة للاتحاد السوفييتي (1966).



عزف على العود خلال حفل في موسكو (1966).

حرب ١٩٦٧

في صباح الخامس من حزيران من عام ألف وتسعمئة وسبعة وستّين، استيقظ أهالي حلب، كما في باقي المدن السورية، على أخبار اندلاع شرارة الحرب المنتظرة مع إسرائيل. تسمّر الناس أمام أجهزة الراديو، ليتلقّفوا أخبار المعارك والجيوش. دبّ الحماس في دم كلّ مواطن سوري وعربي، وبات الترقّب مرجلًا يسخّن المشاعر الدفينة التي تراكمت على مدى السنين، في انتظار حرب تحرير تزيل جسمًا دخيلًا، وسرطانًا خبيثًا زُرِع في فلسطين قسرًا. غلت الدماء في عروق الشباب الشجاع المتحمّس، ليلقي كلّ بنفسه في الميدان الذي يؤدّي فيه واجبه تجاه الوطن.

وهكذا استنفر صباح فخري، مع رفاقه الفنّانين والإعلاميين المتواجدين في إذاعة حلب، قواهَم. اجتمعوا في صالون الإذاعة، ليشارك كلّ منهم، على طريقته، في دعم القوّات المقاتلة، ورفع معنويات الشعب والجيش. وكان اقتراح صباح أن يُسمح له باستخدام المذياع في أوقات الصلاة، ثمّ فاجأ الجميع بأذانٍ رفعه بصوته السماوي القويّ الجميل: «الله أكبر... الله أكبر... حيّ على الجهاد... حيّ على الجهاد...»، فأبكى من سمعه في الإذاعة وخارجها.

واستمرّ هذ الأذان في أوقاته الخمسة طيلة فترة الحرب. فالتهبت العواطف، واستبسل الناس في التطوّع للمشاركة في المعارك المصيرية.

ثمّ بدأ بإعداد قصيدة وطنية من ألحان إبراهيم جودت، تمّ تحضيرها بسرعة يستوجبها الظرف القاهر. وُحشد لها الكادر الفنّي من عازفين ومردّدين في صالون الإذاعة، وليس في استديو، وكان بثّها مباشرًا من إذاعة حلب:

وطني ونذرت له العهدا — بدمي وبذلت له الجهدا
أقسمت له قلبًا ودما — ليكون المجد له عقدا
وطني حبّ يسري بدمي — وطني عنوان للشمم
وطني يا نبراس الأمم — إنّي أخلصت لك الوعدا
الوحدة تُدرك بالعمل — بنضال حرّ مشتعل



يا مشعلنا منذ الأزل	كنّا ونظل لها الجندا
أبشر بالنصر أيا عربي	فالأرض لنا رغم النوب
سنحطّم كيد المغتصب	وسنصدق للوطن العهدا»

وكان الحماس على أشدّه. والتفاف الشعب مع القيادة لا تشوبه شائبة. ولكنّ مباغتة الضربة الأولى، وسقوط الجبهة المصرية التي تلاها سقوط القنيطرة، وإعلانَ وقف الحرب، كانت نكسة لآمال الشعوب التوّاقة لإنهاء الاحتلال الغاشم، وتكريسًا لاحتلال مزيد من الأراضي العربية، لتنشغل المنطقة في مشاريع حروب لن تنتهي حتّى تحقيق الاستقلال التام.



1968

كان صباح يستريح في منزله الكائن قرب فندق الميريديان في حلب، عندما رنّ جرس الهاتف. وإذ بمكالمة من خارج القطر، وعلى الخطّ رجل يطلب الأستاذ صباح فخري. ما أن قال صباح: «ألو...»، حتّى خاطبه المتكلّم من الطرف الآخر مداعبًا باللهجة الحلبية: «خيّو مرحبا، إش في ما في؟ أنا نجيب حنكش من لبنان، بدنا ياك مشان برنامجي عالقناة سبعة، وبيسعدني تشريفك على التلفزيون اللبناني في تلّة الخياط».

لاقت الدعوة ترحيبًا من الأستاذ صباح، فقد كان يرحّب بكلّ انطلاقة خارج القُطر، تفتح له آفاقًا جديدة، وتتيح له الإطلالة أمام جمهور أوسع. وفعلًا لبّى الدعوة قاصدًا فندق «شتورا بارك»، هناك كان الأستاذ نجيب حنكش في استقباله، مرحّبًا. أمسك «ظريف لبنان» - وهو اللقب الذي أطلقه أنيس فريحة، رئيس تحرير مجلّة الصيّاد، على نجيب حنكش - بيد ضيفه، لينتقل به من الصالة الرئيسة إلى أخرى. هناك فوجئ بوجود الأستاذ محمد عبد الوهاب فيها، فاقترب منه محيّيًا بحرارة تليق بأمثاله، وقابله عبد الوهاب بمثلها. وبمداعبته المعهودة، بادر الموسيقار الكبير بالسؤال: «إنت أمّك مصرية؟»، فأجابه بالنفي مبتسمًا، وكأنّه أدرك أنّ عبد الوهاب أراد أن يعزو سبب تميّز صباح الفنّي لأصولٍ مصرية، متناسيًا، بحسن نيّة، أنّ حلب كانت مختبر الأصوات الجميلة، والطرب الأصيل. مع كلّ التقدير لمصر العريقة التي احتضنت الفنّ والفنّانين.

كان هذا أوّل لقاءٍ شخصي بين عملاق الطرب صباح فخري، وبين الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب. لم يتقابلا بعدها حتّى السبعينات، حيث كان عبد الوهاب يتردّد على فندق «بلودان الكبير» كلّ صيف، مدعوًّا من توفيق حبّوباتي، المستثمر للفندق ولنادي الشرق لسنوات طوال. فمن المعروف أنّ بلدة بلودان كانت مصيفًا ومقصدًا لكبار الشخصيّات العامة، والمجتمع المتميّز، وكانت تُقام فيها الحفلات الرسميّة التي ضمّت رؤساء وملوكًا ممّن استضافتهم سورية.



نجيب حنكش.

بالعودة إلى نجيب حنكش، الذي كان يقدّم برامج منوّعات يستضيف فيها فنّانات وفنّانين، وكان من عادته أن يقدّم ضيفه أو ضيفته، بقوله: «أقدّم لكم المغنيّة فلانة، أو المغنّي فلان. اسمعوها على مسؤوليّتها، أو اسمعوه على مسؤوليّته». ولكنّه، في الحلقة التي استضاف فيها صباح فخري، قال: «أقدّم لكم المطرب صباح فخري، على مسؤوليّتي». وغنّى صباح كالعادة. وكان لظهوره في هذا البرنامج صدًى كبير، ما جعل الصحافة الفنّية تتناول الخبر بإعجاب. كمجلّة الشبكة، التي خصّصت من صفحاتها جزءًا للتعليق على المطرب الذي نال إعجاب الجمهور، كما كتب جورج إبراهيم الخوري أنه لا يدري كيف يؤدّي صباح فخري أصعب الأدوار من دون أن يبذل جهدًا ملحوظًا. وضجّت صحف أهل الفنّ في لبنان بالحديث عن هذا المطرب ذي الصوت البديع القادر، فبدأت العروض تتوالى عليه من أماكن السهر الراقية.

نشأت بين صباح ونجيب حنكش صداقةٌ ووحدة حال. وتكرّرت دعواته له لزيارة بيروت. وصارت الصحف الأخرى كالحسناء وغيرها، تكتب عنه وعن غنائه بعد الشبكة.

ويمكننا القول إنّها كانت بداية انطلاقه في لبنان. فانهالت الدعوات، والعروض على ملك الطرب لإقامة الحفلات في بلد يقدّر الفنّ، ويرعاه.

ومن الذين لا ينساهم صباح وزوجته، السيّدة سليمة مولوي الخطيب، من طرابلس، والتي كانت من أوائل من دعاه في لبنان. إذ كانت، رحمها الله، برأيه المجرّد، من السيّدات اللواتي



في إحدى حفلات كازينو الشوار (1971).

تُرفع لهن القبّعة؛ مثقّفة وراقية، ومثال للسيّدة التي تلقّب بال«ليدي». دعته مرّة للغناء في حفلة لجمعيّة خيرية في المنتزه في طرابلس، ودعت صفوة المجتمع الطرابلسي إليها، ومنهم الرئيس رشيد كرامي. وكان الأفندي ينوي الاعتذار عن المناسبة، ولكنّها أصرّت على حضوره، واعدةً إيّاه بحفلة طرب متميّزة، فجاء وواكب الحفلة حتّى الصباح. طبعًا، فمن يهوى الفنّ، لا يقوى على المغادرة بعد أن يرمي صباح شباكه الطربية على جمهور ينشدّ إليه، خارجًا عن جدول التوقيت والزمن. من يسمعه، يدخل عالمًا من النشوة، ويسرح في الأنغام، ويغرق في المعاني، ويحلّق مع الصوت المتمكّن، ويرقص مع كلّ إيقاع، بل يتمنّى أن يتوقّف الزمن لتطول الليلة الساحرة التي ينعم فيها بتغريد صناجة الغناء العربي الأصيل.

بعد ذلك، وقّع صباح عقدًا مع مطعم الشوار في الضبية، ليغنّي فيه مساء كلّ سبت.

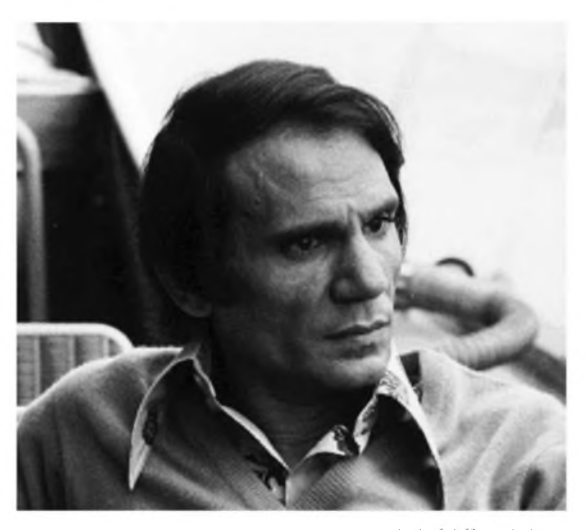


في كازينو شاهين، عاليه - لبنان (ما بين 1969 و1972).

صباح وعبد الحليم

لصباح قصّة مع عبد الحليم حافظ، فصباح كان أصغر منه سنًّا، وكان يردّد أغانيه خلال سهراته في حلب. حضر حليم حفلةً غنّى فيها صباح في دمشق، على مسرح سينما الزهراء في العام 1969، فأبدى إعجابه الشديد بصوت هذا المطرب، للأستاذ شاكر بريخان، ثمّ سأله: «هل سيغنّي هذا المطرب في مصر؟».

وبرأي شاكر بريخان، كان السؤال يتضمّن شيئًا من التنافس الفنّي المشروع. فطمأنه إلى أنّه ليس في نيّة الأستاذ صباح فخري الذهاب إلى مصر أو الغناء فيها.



عبد الحليم حافظ في العام 1971.





إلى يسار صباح الفنّانة كروان السورية، وإلى يمينه السيد سعيد البستاني والفنانة شريفة فاضل المصرية (حلب، 1969).

مع الفنّانة شريفة فاضل (1969).



حفلة نادي حلب (1969). في الوسط: دريد لحام.



حفلة المارتينيز: صباح مع دعد قرنفلي وظافر قرنفلي والسيّدة سليمة الخطيب (1970-1971).



مع الفنّان عبدو عبد العال (1971).



صباح في لباس عربي لفيلم الصعاليك مع السيد تحسين القوادري (1968).



في أميركا.



في البرازيل.

خُطوة نحوَ العَالميّة

ما كان لطموح فنّان مبدع كصباح أن تحدّه حدود، أو أن تقف أمام انطلاقته جغرافيّة المكان، ويحول دون انتشار رسالته عائق الزمان. لطالما اعتبر أنّ الأرض التي خلقها الله وسخّرها لعباده، هي متاحة للجميع لينتشروا فيها، كما قال في كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء 97)، و﴿إِنّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (الأعراف 128).

كانت لديه نزعة للانطلاق إلى ما وراء أسوار وضعها البشر، وتوقٌ إلى المغامرة خارج الحيّز الجغرافي الذي رسمته السياسة، ليغرّد كالبلبل خارج القفص. رغبةٌ كامنة لم يبذل لها جهدًا، ولكنّه يجيد الاستفادة من فرصةٍ تُحقِّقها له. لعلّ أُولاها تلك الدعوة التي بادرت الجالية السورية بتقديمها إليه مع فرقته، إلى القارة البعيدة، إلى حيث تجمّع الكثيرون من سورية ولبنان في ذلك البلد الجميل، فنزويلا.

كانت أُولى أسفاره عبر البحار، والنقلة النوعية للشاب، لابن الثلاثينات الذي عشقته حلب، وأحبّته دمشق. ولكنّ شهرته لم تكن قد عبرت المحيطات، حتّى لبّى تلك الدعوة إلى كاراكاس، في العام 1968.

في مكان آخر من جغرافيا الكرة الأرضية، في كاراكاس، العاصمة التي تقبع ضمن سلسلة جبال فنزويلا الرئيسة، تميّزت الجالية السورية بتكاتفها، وحبّها الشديد للوطن الأم، الذي غادره أبناؤه اضطرارًا، وابتعدوا. لكنّه بقي في قلوبهم، وعشّشت ذكرياته في وجدانهم، وتسمّرت صوره في مخيلتهم، كما تركوه، وكأنّ الزمن هناك توقّف حين ودّعوه.

انتظروا زائرهم بفارغ الصبر، واستقبلوا فيه رسول الذكريات، وحامل التراث، وناقل حكايات الزمان. احتضنوه كمن يضمّ إلى صدره الوطن. لامست أيديهم فيه عزّة أبنائه، واشتمّت فيه عبق سورية وشمم لبنان. انتظروه وقد وعدوه أن يسمعوه دون توقّف، ووعدهم ألّا يتوقّف. وأحيوا معًا أجمل وأطول ليالي كاراكاس[1].

[1] كانت فرقته تتألّف يومها من: شكري انطكلي، قانون؛ نديم درويش، عود؛ ياسين العاشق، كمان؛ فاتح سواس، دربكة؛ وليد تراب وكامل بصّال، الكورس.

هناك غنّى صباح أجمل ما توقّع جمهوره، فعاشوا معه سهرة أسطورية ما زال يذكرها من حضرها، ومن سمع به إبّانها. الليلة التي غنّى فيها صباح حتّى الصباح، وسرى بجمهور المهجر إلى حيث أتوا، إلى بيوتهم التي غادروها، إلى قراهم، إلى جبال لبنان، وأنهار سورية، عاد بهم إلى الزمن الذي توقّف لديهم هناك.

لم يغب عن ذهن المطرب الذكي، أنّه سيخاطب أبناء الكتّاب العظماء وأحفادهم، كجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمه، ونسيب عريضة، والياس فرحات، وإيليا أبو ماضي، الذين نقلوا اللغة العربية والأدب إلى الأمريكيتين، مثلما هاجر الشعر والموشّح إلى الأندلس. اختار أبياتًا من شعر إيليا أبو ماضي، لحّنها في الطائرة التي عبرت به المحيط، وخاطب بها جمهورًا متعطّشًا لكلّ همسة تأتيه من بلاد ترك فيها قلبه وكلّ الذكريات، توّاقًا للقصيدة، للنغمة الحزينة، للصوت الأصيل.

كلماتٌ لامست شغاف القلب، فحركّت أشواقًا حبيسة الزمان والمكان. وألحانٌ داعبت شجنًا دفينًا في الأعماق. وصوت أيقظ كلّ المشاعر والأحاسيس المتعانقة، ليصهرها في زفرة «آآآهٍ» تصاعدت إلى السماء، لخّصت كلّ كلمات الحبّ واللوعة من مشتاق.

وبات الجميع سكارى مزيج من الأحاسيس والعواطف الجيّاشة، مع الطرب المثير الذي استفز فيهم كلّ رغباتهم، ليضعهم في أجواء، هي بين الحلم والواقع، في ليلة واحدة ليست من ألف ليلة، بل هي ليلة بألف.

تقول كلمات القصيدة:

ومَليحَة في وَجهها ألَقُ الضُّحى	والسِّحرُ والصَّهباءُ في أقوالها
قالَتْ أيَنْسى النازِحون بِلادَهُم	ما هاجَ حُزنَ القلبِ غيرُ سؤالِها
الأرضُ سوريّة أحَبُّ رُبوعِها عند	ي، ولُبنانُ أعزُّ جِبالها
والناس أكرَمُهُم عليّ عَشيرُها	روحي الفداء لِرهطِها ولِآلها
مَرَحُ الصِّبا الجِذلان في أسحارِها	ومُنى الصبا الوَلهانِ في آصالها
وَشدوتُ مع أطيارِها... وسَهرتُ مَع	أقمارِها... ورقصتُ مع شلّالِها
تشتاقُ عَيني قبلَ يُغمِضَها الرَّدى	لو أنّها اكتحَلَتْ ولو برِمَالها

كانت الصالة تضجّ بفيضٍ من عواطف جمهورٍ تاق لكلّ حرف من اسم وطنه كلما هتف صباح لأرض سورية، أو قال «لبنان أعزُّ جبالها». كانوا يصفّقون مع دموعٍ صادقةٍ تجترّ ذكرياتهم عن حبّ لا مثيل له، حبّ الوطن.





فنزويلا. من اليمين: السيد عجمي، صباح، وليد تراب، ونديم الدرويش.



كركاس. من اليمين: سيادة السفير بشير القطب، راغب عقل، صباح فخري، عبود نحّال، الياس راهب.



العودة إلى الوطن. من اليمين: فاتح خوام (سواس)، شكري انطكلي، نديم الدرويش، وصباح في وداعهم.

وبعد أن أبكاهم صباح بكلمات إيليا أبي ماضي، جعلهم يرقصون على ألحانه في «وشدوت مع أطيارها، وسهرت مع أقمارها، ورقصت مع شلالها»، على نغمة البيات.

لم يقوَ أحد من الحاضرين على مغادرة المكان، وغنّى صباح حتّى الصباح؛ يطربهم، يجترّ أحزانهم، يبهجهم، يبكيهم، يراقصهم. سافروا معه إلى كلّ مكان عشقوه...

إلى الشام، بعد طول مطال... أنزلهم في دمّر والهامة... مشوا معه في درب حلب بين شجر الزيتون... طعماهم من القراصيّة... وتفسّحوا على راس البر، والقمر على موج البحر... وسبحوا في نهر حمص... وسمعوا عنين الناعورة يعلو من حماة...

نعم، في تلك الليلة، حلّق الجميع في حالة أشبه بصوفيّة خرجت عن المألوف. دار فيها كاس الراح... وانتعشت الأرواح...

تمسّك الجمهور بقائده، وشدّ الأصيل جمهوره بمخزون من المغنى لا ينضب، ومن القصائد لا ينتهي، ومن التراث ما لا يحمله غيره.

واستمرّ يتنقّل بين القدود والموشّحات، بين المواويل والأدوار، بين القصائد والأنغام، حتّى أدركه الصباح. وتمنّى كلّ شهريار في الحفل ألّا يسكت صباح عن أحلى الكلام المباح.

لن تنسى كاراكاس، ولن ينسى محبّو الطرب والأصالة ليلة العمر تلك. ولن ينسوا عملاق التراث ورسوله، صاحب الحنجرة النادرة، والصوت القادر، صباح فخري.

فنجانُ قهوة.. بين عملاقَين

فنجان القهوة الصباحي، شريك العاشق الولهان، والملهوف لخبر، ومحتوى أسرار الندماء، يحكي خفايا القلوب، يتنبأ بالمستقبل ليريح شاربه، ويضعه في خيارات المجهول.

لصباح فخري أغنية من تراثنا الشعبي يحبّها ويبدع في أدائها، ويضعها في مصاف أرقى الأغاني المعبّرة. كان يحيي سهرة ذات مرّة، في حديقة الشيبانية في بيروت، في الستّينات، وكان من بين الحضور الأستاذ نزار قبّاني. طلب منه الجمهور يومها أن يغنّي له «يا شايفة الفنجان»،[1] من كلمات محمد السّباع وألحانه، وتقول كلماتها:

يا شايفة الفنجان	شوفيلي فنجاني
قلبي صبح حزنان	عادوني خلاني
قال الصبر ينفع	يا ما صبرت كتير
شكوى يا مين يسمع	قلبي وبات كسير
لا صبري كان ينفع	ولا حبيبي يغير

يا شايفة الفنجان

راح الولف وبقيت	وحدي أسير الهم
ياما شكيت وبكيت	نزلت دموعي هم
يوم ما انتشيت ووعيت	دهري أرداني بغم

يا شايفة الفنجان

أهلي وكلّ القوم	قطعوا الأمل بِيَّ
والقلب بات محروم	والحق ما عليَّ
يا ربي ييجي اليوم	ترد الولف ليَّ

يا شايفة الفنجان

[1] أغنية «يا شايفة الفنجان» هي الأغنية المفضّلة لدى محمد أبو قوس، بِكر صباح. وهي التي يحبّ سماعها بين الحين والآخر. واعتاد أن يطلبها من أبيه في الحفلات التي يحضرها، لإعجابه الشديد بأداء والده لها، وإحساسه بكلماتها.



الشاعر نزار قبّاني.

غنّاها بكل أحاسيسه وأدائه المنسجم مع معانيها البسيطة الصادقة، وإذ بنزار يبكي متأثّرًا، وكأنّ كلمات الأغنية أثارت شجونه، وحرّكت أشواقه لإحدى ملهمات قصائده، فكانت الحافز الموحي له برائعته التي غنّاها الراحل عبد الحليم، بعد سنين، «قارئة الفنجان» الشهيرة، والتي بكى عبد الحليم حافظ عندما قرأها له نزار قبّاني للمرّة الأولى:

جلست والخوف بعينيها ... تتأمّل فنجاني المقلوب

قالت يا ولدي لا تحزن ... فالحبّ عليك هو المكتوب

يا ولدي قد مات شهيدًا ... من مات فداءً للمحبوب

بحياتك يا ولدي امرأة ... عيناها سبحان المعبود

فمها مرسوم كالعنقود ... ضحكتها أنهار وورود

لكنّ سماءك ممطرة و ... طريقك مسدود مسدود

نجد أنفسنا في الأغنيتين، الأولى على بساطتها ولهجتها البدوية الأصيلة، والثانية في لغتها الجميلة، نعبُر عالم الغموض الساحر، من خلال فنجان قهوة بيد عرّافة. وفي القصيدتين تساؤلات للعاشق عن قدره المخفيّ في مستقبل مجهول. وفي الاثنتين دموع ومآسٍ، استطاع أن يعبّر عنها صباح بأدائه القادر على التعبير باللحن الأصيل، وقالها عبد الحليم بعد معاناة حقيقية. قرأها نزار، وعاشها عبد حليم.

صَبَاحُ وَالعِرَاق

في العراق تسميات خاصة للتراث أو الفولكلور، الألحان الأصيلة والمقامات، فيطلقون على المطربين الذين يجيدون كلّ هذا لقب «قرّاء مقام»، أي أنّه مطرب عالي المستوى، مثل: محمد قبنجي، ويوسف عمر. أما الفولكلور الخفيف نسبيًّا، فيسمّونه «بستات»، وهو شبيه بالقدود، أي أنّ القدّ العراقي بستات. وقد غنّاه ناظم الغزالي وأبدع فيه، كما غنّى القصائد.

اعتبر سمِّيعة العراق صباح فخري «قارئ مقام»، لأنه كان يغنّي لهم حتّى ال«راست» بطريقة قرّاء المقام، مثل: «أحنّ شوقًا إلى ديار سلمى». كما أبدع في القصيدة التي أحبّها العراقيون أيضًا: «لمّا أناخوا قبيل الصبح عيسهم... وحمّلوها وسارت في الدجى الإبل». وقد احتوت بلاد الرافدين تراثًا متشابهًا متّصلًا، يجسّد حضارة العراق وبلاد الشام بانسجام وتواتر عظيمين على مدى الدهر. وهذا طبيعي وملموس، إذ لدينا تواصل تاريخي بين الموصل وحلب، وصل إلى حدّ المصاهرة، وانعكس في أسماء العوائل، إضافة إلى التميّز والتشابه في أنواع الطعام.لذلك، لم يكن الجوّ العراقي غريبًا على صباح فخري يومًا. فكان يطربهم باللون الحلبي، تمامًا كما يطربهم بالعراقي عندما يغنّي لهم من بستاتهم، مثل: «طالعة من بيت أبوها»، و«عمّي يا بيّاع الورد»، و«فوق النخل».

ووفق تعبير يستعمله الأستاذ صباح: «الحكمة ضالّة المؤمن، أينما وجدها التقطها»، تعامل مع خياراته؛ فلدى الشعوب العربية كافة ثقافات وتراث، وكانت مهمته أن يقتني من كلّ بلد جوهرة ثمينة، يصقلها كمهرة الصياغ، ويدمجها مع الأخرى منصهرة في قالب خاص من الأداء، يقدّمه للجمهور بلون مميز، كسبيكة اسمها صباح فخري.

كان من المتعارف عليه قبله، أن يقدّم المطرب في البداية وصلة: بدنيتين، فموشّح، فليالي، فقصيدة، ثمّ دور. فابتكر صباح فخري تقديم وصلة من الموشّحات تسبق القصائد، ونسَّق الأدوار. غنّى لسيّد درويش، لزكريا أحمد، لمحمد عثمان، وغيرهم حتّى لا يتقوقع ضمن القدود الحلبيّة. فجمع المجد من أطرافه، واستطاع أن يضمّ تراث النغم العربي في عقدٍ جميل صاغه بحرفة عالية، وقدّمه للجمهور بأجمل صوت ذكوري عربي مرّ في العصر الحديث، وربّما في القديم.



مهرجان الربيع القديم (الموصل، 1971).



مع عازف العود سميح (الموصل، 1971).



في إحدى المقابلات (الموصل، 1971).





الشاعر الأستاذ فؤاد اليازجي يلقي
قصيدة في أحد أندية اللاذقية (1962).

يحبّ البحر، ويهوى الجلوس والتأمّل أمام عظمته. كان هناك مسترخيًا على كرسيّه، قبل ساعات من الحفلة التي سيحييها في مدينة اللاذقية كعادته كلّ عام، مطلقًا العنان لناظره، وهو يحاول الامتداد لما بعد الأفق، مستسلمًا لأفكاره التي ترتاح وهي تلامس موج البحر عن بُعد، فتدخل السرور والأمان إلى قلبه. وإذ بصديق يقطع عليه خلوته، ويحييه طالبًا مجالسته. لم يكن هذا سوى الأستاذ فؤاد اليازجي، أستاذ الأدب العربي في مدرسة «الأرض المقدّسة»، الذي اعتاد أن يكون نديمه كلّما أتى إلى اللاذقية. وبينما كانا يتأمّلان موجات البحر المتسلّلة تحت الشرفة، دار بينهما حوار عن الأدب والشعر، فسأله اليازجي مستفسرًا عن القصائد التي سيغنّيها في تلك الليلة، فلما ذكر له قصيدة «قل للمليحة في الخمار الأسود»، قال: «شعرٌ جميل، ولكن ألا ترغب في الغناء لسمراء؟». أجابه بأنّ الجمال يحتار بين البيض والسمر، وأنّ ما يجذب صباح هو جمال الشّعر والتعبير. فقال: «إذن اسمح لي أن أقرأ لك هذه القصيدة عن سمراء». أنصت صباح له وكلّه آذان صاغية، فقرأ:

حتّام أرجو والرجاء يخيب — يا شوق رفقًا فالفؤاد يذوب
عبثت به سكرى الدلال وأعرضت — فإذا الضلوع تلهف ووجيب
وإذا به هيمان يُضرمه الأسى — فيشبّ من جنبي منه لهيب

لولاك يا سمراء يا أشهى المنى ما كان تهيامي القديم يؤوب
شيّعته أيام شيّعت الصبا وارتحت لا أرقٌ ولا تعذيب
فبعثتِه جمرًا يُلذِّعُ أضلعي وتركتني أشقى به وألوب
وأحنّ لا شوقي إليك بهامدٍ أبدًا ولا رشدي إليّ يثوب
سمراء ما رقدت جفوني لحظةً إلّا وطيفك في الجفون لعوب
طيفٌ بمدرجة المنام مسامرٌ حلو المعاني شيّقٌ وحبيب
نشوان يخطر موكبًا من فتنةٍ تنفضُّ منها في خطاه طيوب
أنزلته عيني وقلت له اتّكئ فيها فأنت المشتهى المحبوب
وعقدت أجفاني عليه مخافةً من أن يغيب فتستفيق كروب
فأفيق لا شيء سوى الذكرى ولا غير التوجّع والظلام رهيب
وأعود ملهوف الجوانح هائمًا للشوق عندي ثورة وهبوب
سمراء كنت الداء ينخر أعظمي فلعلّ وصلك للفؤاد طبيب

صَمت صباح طويلًا قبل أن يعبّر عن رأيه. والحقيقة أنّه أُخذ بروعة هذه القصيدة، وعمق معانيها، وتدفّق العاطفة فيها، مع جمال الوصف والصورة. وقال: «لم أسمعها من قبل، ولكنّها توحي وكأنّها من الشعر العباسي». فأجابه: «إنّها قصيدتي يا أستاذي، غنِّها لي، ما دمت معجبًا بها». وبشيء من الدهشة، سأله صباح عن مناسبة كتابتها. فروى له قصّة حبٍّ عاشها في شبابه مع سمراء جميلة سكنت قلبه ومخيّلته. ومضت السنون كما تروي القصيدة، وغابت تلك الحسناء عنه وبعُدَت، فطوى حبّه في خزانة النسيان، حتّى مرّت أمامه، بعد عقود من الزمن، صبيّة تشبهها وتذكّر بجمالها، فأيقظت عواطفه وأحيت فيه أجمل الأحاسيس التي رافقت رؤياها. ومثلما مرّت، ذهبت كلمح البصر، تاركة إلهامها ليكتب رائعته «سمراء».

وما زالت تلك القصيدة محبّبة إلى قلب كاتبها. حملها صباح إلى منزله سعيدًا بها، وجالسها مع عوده يتناغمان بين الكلمة والريشة والوتر، حتّى غدت «سمراء»، بلحنها الجميل، من أروع ما غنّى صباح، ومن محظيات أغنياته.



صدمة

بعد النجاح الهائل الذي حققه الفنّان الكبير في القارة البعيدة بأن وضع بصمته الجميلة في الموروث الغنائي العالمي، ومدّ حبال التراث عبر المحيطات لتصل عربَ الشرق والمهجر بموطنهم، وتمسح غمامة الحزن التي لازمتهم سنين طوال عن قلوبهم، عاد حاملًا أجمل الذكريات إلى بلده.

فتحت عليّة الباب الذي كان جرسه يرنّ بإلحاح، لتجد أحلى مفاجآت العمر: عودة زوجها الذي غادرها دونما استئذان ثلاثة أشهر، فقفز قلبها من مكانه فرحًا، ولم تتمالك نفسها وهي تعانق رقبته بذراعيها، غير مبالية بمن حوله، مرحّبة بعودته التي لم تتوقّعها، وأجمل كلمات الحبّ والتأهيل تندفع من فمها وجوارحها.

كان لقاءً جميلًا لم يتكرّر. فالسعادة لا تدوم، إلّا بمشيئة الخالق الذي اختار تلك السيّدة الفاضلة إلى جواره بعد داء عضال أصابها في معدتها، وعجز الأطباء عن مداواته. رحلت شريكة العمر تاركة ثلاثة أطفالٍ، أكبرهم في السادسة من عمره، وفراغًا لا يسهل ملؤه. كانت صدمة مروّعة لفنّان بدأت شهرته بالتوسّع، وآماله وطموحاته بالتعاظم. لم يدُرْ في مخيّلته أنّه سيجد مسؤوليّة رعاية الأطفال ملقاة على عاتقه فجأة. كان، بحكم عمله الفنّي، كثير التجوال والأسفار والسهر، يرمي همّ تربيتهم على والدتهم التي لم تألُ جهدًا في الاعتناء بهم وبإخوتهم كما يجب. ولكنّه شعر بقلّة الحيلة بعد رحيلها. ولم يكن بين يديه سوى أن يترك لأختها مهمّة الاستمرار في رعايتهم مؤقّتًا. أمّا والدته، فكانت قد بلغت من العمر ما يعجزها عن استلام مهمّة كهذه. ولكنّها كانت تحيطهم بحنانها ومحبّتها الفائقة، بوجود حفيدتها امتثال، أو بحضور أم عمر أخت صباح من أبيه. ولكن، كان لا بدّ من البحث عن حلّ.

تكاثرت الآراء والاقتراحات من الأقارب والأصدقاء، إلّا أنّه كان يستبعد الزواج من بين الحلول المطروحة، لأنّ اللواتي كان لديهنّ الاستعداد والرغبة في الزواج منه في ذلك الوقت، لم يكن اهتمامهنّ في تربية الأولاد واردًا، بل كان إغراء حياة المشاهير هو الذي يسكن مخيّلتهنّ. وكان، في الوقت ذاته، في قمة انطلاقه وشهرته، ما يستوجب تحرّره من كلّ قيدٍ أُسريّ يعرقل مسيرته الفنّية.

فهو يعلم جيّدًا أنّه من حقّ الزوجة أن تسأل زوجها: «وين كنت؟ أيمتى راجع؟ ليش؟ وكيف...؟»، إلخ. في ذلك الوقت لم يكن على استعداد للدخول في القفص الذي سيعيق حركته مرّة ثانية.

لكنّ ذلك لم يمنع الناس من أن يقترحوا عليه الزواج لحلّ مشكلة الأولاد.

كان لصباح أصدقاء في البلد الشقيق لبنان، وهم السيّدة سليمة المولوي، وابنا عمّها زهير ورياض المولوي، من طرابلس الشام. واعتاد أن يزورهم في لبنان، فاقترحوا عليه مدرسة للرهبان في بلدة شكّا للاعتناء بأولاده الثلاثة ورعايتهم. أخذ هذا الاقتراح حيّزًا من تفكيره.

وكان يتشاور، مع العائلة الصديقة أيضًا، في اختيار عروس لأخيه محمود الذي كان يرافقه في جولاته وبرامجه الفنّية في لبنان. وبالفعل ذهب وأخوه برفقتهم، لرؤية فتاة من عائلة كريمة في طرابلس. فما كان من أمّ الفتاة إلّا أن أبدت استعدادها على الموافقة في حال كان العريس صباح فخري، لا أخوه.

وهنا بدأت فكرة الزواج تراود صباح، بعد رفضه التام لها في السنتين السابقتين. وكان قد استساغ موضوع المدرسة الداخلية في شكّا، بعد أن زارها، واقتنع بأنّ أطفاله سيكونون هناك في أيدٍ أمينة.

أخيرًا، أودع محمد، وعمر، وطريف المدرسة الداخلية في شكّا. وأمّن صديقيه المخلصَين، رياض المولوي وزوجته السيّدة أميمة دندشي، عليهم في عطلتهم الأسبوعية. وكانا أهلًا للثقة، فلم يتوانيا عن زيارتهم عند اللزوم، وعن رعايتهم واستضافتهم في نهاية الأسبوع. وتقصّد صباح أن يكون بينهم في الإجازات قدر الإمكان.

في أجواء الفنّ، بدت الإمكانيّات متاحة أمام صباح للزواج الثاني. ولكنّه لم يضع هذا الاحتمال بين خياراته، ولم يخضع لإغراءاته. لأنّ أولوياته انحصرت في لمّ عائلته وتربية أبنائه الذين رحلت أمّهم عنهم. وباعتقاده، أنّه لو كانت زوجته فنّانة، فإنّها ستنشغل عنهم في الاستوديو، أو في السهر. بينما يحلم هو ببيت الزوجيّة البعيد عن صخب الفنّ وأجوائه التي عاشها، واعترك الحياة في زواريبها وكواليسها الصعبة. برغم ما يكنّه من احترام للمهنة التي يعيش منها، ومن حبّ لأخوته وأخواته من الفنّانين والفنّانات.



صباحُ ومصرْ

هوى الانتشار، وأحبّ أن ينقل التراث الفنّي العريق، عبر الزمان، إلى كلّ مكان. ما أن تخطّى صباح حدود وطنه الصغير إلى لبنان الشقيق، حتّى عَبَر المحيطات إلى القارة الجديدة. ولم تطل عودته منها، حتّى تكرّرت زياراته للبنان الشقيق. وما لبث أن جاءته الدعوة إلى زيارة مصر في سنة 1970، من قبل بعض السوريين، لرغبتهم في أن يغنّي في مصر، أمّ الدنيا. مصر التي لم يُكتب لصباح أن يوافيها مع سامي الشوّا وهو في الثالثة عشرة من العمر، لينطلق بفنّه منها، و«يتمصَّر» ككثير من الفنّانين السوريين والعرب. هذا البلد الشقيق الذي داعب أحلام مراهقته، كانت أولى زياراته له بعد أربع وعشرين سنة، وهو في السابعة والثلاثين من العمر.

لبّى الدعوة في زيارة ودّية، مطّلعًا فيها على الأجواء عامة. فكانت جولة سياحية فنّية، زار فيها المسارح والصالات التي غنّت فيها السيّدة أم كلثوم، وكبار المطربين المصريين. ولكنّه لم يجد الجوّ مناسبًا وقتها كي يحيي حفلة في القاهرة.

فقد حدث أن قابل أحد الإعلاميين، ودارت بينهما أحاديث شتّى قال فيها الإعلامي:

— هل تعرف سرّ نجاح سيد درويش؟

— ما هو برأيك؟

— لقد نزل سيّد درويش إلى مستوى عامّة الشعب، وغنّى مشاكلهم.

— هذا صحيح. وأنا أُكبر وأُثمّن ذلك كثيرًا. ولكن هدفي أن أرفع المستمع إلى مستوًى عالٍ من الغناء الأصيل.

ما ذكره الاثنان كان حقيقة؛ ففي زمن ألمظ وعبده الحمولي في مصر، كان الغناء في القصور للخديوي والباشوات. واعتاد المطربون إرضاء الملوك والطبقة الثرية من الإقطاعيين والباشوات بغناء يناسبهم. ولكن سيّد درويش غنّى للفلاح والصيّاد والعامل، مثل:

طلعت يا محلا نورها شمس الشمّوسة   يللا بنا نملا ونحلب لبن الجاموسة



مع الفنّانة نيللي ومصطفى نصري (1971).

وأغنية غنّاها للشيالين (الحمّالين):

شدّ الحزام على وسطك غيره ما يفيدك	لا بدّ عن يوم برضه ويعدّلها سيدك
إن كان شيل الحمول على ظهرك يكيدك	أهون عليك يا حرّ من مدّة إيدك

وأغنية «إحنا العجر وانتو الحكام»، وغيرها كثير من الأغاني التي حكت معاناة الشعب المصري في حينها.

أمّا في الوقت الذي غنّى فيه صباح فخري فانتشرت، إلى جانب الأغنية الحديثة، الأغاني الهابطة. وغاب التراث بصورته البهيّة، وغدا «موضة» قديمة. فأضحت مهمّة صباح وهدفه، أن يسجّل هذا التراث البديع من الفنّ الأصيل، ويوصله للأجيال الشابة بأبهى حلله. والواضح أنّه نجح في ذلك، بدليل أنّنا نرى أطفالًا، من أنحاء العالم العربي، يغنّون أصعب ألحانه، ويطربون لصوته.

أمّا ما حدث في الزيارة الأولى تلك، فقد استضافه التلفزيون المصري في بثّ مباشر، أدارته فريدة الزمر وسلمى الشماع - وهما مذيعتان مصريّتان جميلتان - في برنامجهما «النادي الدولي».

قبل المقابلة، سألته إحداهنّ:

— بتغني إيه أستاذ صباح؟

— أنا أغنّي من التراث النفيس أحلى ما فيه. وقد غنّيت لأبي العلا محمد، ومحمد عثمان، وللسيّد درويش، وزكريا أحمد... اطلبي وتمنّي.

فعلًا طلبت منه عدّة أغان، فلبّاها بمنتهى الراحة والتمكّن.

التفتت قائلة:

— إحنا عندنا في مصر أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، وعبد الحليم. انتو عندكو في سورية مين؟

شعر هنا صباح في سؤالها بشيء من الاستخفاف الذي لا يجوز من المستضيف، فقال لها:

— عيب، ده سؤال ما يتسئلش.

ووقف مغادرًا المكان. ولكن لُحِق به لاسترضائه، ووُعِد بعدم التطرّق إلى هذا السؤال. عاد فنّاننا الكبير على مضض مستهجنًا جهلها، أو تجاهلها للشخصية التي ستجري معها المقابلة. وبينما كان الحديث جارٍ على الهواء، فوجئ بها صباح وهي تطرح السؤال مرّة أخرى:

— إحنا عندنا في مصر أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب. انتو عندكو مين؟

وبمنتهى الحرص واللباقة، أجابها متجنّبًا أيّ ردّ فعل عصبي يظهر للجمهور على الهواء:

— الشعب السوري يقول صباح فخري، ومحمد خيري، وكثيرون من أمثالنا.

أكمل المقابلة حتّى نهاية البرنامج، وقد قرّر ألّا يعود إلى مصر ثانية.

وفعلًا، غاب عنها مجدّدًا ما يقارب العشرين عامًا.

الزّواج الثّاني

اعتاد فنّاننا الكبير أن يستعين في تجهيز حفلاته في حلب بالسيّد يوسف ناعورة، الذي كان يرافقه في كورس الغناء أحيانًا. وحدث أن دعاه وزوجته يومًا إلى طاولته، في إحدى حفلاته في منتزه السبيل الصيفي في حلب، فما كان من زوجته، أم عماد، إلّا أن بادرته بسؤال اعتاد أن يسمعه منذ وفاة زوجته عليّة:

— لماذا لا تفكر بزوجة صالحة ترعاك وأولادك؟ ها قد مضى على وفاة أمّ الأولاد سنتان ونصف، ماذا تنتظر؟

أجابها صباح بأنّ الفكرة باتت مقبولة لديه، وأضاف:

— لم أعد رافضًا فكرة الزواج، ولكنّي لم ألتقِ بتلك الصالحة التي تقبل بأولادي معي. كلّ من التقيت بهنّ يُردنني وحدي. وأنا لن أتخلّى عن أولادي، لأنّهم أطفال ويحتاجون إلى كلّ عناية واهتمام.

ذهبت أم عماد، وفي رأسها موّال دلّها على من تحمل المواصفات الملائمة لما يناسب صباح وأطفاله.

فاطمة الزهراء

كانت فاطمة، ابنة الأربعة عشر عامًا، في طريقها إلى منزل أقاربها في منطقة الحميدية. وإذ بها تقابل جارهم أبا عماد - يوسف ناعورة - عند مدخل البناء. حيّاها بلطف، ثمّ قفل راجعًا إلى منزله كمن نسي شيئًا. دخلت فاطمة دار أقربائها، وإذ بالسيّدة أم عماد تدخل الدار بعدها مباشرة، وكأنّها تقصّدت رؤيتها، والتحدّث معها، وبدا ذلك واضحًا عندما اختارت أن تجلس إلى جوارها. لم يطل الوقت عندما علمت الصبية أنّ أم عماد قصدت والدتها لتسألها إن كان في نيّتهم تزويجها في هذه السنّ المبكرة. في مساء اليوم ذاته، بينما كانت الزهراء تخبر والدها عن لوازم المدرسة التي يتوجّب عليها شراؤها، قاطعتها والدتها قائلة:

– يللا يا بنتي رح نجوزك، وما في داعي لطلبات المدرسة».

صعدت الدماء إلى وجنتَي الصبيّة، فتورّدت خجلًا، وضجّت أحاسيسها بشعور غريب، وبدون تفكير طويل سألت:

– مين العريس؟ كلّ يوم عريس شكل وأنا صغيرة، وأحب المدرسة.

فأجابتها أمّها:

– قال اسمه صباح أبو قوس.

وللمصادفة والنصيب، سبق أن تعرّفت فاطمة إلى ابنة أخيه في المدرسة، ومنها عرفت الاسم الحقيقي للأستاذ صباح فخري. وأكملت والدتها صفات الرجل الذي سيتقدّم إليها كما وصفته السيّدة أم عماد. وأخبرتها بأنّ زوجته متوفاة، وله منها ثلاثة صبيان، ويعمل في تجارة الأدوات المنزلية، ويمتلك محلًا لذلك. فما كان من الصبيّة إلّا أن قالت بحماس:

– لا بدّ أن يكون هو نفسه صباح فخري!

فبدا على والدتها الاستغراب، وقالت:

– لست أدري. غدًا سوف تأتيني أم عماد بالخبر اليقين فعلًا.

لم تستطع الوالدة أن تكبح فضولها لكثير من الوقت، فهرعت بسؤال أم عماد في ما إذا كان العريس هو صباح فخري بذاته، فأقرّت بالإيجاب، وبأنّه الأستاذ صباح فخري، الفنّان الكبير.

وهنا لعبت أم عماد دور الموفِّق بين الزوجين. فكانت تمرّ على دار الفتاة يوميًّا بعد عودتها من المدرسة، لتكلّمها عن صباح، وزواجه السابق، وعن أطفاله، محاولة إقناعها بفكرة الزواج المبكر، بينما كانت القناعة تتسلّل إلى عقل الصبيّة، لأنّ العريس هو الفنّان الكبير صباح فخري. فأم عماد كانت تعلم مدى تعلّق الفتاة بالدراسة، وأنّها لم تكن لترغب بأحد من المتقدّمين لخطبتها قبل ذلك. كانت فاطمة بأنوثتها المتفتّحة باكرًا، وطول قامتها، تبدو أكبر عمرًا من اللواتي في مثل سنّها. ولكن، في هذه المرّة، سكن الخطيب في مخيّلتها. وعاش في أحلامها مع أغانيه، ولمس شغاف قلبها قبل أن يقابلها. وباتت المراهقة الصغيرة تنتظر لحظة اللقاء مع الفنّان الشهير الذي أحبّه الملايين، إلّا أنّه سيتقدّم لها بالذات، فهي المحظيّة التي تدعو الله أن يكون هذا الرجل العظيم من نصيبها.

في أول زيارة لصباح إلى حلب، وكانت بمناسبة احتفالات «أضواء المدينة» في صالة الشباب، اتّصلت به أم عماد لتخبره أنّها وجدت له العروس المناسبة، فسألها:

— كم عمرها؟

ولمّا أجابته بأنّها في الرابعة عشرة من العمر، صُعق وقال:

— هل سألعب مع الأولاد؟ لا أريدها صغيرة.

فأصرّت أم عماد باعتداد الواثقة، وطلبت منه أن يرى تلك الصغيرة قبل أن يحكم ويقرّر، فما من خسارة في ذلك.

كان موعد لقاء الصبيّة الأوّل مع الفنّان الكبير في منزل أم عماد، حتّى لا ينوب أيًّا من الطرفين إحراجٌ إن لم ينل أحدهما إعجاب الآخر. وتمّ اللقاء. دخل صباح الدار، ولأوّل مرّة وقفت فاطمة الزهراء وجهًا لوجه أمام النجم المتألّق. مدّ يده مصافحًا. وما أن لامس يدها الغضّة البكر، حتّى تورّد خداها، وسرت قشعريرة في جسدها، منعتها عن الكلام، فسحبت يدها بسرعة، دون أن تنساها كما فعلت فيروز،[1] حتّى لا تفضحها مشاعرها التي أُفلتت زمامها من يدها، ولم تعد قادرة على التحكّم بها. بل أشعلت نارًا في جسدها، لمسه صباح في راحتها، فالتفت إلى أم عماد قائلًا:

— أعطيها حبّة من الأسبرين. انظري إلى وجهها المحمرّ كالنار. لا شكّ في أنّ حرارتها مرتفعة.

لم تكترث فاطمة لما قال، ولا للألوان التي تصارعت على وجهها البريء، فغلب عليها الاحمرار. كانت ترى حلمها الذي تمنّته أمامها، وقد اقترب من أن يتحقّق.

مشاعر متضاربة انتابت بطلنا، الذي قارب مشارف الأربعين، وهو يلامس يد فاطمة التي تفجّرت أنوثتها باكرًا، وفضحت ملامحها كلّ المشاعر التي حاولت إخفاءها. اقتحمت مشاعره بقوّة لم يتوقعها، وأوقعته في إشكاليّة العمر والعاطفة، فلم يخفِ بينه وبين نفسه انجذابه لفوران عواطف مراهقة سرت به إلى مطلع شبابه، فاجترّ ذكريات مراهقةٍ عبثت بعواطفه، ومرّ بها مرور الكرام. إنّه مارد المصباح مرّة أخرى يرمي بين يديه هديّة من الخالق؛ صبيّة يافعة، عشقته قبل أن تراه. ورأت فيه منشود أملها وذروة أحلامها. شغلته تلك الصغيرة ولم تغب عن باله ليلتها. صباح فخري... النجم الذي أطرب العالم، والأرمل

---

[1] نسيت من يده أن أستردّ يدي   طال السلام وطالت رفّة الهدب

الذي شغل الكثيرات، يستحوذ اهتمامه زرّ وردة نضرة تململت ما أن لمس كفّها، وأحسّ بخفقان قلبها ينضح أرجوانًا على خديها. أتراها لمسته السحرية، أم هي انفعالات حبّ بريئة هبت كنسمات الربيع، وهزّت وريقات الورد لتتفتح وتفوح بعطر شباب يثير عواطف كان قد وأدها مع مراهقته التي بدّدها في سبيل الوصول إلى المجد؟

في اليوم التالي، أبلغ صباح السيّدة أم عماد أنّ الصبيّة نالت إعجابه، وأنّه يرغب في الحديث معها على انفراد قبل أن يتّخذ قراره بالزواج.

كان اللقاء الثاني في المكان ذاته، بوجود أهل الصبيّة خارج غرفة الضيوف. استقبلته بقامتها الممشوقة، وطلعتها البهيّة. صافحتهُ مانحةً كفّه ارتياحًا جريئًا، كافيًا لنقل رسائل ردّ على تلك التي تلقفتها عيناها من نظرته المعبّرة عن مكنونات قلبه، والتي سرت في جسدها كأجمل شعور سربلها من قمّة رأسها حتّى أخمص قدميها.

جلسا، وقد تماسكَت، وامتلكت زمام أعصابها، حتّى تستمع لكلّ كلمة يقولها صاحب الصوت الجميل. وبقي الباب مفتوحًا بين الغرفتين، حرصًا على تقاليد البيئة المحافظة التي تنتمي إليها.

دارت أحاديث شتّى بينهما. كان هو من يدير دفّة الكلام، وكانت تصغي مسحورة بحركة الشفتين، وبنظرة العينين من مخضرم خبِرَ الحياة، وتغلّب على صفحات الشعر والنغم والغرام. هذه المرّة، كانت الفتاة أكثر جرأة، وأقلّ خجلًا. وبدت قوّة شخصيّتها ونضوجها اللذين سبقا عمرها، وهي تجيب تساؤلاته عن حبّها للدراسة والمدرسة. وبدا مهتمًّا بحكم كونه قد مارس مهنة التدريس. فكانت تجيبه بحياء وجرأة أدبيّة في الوقت ذاته. انتظر أيّة كلمة تدل على نضوج فكري لترجّح قرارًا متّخذًا من قِبله. وكان لثقتها بنفسها، وحوارها، من ذلك الكثير، ما زاده إعجابًا، بل تصميمًا. ودّعها وهو يعدها بزيارات أخرى لتبادل الأفكار التي تعني له التعرّف إليها أكثر. أخبرها أنّه سيسافر إلى طرابلس - لبنان. وبكلّ جرأة، سألته عن سبب سفره، فذكر لها أنّه قد سجّل أولاده في مدرسة داخلية، في شكّا، وعليهم أن يباشروا دوامهم هناك. ففاجأته بسؤال من عرفت مكانتها في قلبه، وحزرت قراره، بقولها: «ولماذا؟ أنا لا أرى مشكلة في رعايتهم، أنا أربّي إخوتي، وسأعتبر أولادك مثلهم». كانت قد عرفت من أم عماد مدى صعوبة تربيتهم بدون أمّ ترعاهم.

أدهشه كلامها. ولم يعد يرى فيها الطفلة التي سيلعب أولاده معها. فنظر إليها، صمت قليلًا، ثمّ قال بهدوء: «بكّير على هذا الكلام».

في هذا اللقاء، لم يأتِ إعلان الخطوبة ولبس المحابس مبكرًا، فقد رسّخ هذا الكلام قناعة الرجل بالصبيّة، وتمّت الخطبة دون احتفالات أو ضجّة تُذكر.

وسافر في اليوم الذي يليه ليغيب عن خطيبته شهرًا ونصف الشهر، تخلّله شهر رمضان المبارك.

داومت الفتاة كالعادة على الذهاب إلى مدرستها، محاولة إخفاء موضوع الخطبة عن رفيقاتها هناك. ولكنّ الخبر تسرّب كالماء بين الناس، ووصل إلى الذين لم ترغب في إخبارهم. وإذ بموجّهة المدرسة، السيّدة معزز دهنة، ترسل في طلبها إلى الإدارة، وتسألها: «هل صحيح ما نسمعه عن خبر خطبتك؟». أجابتها فاطمة بهزّة غير متردّدة من رأسها، مصدّقة الإشاعة. بينما اعتملت في ذهنها ارتدادات الخبر الذي سيعمّ المدرسة والحيّ قبل أوانه. طلبت الموجّهة معزز من الصبيّة أن تذهب إلى منزلها لتتعلّم دروسًا في تدبير المنزل حسب رأيها. استنكرت الفتاة، بينها وبين نفسها، ردّ فعل الموجّهة الجائر. ولم تر تفسيرًا مقنعًا لمثل هذا التصرّف؛ فلم يكن منطقيًّا بالنسبة لها أن تُحرم فتاة من العلم لاقترافها ذنب الخطوبة.

عادت فاطمة الزهراء إلى منزلها خائبة الأمل، وقد فاجأها قرار الإدارة هذا. كما أنّه أحزن والدتها، وأزعجها كثيرًا، لأنّها كانت تخشى ألّا يتمّ الزواج، وتتأخر عن دراستها بدون مبرّر منطقي.

انتشر الخبر. وكثرت الإشاعات بين مصدّق ومكذّب، وبين مهنّئ وحاسد. ووصل الخبر إلى والدة صباح، بصيغة تروق للوشاة، وهي أنّ ابنها خطب بدون أن يستشيرها أو حتّى يخبرها، محاولين إثارة المشاكل للحيلولة دون أن يتمّ الأمر؛ لاعتقادهم أنّها ستغضب وتقف ضدّ إتمام هذا الزواج.

كان ردّ فعل السيّدة عليّة القدسي على العكس من ذلك؛ فقد خيّبت آمال كثيرات عندما لم تسعها الدنيا من الفرح، وقامت بزيارة أهل الفتاة من دون أن يعرف ابنها صباح.

لطالما تلاعبت المسافات بعواطف المحبّين. فالبعد جفاء. وخلال فترة غياب الخطيب عن فتاته، كانت تتقاذف الصبيّة حيرة أبيها الشيخ محمد، الذي عصفت بأفكاره دردشات الناس ووسوساتهم المتناقضة في أذنيه. «شيخي صباح مغنّي... حرام... شيخي حلال... يجوز... لا يجوز... ابن بيئة طيبة... مهنته لا تليق بنا... سمعته جيدة... لا! اسمعه وهو يغنّي ملا الكاسات،... الخ». وصار كلٌّ يدلي بدلوه بآراء متناقضة. كانت الفتاة خلالها تخلع محبس الخطبة، أو تعيده بأوامر من والدها. ولعلمٍ عند الله، وعندها، كانت تمرض ويصيبها الإعياء

بحالة تنطرح معها في الفراش كلّما خلعت خاتم الخطوبة الذي ألبسها إيّاه صباح، وتُشفى عندما يطلب منها والدُها أن تضعه ثانية، سبحان الله.

والغريب أنّ الحيرة جعلت والدها الشيخ يلجأ، ليس إلى الاستخارة المعهودة لديه فقط، بل إلى أنّه كان يحمل ورقتين، في إحداهما كُتبت الآية القرآنية ﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى الله﴾ من سورة آل عمران، وفي الورقة المماثلة ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذا﴾ من سورة يوسف. وكان لشدّة حيرته يقدّم هاتين الورقتين لأصدقائه من المشايخ ليسحبوا إحداهما.

وصل به الأمر إلى أن يستنبط البركة من براءة الأطفال، فيخيّرهم بين الورقتين، ليتّخذ قرارًا مصيريًا لابنته المدلّلة فاطمة الزهراء.

في تلك الفترة، التي انغمس صباح خلالها في أعماله، لم تكن فاطمة غائبة عن تفكيره. إذ كان يوازن إيجابيّات وسلبيات ما سيقدم عليه في زواجه الثاني. فكان يقيّم صفات عروسه، مضيفًا إلى ما ذكرته السيّدة أم عماد عن أنّ صغر سنها يمكّنها من أن تكون رابعة بين أبنائه الثلاثة. ذلك على الرغم من أنّ مظهرها وبنيتها، وطول قامتها، ولمعان عينيها، ونقاء بشرتها لا توحي بأنّها ابنة أربعة عشر ربيعًا. أمّا حدّة ذكائها وسرعة بديهتها ونباهة جوابها، فقد أضافت إلى نضوج تفكيرها الكثير، وإلى تقييمه لها أكثر وأكثر.

جذبته قوّة شخصيتها حين ظهر حبّها له جليًّا واضحًا. وهذا ما أحسّ به من أوّل جلسة. وأبدت استعدادًا جريئًا ورغبة في تربية أطفاله، وكان هذا سببًا مرجّحًا بالنسبة إلى خياراته. أضف إلى كلّ ذلك أنّها من بيئة محافظةٍ متديّنةٍ تعجبه، وتشابهُ بيئته. وقد التقى مع والدها الشيخ محمد في حبّ الشيخ أبو النصر، الذي يتبع الطريقة النقشبندية، والذي كان صباح يكنّ له إعجابًا منذ طفولته. لا ينكر الخطيب أبدًا إعجابه بشكلها، حتّى أنّ أم عماد أرادت أن ترفع عن رأس فاطمة غطاءها لتريه جمال شعرها الأسود الطويل، فرفض، لقناعته بما يرى ويحسّ. وحُسم الأمر حين عاد صباح من لبنان، بعد شهر ونصف من الغياب، وطلب أن يجتمع بها في العيد عند السيّدة أم عماد للمعايدة. ذهب بصحبة والدته وشقيقته لطفيّة وابنتها، وإذ بفاطمة تدخل عليهم بإطلالتها الحلوة. وبدا أنّها فوجئت بوجود العريس بين السيّدات، بينما دخل الرجال من أهلها إلى غرفة الضيوف. كالعادة، بدت الصبيّة متماسكة، فحيّت على الأصول، وقبّلت والدة صباح وأهله. ثمّ جلست إلى جانبه لتبوح له بما لا يعرفه، وهو أنّ والدها قد أتى اليوم لينهي الموضوع بفكّ الارتباط بينهما. لم يهتزّ الخطيب الواثق، بل طمأنها بقوله: «لا تشغلي بالك، سأتصرّف».

ونهض ليشارك الرجال في مجلسهم، فما كان من الشيخ محمد إلّا أن اختلى به جانبًا. وقال مادًّا كفه المفتوحة وتعتليها ورقتان مطويّتان:«اختر واحدة من هاتين». ابتسم العريس وتطلّع إليه بنظرة تحمل الكثير من العتب والتحدّي، وقال: «شيخ محمد، أستعلّق مصير ابنتك بهاتين الورقتين؟ ولكنّني بإذن الله سأتغلّب عليك هذه المرّة».

كانت ثقة صباح بحظّه، وبرضى الله عنه كبيرة، إلى درجة تكفيه كي يسحب ورقة، ويعطيها لوالد الفتاة طالبًا منه أن يفتحها بنفسه. فنظر إليه بعد أن فتحها، وقال: «فإذا عزمت فتوكّل على الله، على بركة الله، روح زوَّجتك ابنتي».

وإذا بالزغاريد تنطلق من أخت صباح وابنتها وأم عماد، فتملأ المكان. فآذان النساء وعيونهنّ كانت ترصد الخبر السعيد لينتشر في أرجاء المنزل والحيّ.

وشاء القدر

ما أن نال صباح الموافقة من الشيخ محمد خيرو، والد العروس، حتّى قرّر الذهاب إلى المحكمة ليسجل عقد القِران رسميًّا هناك.

عندما قرأ قاضي المحكمة، القلطنجي، البيانات التي تعرّف بالعريس والعروس، اعتذر عن عقد القران، وذلك لصغر سنّ العروس، ولفارق العمر الكبير بين العروسين، وأحال الأوراق إلى قاضٍ آخر، ما كان منه إلّا أن استدعى العروس ووالديها ليطرح عليهم بعض الأسئلة، بينما كان صباح خارج القاعة منتظرًا. طلب من العروس أن تكشف المنديل عن وجهها، وما أن رآها سافرة، حتّى التفت إلى والدتها قائلًا:

— ليس في وجه ابنتك أيّ عيب، لماذا تقبلين أن تزوجيها لرجل يكبرها بخمس وعشرين سنة، ولديه ثلاثة أطفال، وهي في عمر الزهور؟

فقلبت والدتها شفتيها وكفيها، مع إجابة خافتة تعبر عن قلّة حيلتها، وقالت:

— لا أعرف!

التفت القاضي إلى والدها، وكرّر عليه السؤال، فأجابه الشيخ محمد:

— لقد زوّجتُ أختها لرجل صغير السنّ فأتعبني، لذلك رضيت بفارق السنّ عسى أن ترتاح معه.



صباح وفاطمة الزهراء.

أدار القاضي وجهه نحو فاطمة ليسألها، فسبقته تلك الصغيرة لتقول:

— ما دخلك أنت! اختصر، أرني أين تريدني أن أوقّع؟

سكت القاضي عند رغبتها الجامحة، وابتسم بعد أن أدّى ما يتوجّب عليه. ثمّ طلب من الحاجب أن ينادي السيد محمد صباح الدين أبو قوس. فدخل، ليرى الدهشة مرسومة على وجه القاضي وهو يلتقي بصباح فخري وجهًا لوجه، وقام من كرسيّه مبتسمًا ومحيّيًا:

— أهلًا وسهلًا بالأستاذ صباح.

وهكذا أصبحت فاطمة الزهراء شرعًا وحكمًا زوجة العمر، وهي إلى اليوم شريكة حياته، وحبيبة عمره.

أزال الفنّان المشهور حفلة العرس من سياق برنامجه الاجتماعيّ، فغافل الجميع بسفره إلى دمشق ليستقرّ في منزله في الجسر الأبيض. ابتدأ صباح مرحلة جديدة من العمر، إلى جانب سيّدة فاضلة، كُتب له أن ترافق مسيرة حياته، فكانت منحة الله الثانية التي أكرمه بها بعد صوتٍ نادر المثيل.

حَرْبُ رَمَضَان

1973

في ذلك اليوم الموافق 6 تشرين الأوّل، كان كلّ شيء يبدو طبيعيًا وهادئًا في مدينة دمشق؛ الناس في أعمالهم، والتلاميذ في مدارسهم. كذلك كان الأبناء الثلاثة، محمد وعمر وطريف أبو قوس، في مدرستهم. لم يكن هناك ما يلفت النظر، أو الظنّ بيوم غير اعتيادي.

بل كانت عربات بائعي الموز والبلح تملأ الشوارع، والأفران تغصّ بالناس وبوفير الخبز، وكل الموظّفين في مكاتبهم، وكذلك طلّاب الجامعات.

وفي تمام الساعة الواحدة وثمان وخمسين دقيقة، سُمع صوت طيران حربيّ قويّ لم تعتده آذان الناس، فارتفعت عيونهم إلى السماء بدهشة واستغراب.

وفي خلال دقيقتين، كان التلفزيون والراديو يذيعان نبأ نشوب الحرب مع العدوّ الإسرائيلي. وكان الأبناء الثلاثة قد عادوا إلى البيت قبل ساعة من ذلك، لتحتضنهم أمّهم فاطمة الزهراء.

ما تذكره فاطمة، أنّها لم تكن خائفة، وكذلك الأولاد. وللغرابة أنّ الناس كانوا يقفون على الشرفات لمشاهدة الطائرات. حتّى أنّ الزهراء شاهدت بأمّ عينها طائرة تطلق قذيفة. ولم يطل الوقت حتّى سمعت دويًّا هائلًا لا تنساه حتّى اليوم، ودخانًا يتصاعد من شارع ليس كثير البعد، بل قريبًا من آمريّة الطيران.

هرع صباح إلى الهاتف ليطمئنّ على منزل صديقه وزير الدفاع، فتبيّن له من المكالمة الهاتفية التي ردّت بها عليه السيّدة لمياء الجابري، عقيلة وزير الدفاع اللواء مصطفى طلاس، أنّ الغارة أصابت منزل الدكتور نزار أمير براق بمن فيه. عائلة كاملة كانت ضحية الطيران الإسرائيلي في أوّل يوم للمعارك. كان الدكتور أمير ابن حلب، من خيرة أطباء العينيّة في سورية. كما كان عزيزًا على صباح. وحزنت لاستشهاده دمشق كلّها.

وقتذاك، كان صباح قد انتُخب نقيبًا للفنّانين في سورية، فالتحق بالنقابة ليرى ما تقتضيه حالة الحرب من واجبات على الفنّانين. بعدها بأيّام، اقتاد زوجته وأولاده في سيّارته إلى





صباح وسيادة اللواء مصطفى طلاس مع زمرة من الأعضاء النقابية في مقرّ النقابة في العام 1973.

حلب. وقد عُرف عنه حبّه لقيادة السيارة بنفسه. لم تكن رحلة مريحة كما اعتادت العائلة، فقد توقفوا عن السير مرّات عديدة بسبب الغارات الجوية التي كانت تصادفهم على طريق حلب. مرّة عند «قارة»، ومرّة أخرى قرب حمص حيث استوقفتهم الشرطة ليحتموا بالخنادق، بينما كان طيران العدو يقصف مصفاة البترول في حمص. وما أدركوا أبواب حلب إلّا والطائرات تقصف مطار النيرب قرب المدينة.

أمّن الفنّان الكبير الملتزم بحبّ الوطن على أولاده مع والدته في حلب، وقفل عائدًا وزوجته إلى دمشق، وقد هيّأ له الفنّان المخضرم شاكر بريخان قصيدةً حماسية، لحّنها حسين نازك، وقدّمها صباح عبر شاشة التلفزيون العربي السوري، وتقول كلماتها:

عقدنا العزم جند الله	أن تحيا أمانينا
وأن يبقى بإذن الله	عملاقًا تلاقينا

كان الحماس يملأ القلوب، والمعنويات عالية. وكلّ ما يراه الناس ويسمعونه يوحي بالنصر. أخبار «بارليف» ألهبت مشاعر المواطنين، وكذلك تقدّم الجيوش، على الجبهة السورية، على خطّ «آرون». وكأنّ الجيوش العربية تمسح عار نكسة عام 67.

خمرة الحبّ

انتقلت فاطمة الصغيرة مع حلمها الكبير، صباح فخري، إلى دمشق، حيث كان يسكن في منزل في الجسر الأبيض. فيما بقيت والدته في حلب تاركة للعروسين أيّامًا من العسل. كانت السعادة والحبّ يملآن الدار. وتفتّحت أزاهير المراهقة الصغيرة على يد خبيرٍ بكلمات الحبّ والغرام. كما أثارت العلاقة البريئة تلك، في صباح، وحيًا وإلهامًا ليكتب قصيدة في الحبّ لتكون الأولى بعد سنين طوال منذ كتب، وهو في الرابعة عشرة من عمره: «يا رايحين لبيت الله...».

تقول فاطمة: «عشت فعلًا أوقاتًا من العسل لا تُنسى، مع من كان حلمًا للكثيرات من المعجبات والحبيبات. وسبحت في بحر من الحبّ والحنان. وكنت سعيدة وأنا أسمع دندنات العود في ميلاد أغنية جديدة لم أسمعها من قبل. جلست أمامه لأتمتّع بكلّ كلمة يلفظها بصوته الجميل. أنا العاشقة المدلّلة، أتأمّل الكلمة واللحن وهما يتغازلان ويتغيّران في كلّ مرّة يعيد فيها غناء مقطع «خمرة الحبّ اسقنيها».

اعتاد أن يصطحبني إلى السهرات التي تُقام في بيوت أصدقائه المقرّبين. وصادف أن دُعينا إلى منزل السفير الكويتي في دمشق (أبو عصام)، في سهرة غصّت بذوّاقة الطرب، محتفلين بعيد زواج أم فراس (لمياء الجابري) وأبي فراس (مصطفى طلاس)، في 1973/1/18. كنتُ وصباح أيضًا من المحتفى بهما بمناسبة زواجنا الذي تمّ قبل حوالي الشهرين من ذلك. في تلك السهرة، غنّى صباح لأوّل مرّة، خمرة الحبّ اسقنيها، من كلماته وألحانه».

أمّا صباح فمشاعره متداخلة حول كلمات تلك الأغنية التي يحبّها ولحّنها، إذ يقول: «خمرة الحبّ قصيدة عزيزة على قلبي، لأنّها انطلقت من أعماقي. وكأنها الحبّ الذي تجدّد بين جوانحي، والذي حلّقت به إلى حبّ صوفي، كنت قد غبتُ عنه زمنًا. فأنا،كما سبق أن ذكرت، صوفي المنشأ والهوى. ولا شكّ في أنّ العاطفة الجديدة حرّكت في داخلي حبًّا يسكن وجداني، وقد عاهدت به الإله.

وقد يتساءل المرء هنا كيف تبتدئ قصائد الحبّ الإلهي بالخمر، وبالوصال؟





الحبّ في رأيي لا يتجزّأ، أليس منحة من عند الله؟ وعندما يتكرّم الله عليك بعشق حلال، ألا يقود إلى حبّ الخالق وشكره؟! أمّا الخمر، فأقصد به الحبّ الذي يوصلنا إلى النشوة من دون محرّمات. إضافة إلى ما نجده في رباعيات الخيام:

هبّوا املأوا كأس الطّلى   قبل أن تملأ كأسَ العمر كفُّ القدر.

وقد وعدنا الله في جنانه بأنهار منه (أنهار من خمر لذّة للشاربين). لست أنكر تحريمه، معاذ الله، ولكنني أفسّر قصيدتي التي قلت فيها:

خمرة الحبّ اسقنيها   همّ قلبي تنسنيه
عيشة لا حب فيها   جدول لا ماء فيه.

فالحياة التي أكرمنا بها الخالق، لا تكون بلا ماء (وجعلنا من الماء كلّ شيء حي). وبرأيي، ليست هناك حياة بدون حبّ، على أنواعه. بدءًا من حبّ الأمّ لوليدها، وحبّ الطفل لأمّه، ثمّ الحبّ المتبادل بين المرأة والرجل. أمّا أرقاه وأعظمه، فهو الحبّ الإلهي. لا شك في أنّني حلّقت في حبّي الصوفي، ولكنني كتبت عن الدنيوي مكمّلًا:

يا ربّة الوجه الصبوح	أنت عنوان الأمل
أَسكري باللثم روحي	خمرة الروح القبل
إن تجودي فصليني	أسوة بالعاشقين
أو تضنّي فاندبيني	في ظلال الياسمين

وعن اللحن، يقول صباح إنّه: «نهوند، وكان في باكورة تكوينه عندما غنّيته في منزل السفير (أبو عصام). ولكن، في السهرات المتتابعة التي تلَتها، والتي كانت تدور، تكريمًا لزواجي، بين أفراد اللفيف من الأصدقاء الذين كانوا هناك، كثُر الطلبُ على تلك الأغنية. وكنت أنسجم في تطريبها مرّة بعد مرّة، حتّى اتّخذَت شكلها الأخير الذي أقدّمه للجمهور.

وما حصل، أنّ الناس بدأوا في طلب خمرة الحبّ من بائعي الكاسيت وقتها، فكانوا يبيعونهم أغنية أخرى:

من خمرة الحبّ زيد لحان	وامليلي
واطرح عناني من الهجران	وامليلي
وإن كان لي ذنب هات الشرح	وامليلي
بهواك تشهد لي العشاق خاصًا	وعمّ
واصل لفاديك بموّالي وخالًا	وعمّ
يخشى عنوح لغرق إن سال دمعي	وعمّ
ومن زفيري على إبراهيم	وامليلي

وهذه من الشرقاوي الذي أغنّيه أيضًا. ولكن، منعًا لأيّ التباس، وحرصًا على خمرة الحبّ اسقنيها، كلماتٍ ولحنًا، من أن يتبنّاه آخر، أو أن يُنسب لفولكلور قديم، فقد سجّلته في باريس في هيئة حقوق الأغنية واللحن (Sacem)[1] باسمي. وما زالت من أكثر الأغنيات التي يطلبها الجمهور، بعد قل للمليحة».

[1] Société des auteurs, compositeurs et éditeurs de musique

مُسَلسَلُ الوَادِي الكَبِير

بعد أقلّ من عامين على زواج صباح من فاطمة الزهراء، وكان ذلك في الشهر الثاني من عام 1974، فاجأها صباح بنيّته السفر إلى بيروت. وأبلغها أنّه استأجر مسكنًا فيها، ليقضيا معًا وقتًا لطيفًا، بينما يقوم بتسجيل دوره في مسلسل تلفزيوني. وقد اختارَه مؤلّفُه نزار مؤيّد العظم ليكون بطله، أمام السيّدة وردة الجزائرية، بطلة المسلسل الأولى. وبهذا يكون نزار مؤيّد العظم قد اختار لقصّته أجمل صوتين على الساحة العربية في ذلك الوقت.

يحكي المسلسل قصّة عمّار، وهو مطرب ذو صوت جميل، عشقته هزار، ابنة المعتصم والي قرطبة. وهي فاتنة، تمتاز أيضًا بجمال صوتها. وتبادلا الحبّ مكبّلين ضمن أسوار التقاليد، ومحاطين بأعين الغيار والحاسدين.

أحداث مشوّقة لغرام غير متكافئ، حصل على ضفّة نهر الوادي الكبير في قرطبة. تأتي نهاية المسلسل سعيدة، بعد أن يقدّم للجمهور أجمل القصائد والموشّحات البديعة من أجمل الأصوات والأداء.

مسلسلٌ لم ينل حقّه من الشهرة، برغم كونه يمتاز بالقصّة التاريخية، والغناء المميّز، والإخراج المتألّق لـ إيلي سعادة، والتمثيل الناجح.

كانت فاطمة الزهراء تتمنّى أن يكون المنزل الذي اختاره صباح، مطلًّا على البحر؛ فسكّان المدن الداخلية يتشوّقون دومًا لرؤية الشواطئ والبحار. إضافة إلى عشق أهالي حلب لـ «الماء والخضرة والوجه الحسن». كان السكن في منزل جميل يشرح القلب والنظر. حقّق بعضًا من رغبات فاطمة في حبّ الجنان الخضراء، لإطلاله على مشتلٍ متنوّع النباتات والزهور، لكنّه لا يطلّ على البحر لكونه في «سن الفيل». ولم يكن هذا حائلًا دون إشباع الرغبة برؤية بحر بيروت الجميل؛ فقد تولّت «الأولدزموبيل» الجديدة تلك المهمة، كلّما عنّت أمواج الشاطئ على بال السيّدة الزهراء.

أقيم عشاء لتعارف أسرة المسلسل التي تضمّ مؤلّف القصّة نزار مؤيد العظم، والمخرج اللبناني إيلي سعادة، والسيّدة وردة الجزائرية، بوجود الملحّن السوري القدير محمد محسن (واسمه الأصلي محمد الناشف)، وكان اللقاء في مطعم «اليلدزلار» في منطقة الروشة.



صباح فخري في مسلسل «الوادي الكبير».

كانت السيّدة وردة قد سبقت صباح إلى المكان، فبدأ المخرج بالحديث عن فكرة العمل، وأوضح لها أنّ البطل هو صباح فخري، واسمه عمّار. وأنّها البطلة، واسمها هزار، فتذمّرت لسماعها الاسم، قائلة:

— إيه ده، في واحدة اسمها هزار، ده في المصري يعني مزح وكلام فارغ.

فسّر لها المؤلّف أنّ الهزار هو طائر صغير جميل الصوت، كالعندليب. وأنّه اسم شائع في اللغة العربية، ومتداولٌ في منطقتنا، والاسم يتلاءم مع قصّة المسلسل. ولمّا وصل صباح وزوجته إلى المطعم وقاموا بتحيّة الجميع، عرّفوها إلى الأستاذ صباح، ويبدو أنّها لم تكن تعرفه قبل ذلك. التفتت إلى المخرج، وقالت بشيء من الدهشة:

— أنا... ح امثل مع ده!؟

فحاولوا أن يداروا جهلها بالحديث عنه باعتباره نجمًا لامعًا، والمطرب الأوّل في سورية، وفي الغناء الأصيل.

كانت تلك البداية غير سارّة لصباح، بكبريائه الذي يستحقّه، فامتنع عن تبادل الحديث معها طيلة فترة العشاء. الإنسان عدو ما يجهل... ولا يغيب عن بالنا أنّ نجوم مصر ومطربيها لا يسمعون أمثالهم من البلدان العربيّة الأخرى، ما لم ينطلقوا من مصر. ووردة نفسها، وفريد الأطرش ونجاة وسعاد حسني وفايزة أحمد وغيرهم، أكبر مَثل على هذا الواقع. الشعب المصري ذوّاق ومحبّ للطرب، ولكنّه لم ينفتح على من حوله إلّا بعد الفضائيات.

وصدف، في اليوم التالي، أن ذهبت السيّدة وردة في جولة تتمتّع فيها بمشاهدة معالم بيروت، وكانت برفقة زوجة الملحن محمد محسن. ما أن ركبت السيارة، حتّى التفت إليها السائق متسائلًا:

— ألست المطربة وردة الجزائرية؟

أجابت بنعم، فسألها بتطفّل مألوف:

— وشو جاية تعملي في بيروت؟ حفلة غنائية؟

— بل مسلسل غنائي مع صباح فخري.

وهنا ضغط السائق برجله على الفرامل موقفًا السيّارة فجأة، وهو يقول:

— مع صباح فخري!! رح تكسّروا الدنيا!

هنا أدركت السيّدة وردة من هو صباح، برسالة عفويّة من أبسط الناس. ولكن، وبرغم المحاولات لتفهّم الخطأ الذي ارتكبته السيّدة وردة، لم يتمكّن الأستاذ صباح من الانسجام معها خلال التمثيل. واكتفى بأداء دوره في حينه، وغناء الألحان التي تقدَّم إليه. أمّا تمارين التمثيل، فقد كان يتمرّن عليها مع زوجته فاطمة في البيت. يحفظ دور عمّار بينما تؤدّي أمامه الزهراء دور هزار، فعاشا المسلسل معًا؛ يحفظان الكلمات معًا، والألحان والأغاني أيضًا. كانت بالنسبة إلى العروس التي لم يمضِ على زواجها عامٌ ونصف، أيّامًا حلوة لا تُنسى، في إجازة مقتطعة من أعمال البيت وتربية الأولاد.

أمّا البطلان الحقيقيان، فلم تعد المياه إلى مجاريها بينهما إلّا في نهاية المسلسل.

كان «الوادي الكبير» غنيًّا من حيث الموسيقى، والألحان، والأغاني. ويعتبر صباح مشاركته في هذا المسلسل تجربة مفيدة، كونه مليئًا بالموشّحات، والقدود، والقصائد، التي أضفت على قصة حبٍّ دارت بين البطلين جوًّا أندلسيًا اقتُبِس من تاريخ إشبيليا وحكم العرب المسلمين هناك. وتجدر الإشارة إلى أن قصة المسلسل جميلة جدًّا، نجح كاتبها في





صباح فخري ووردة الجزائرية في «الوادي الكبير».

المزج بين التاريخ والحبّ والفنّ. وقد أدّى الممثّلون أدوارهم بحرفية عالية يُشهَد لها ضمن إمكانيات التلفزيون اللبناني العريق الذي كان في بداياته وقتها.

سُرّ صباح بدوره في «الوادي الكبير»، وهو شخصيّة عمّار المغنّي الأندلسي الذي تخيّله المؤلّف. وقد عاصر شاعر الموشّحات عبادة القزّاز، وهو أوّل من أبدع في فن الموشّحات من الشعر الأندلسي أيّام حقبة الطوارئ، وقد ساق المؤلّف نزار مؤيّد العظم كلّ ذلك في حبكة شائقة. وأظهر المخرج إيلي سعادة الرواية في أجواء أندلسيّة بديعة، مع اختيار أجمل الأصوات العربية، وأجود الملحّنين لأداء الموشّحات الأندلسية الساحرة. كان همّ صباح أن يقدّم أجمل الألحان والموشّحات، فجاء بخير من تعاون معهم من الملحّنين السوريين. نذكر منهم: عزيز غنّام، محمد محسن، أمين الخيّاط، عدنان أبو الشامات، وإبراهيم جودت. فقدّم بألحانهم جميل الموشّحات، التي لم تنل حظًّا كافيًا من الشهرة. أمّا ما ساد جوّ المسلسل من جفاء بين البطل والبطلة، فقد غاب عن الجميع إذا ما استثنينا فاطمة الزهراء. وتكمن المشكلة في الانطباع الذي علق في ذهن صباح، أنّ وردة لم تقبله كبطل يمثّل أمامها في مسلسل لعاشقَين.

ويذكر صباح أنّه بعد مضيّ بعض الوقت، وبعد أن قطعا شوطًا في تصوير المسلسل، مرّت السيّدة وردة عليه في غرفة الإعداد والمكياج، وطرحت عليه سؤالًا أدهشه إذ قالت:

— أنا لم أتمكّن من فهمك... إمّا أنّك قليل الذوق... أو أنّ صوتي لم يعجبك!

فأجابها:

— لا هذا ولا ذاك. ولكنّ الألحان التي أتيت بها لم تبهرني.

وكأنّه، في تلك اللحظة، يردّ لها صفعةً بادرته بها في أوّل لقاء بينهما.

بقي هذا الحوار وراء الكواليس، يطوي جفاءً كان الزمن كفيلًا بوأده، وبإزالة الهوّة التي نشأت دون قصد بينهما. وحفظ صباح، في داخله، لوردة كلّ ودٍّ وتقديرٍ واحترام. وفي نهايات المسلسل، كان حريصًا ألّا يفوته سماعها وهي تؤدّي أغانيها بصوتٍ جميل لا ينكره خبير. تمامًا كما كانت تفعل وهي تستمع إلى غنائه باهتمام.

وصدف أن كان النجم الكبير، الأستاذ دريد لحام، ومجموعة من الفنّانين يعرضون مسرحيّة في بيروت، فدعاهم صباح إلى حفلة تكريميّة لهم ولفريق مسلسل «الوادي الكبير» في مطعم الشوار.



ليلتها، غنّى ملك الطرب خارج إطار المسلسل، وكالعادة سحر الحاضرين. واستمعت وردة، وتمتّعت. حتّى أنّها جلست على طرف المسرح، وانفعلت وانسجمت مع الغناء بكلّ أحاسيسها، معبرّة عن إعجابها بصدق. وأزالت من يومها الهوّة التي فرّقت بينهما، لتحلّ محلّها صداقة ودّ وتقديرٍ واحترام.

وعندما سافرَت، كان صباح في وداعها في المطار، وبكت وردة للفراق. يومها شعرَت أنّها ستفتقد وِدًّا ترعرع بينهما في رحاب «الوادي الكبير»، حالت دونه هفوةُ تسرّعها في الحكم عند أوّل لقاء. بعد ذلك، زالت غمامة الوهم التي اعترضت صداقتهما. وفي ما بعد، التقيا في حفلات في الجزائر، حيث كانت من أوائل الحاضرين لسماع صباح فخري هناك.

وعلى حدّ قول صباح: «﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾، وردة الجزائرية مطربة بكلّ ما في الكلمة من معنى. جميلة الصوت والأداء. ولديها ألحان بديعة من بليغ حمدي، وهو ملحن موهوب ومميّز. لو عاد بي الزمن إلى الوراء، إلى أوّل مقابلة واجهت بها السيّدة وردة، لما تعاملت معها بردّة الفعل تلك، بل بديبلوماسية وليونة واستيعاب أكبر للموقف».

من أغاني صباح فخري في مسلسل «الوادي الكبير»

قدّم هذا المسلسل المنسيّ عددًا لا يستهان به من الموشّحات والقصائد الجميلة، القديم منها والجديد، بألحان ونغمات تحاكي الجوّ الأندلسي. وحلّق بها صباح فخري في قمّة عطائه وجمال صوته. لحّن الأغاني لفيف من خيرة ملحّني سورية، وعلى رأسهم عزيز غنّام.

وسنمرّ على بعض الأغاني التي أدّاها صباح في «الوادي الكبير» كما وردت فيه:

عبث الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد فلبّت أدمعي
أيّها البدر الذي لمّا بدا
غاب عن عشّاقه فيه الهدى
أنت في قلبي على طول المدى
متّي الأحشاء أمسَت فلكا فاستقم بالأوج منها واطلع
يا عذولي أنت لم تدرِ الهوى
ولذا أنكرت ما بي من جوى
دع فؤادي ماله منك دوا
وهو في درب الهوى قد سلكا فاسترح من لوم من لم يسمع
أحور مهما رنا أو رمقا
لم يدع للصب منه رمقا
آه من طول عذابي والشقا
غاب عن عيني لعوبًا ضاحكا تاركًا نار الهوى في أضلعي

وهو موشّح من روائع الشعر الأندلسي لابن بقي، ومن ألحان عدنان أبو الشامات.

وقصيدة أبو نواس الشهيرة:

حامل الهوى تعبُ يستخفّه الطرب
إن بكى يحقّ له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحبّ ينتحب
كلّما انقضى سبب منك عادني سبب

تعجبين من سقمي صحّتي هي العجب

وقد أبدع في تلحينها عزيز غنّام، وهنا طوّع القصيدة، وأخضعها لقالب تلحين الموشّح.

وقصيدة «في خاطري»، من كلمات عبد الله الحسين، وألحان محمد محسن:

في خاطري في القلب في خلدي	ما زال همسك بالغ الأثر
ما غبتِ عن فكري فأنتِ به	تحيين في سمعي وفي بصري
يا طيفها إن جئتني سحرًا	والطيف قد يأتي على سحرِ
فاستبقها إنّي أحنُّ إلى	تلك العيون ووجهها النضر
يا طيفها قل إنّني دنف	وأكاد لا أقوى على السهر
لو مرّ يوم دون رؤيتها	لحسبته ما مرّ من عمري

وقصيدة «الشاب الظريف»، وهو يعتبر من نوابغ شعراء الشام عام 688 هـ، التي لحّنها صباح:

لا تُخفِ ما فعلت بك الأشواق	واشرح هواك فكلّنا عشاق
فعسى يعينك من شكوت له الهوى	في حمله فالعاشقون رفاق
لا تجزعنَّ فلست أوّل مغرم	فتكت به الوجنات والأحداق
واصبر على هجر الحبيب فربّما	عاد الوصال وللهوى أخلاق

وقصيدة «طاب النسيم» التي لحّنها ابراهيم جودت:

طاب النسيم وغنّت الورقاءُ	وهمى على الوادي الكبير ضياء
يا نهر حمصٍ لازمتك مسرةٌ	والعمر قربك متعة وهناءُ
حبّي إليك مع الزمان مجدّدٌ	كم طال فيه تذكّر وعناءُ
لولا الحنين لأرض حمص ما جرى	دمعي ولا شمتت بي الأعداءُ
بلدٌ إذا ما لاح طيف خياله	رقصَت له في مهجتي الأحشاء
كم لي به من ذي وفاءٍ لم يخن	عهدي وينمو بالوداد وفاءُ
فتراه يحنو إليّ سائلًا متلهّفًا	عن حالتي إن قلّتِ الأنباءُ
في بعده لا الصبح يشرق نوره	عندي ولا تتبدل الظلماءُ

وبرى النقّاد أنّ الأغاني كان يجب أن تُعزف بالآلات المتوفّرة في العصر الأندلسي، أي بما يلائم تلك الفترة.



انشغلت فاطمة الزهراء في سنتَي زواجها الأولى بتربية أولادها محمد، عمر وطريف (أبناء زوجها صباح)، وبحبّها المتّقد لزوجها، وبواجباتها كربّة بيت. كانت تولي الجميع جلّ اهتمامها، وتعتني بهم بدون أن تغفل أدقّ احتياجاتهم.

لم تكن تفكّر في الحمل لصغر سنّها. ولم تصغِ إلى تساؤلات الآخرين في ما يخصّ عائلتها. إضافة إلى يقينها بأنّ أبا محمد ليس متشوّقًا لزيادة عدد أبنائه.

شاءت إرادة الخالق أن تظهر بوادر الحمل على فاطمة وهي في السابعة عشر من عمرها. لم يكن بوسعها أن تزفّ إلى صباح الخبر قبل أن تتأكّد من صحّته. ولكنّه، بحكم عمله المتواصل في حفلات بين الكويت وتونس، غاب عن بيته شهرين متتاليين، تأكّد للزهراء خلالهما حملها.

غمرها شعور بالفرح والتشوّق، وتردّدت في أن تبلّغ صباح ذلك عن بعد، لجهلها ردّة فعله، فقرّرت أن تحفظ له روح المفاجأة حتّى يعود.

إنّه الحلم الذي يزورها في رقادها كما اعتادت أن ترويه: «لا يغيب عن مخيّلتي أبدًا ذلك الحلم الذي رأيته في ثاني شهرٍ من حملي. رأيت الرسول، صلاة الله والسلام عليه، في منزلي في الجسر الأبيض، وبرفقته الشيخ أبو النصر. فناديت أخي ليقبّل يديه نيابةً عنّي. ولكنني أطللتُ عليهما، ورأيت الرسول بطلعته البهية بعباءة سوداء، وعمامة بيضاء. واعتبرت رؤيته، صلّى الله عليه وسلّم، خير بشرى وطمأنينة، وكأنّه يقول لا تجزعي إنّي معك».

عاد صباح إلى داره بعد غياب، ليفاجأ بخبرٍ كان قد استبعده. ولدهشتها، طلب منها إجهاض الحمل الذي لم يكن مستعدًّا لاستقباله، ولأنّ الوقت برأيه لم يكن مناسبًا.

خضعت فاطمة بغصّة لرأي زوجها، وأبدت انصياعها لرغبته. ولكنّ الدكتور دهمان عارض رغبة صباح حرصًا على أوّل مولود لمريضته. تقبّل صباح الأمر بسرور ضمنيّ ارتاح له مع الوقت. أمّا والدته السيّدة عليّة القدسي، فقد كانت من أكثر المتحمّسات لبشرى الحمل الجديد، والأشدّ تشجيعًا لفاطمة.

وَفاةُ عَلِيّةَ القُدسي

ألمّ المرض بأمّ صباح وهي تنتظر بفارغ الصبر الحفيد الجديد. كانت تدعو الله أن يكون المولود صبيًّا. حافتها فاطمة بعنايتها الفائقة واهتمامها الشديد، ولكنّ إرادة الله شاءت أن يختارها إلى جواره وهي في حلب. وصل نبأ وفاة السيّدة عليّة القدسي فجر يوم الأوّل من كانون الثاني إلى مسمع فاطمة الزهراء، بينما صباح يحيي حفلة رأس السنة في دمشق عند تلقّيه الخبر الأشدّ إيلامًا في حياته، فما كان منه إلّا أن أنهى حفلته عند الخامسة صباحًا، وسار إلى حلب مع عائلته ليقوم بمراسم الدفن واستقبال العزاء هناك.

تركت وفاة والدته أثرًا عميقًا في نفسه. وندبةً لا تندمل في جوارحه. فَقَدَ بوفاتها أعزّ إنسان إلى قلبه، ومنبع الطمأنينة في مسيرة حياته. كان يكتفي بدعائها لترتاح نفسه، وبتشجيعها ليتجاوز المصاعب. ولم يصبّره على تقبّل حكم الله سوى إيمانه واستسلامه لقدرٍ محتوم.

المَوْلُودُ السَّعِيد

قاربت فترة الحمل على الانتهاء. وباتت فاطمة تنتظر ذلك اليوم بمزيج من مشاعر القلق والخوف والفرح معًا، بعد ان استكملت استعداداتها لذلك.

وفي ظهر الثامن عشر من كانون الثاني عام 1976، شعرت بآلام الولادة التي استمرّت حتّى ساعات الليل. ذلك اليوم كان يعني لصباح مناسبة سنويّة يحيي فيها سهرة موعودة لأم فراس (لمياء الجابري)، وأبي فراس (مصطفى طلاس وزير الدفاع في حينه). فهي ذكرى زواجهما.

لم يكن من عادة صباح أن يلغي حفلة وعدَ بها لأيّ سبب، فرحًا كان أم حزنًا. لأنّه كان يعتبر ذلك من صلب عمله.

خرجت فاطمة الزهراء بصحبة والدتها إلى مستشفى الدكتور جلال الدهّان[1] وهناك رفضت الدخول إلى غرفة الولادة ما لم يأتِ صباح الذي كان يحيي المناسبة السنوية لوزير الدفاع. كان لها ما أرادت، فدخلت غرفة الولادة ويد زوجها تعانق كفّها، وابتسامته تمدّها بشجاعة احتاجت إليها. تمّت الولادة من دون أن يغادر صباح، بل كان من بشَّرها، بعد أن استفاقت، قائلًا: «مبروك منحك الله صبيًا...» وأضافت إحدى قريباته: «أبيض متل التلج... فرخ ملوك»؛ إذ كان وزنه 3800 غرام، واستقبل الحياة بصرخة قويّة مع أذان الفجر.

في ذلك اليوم السعيد، عمّت الفرحة، وامتلأت الغرفة بالزهور. غمرت الزهراء سعادة لم تشعر بمثلها من قبل. انهالت المباركات من كلّ قريب وصديق. وكان إخوته يأتون من المدرسة ليرونه، ويتساءلون متى ستعود أمّهم إلى البيت.

لم تدرِ الأمّ الصغيرة بماذا تنادي وليدها. فكانت تناديه بـ«صبوح» تيمّنًا باسم والده. إذ رأت فيه صباح الذي تحبّ. كان لا بدّ من تسميته في اليوم الرابع قبل خروجها من المستشفى.

---

[1] الدكتور جلال الدهّان: طبيب جرّاح من مدينة حلب. شاعر متمرّس له مؤلّفات شعرية. محبّ للفن والموسيقا. كان صديقًا مقرّبًا من الأستاذ صباح فخري الذي اختار من أشعاره عدة أغانٍ لاقت صداها لدى الجماهير.



أنس أبو قوس عام 1976.

وعندما سُئل صباح، قال أريد اسمًا مشتقًّا من الإنسان، فهي الصفة التي أرغب أن تتوفّر في ولدي.

هنا تدخّل الدكتور جلال الدهّان، وحسم الأمر باشتقاق اسم «أَنَس»، باختصار الحروف المكرّرة في كلمة «إنسان»، ووافقت عليه الزهراء بكلّ محبّة.

في حديث معها، تقصّ أم أنس:

> سافر صباح إلى الأردن ليجري مقابلة تلفزيونية في برنامج «زائر المساء» وعاد ليشاركني في البيت استقبالَ المباركين الذين تهافتوا مهنّئين بقدوم أنس. بعد أيّام، وبينما كان صباح يحدّثني عن نجاح مقابلته في عمّان، فاجأني نزيف حاد استوجب عودتي إلى المستشفى، وبقائي هناك لتعويض الدم المفقود. وهنا لا أنسى موقف صباح الذي لازمني لشعوره بخطرٍ ما يهدّد حياتي. وأخيرًا قرّر الدكتور دهّان أن لا حلّ إلّا باستئصال الرحم لإنقاذي. قبل صباح بمشيئة ربّ العالمين، ورضيتُ أنا بقدرٍ له عند الله حكمةٌ. وكما يقول المثل: «الله خلقه وكسر القالب»، كُسِرَ عندي القالب لأربّي أولادي الأربعة. وصار أنس فرحة البيت التي غمرت أهلي وأهل صباح.

في تونس

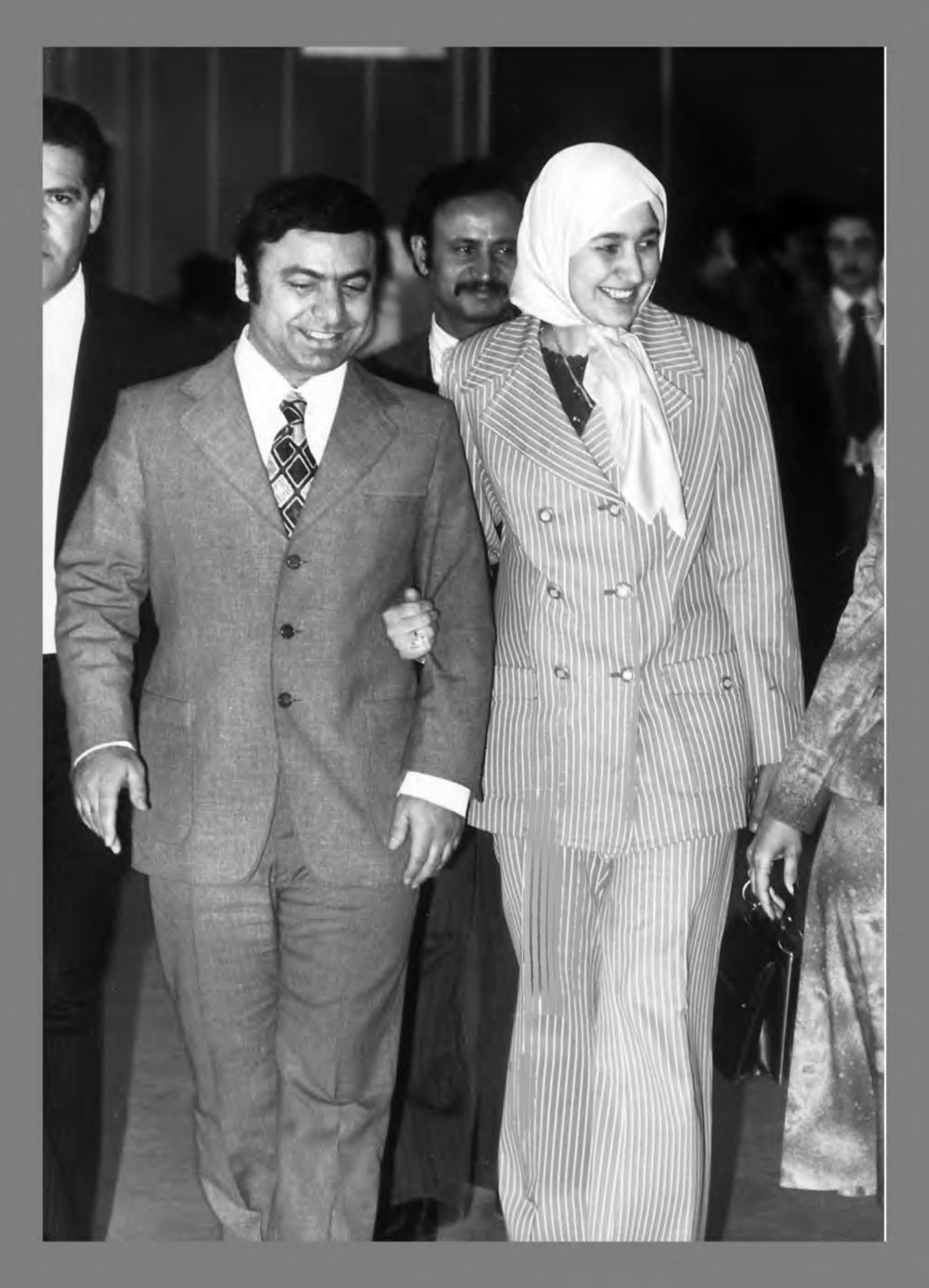


صباح وزوجته لدى وصولهما إلى مطار تونس (1976).

لتونس في قلب صباح فخري مكانة خاصة، ولشعبها حبّ وارتباط روحي معه. فهو يصنّف الشعب التونسي بأنّه الأكثر حبًّا للطرب والأصالة. وأنّه يلي سمّيعة حلب، إن لم يوازِهم عشقًا للصوت الجميل والطرب الأصيل.

لبّى صباح فخري دعوةً من تونس في العام 1973، موسّعًا نطاق جولاته في العالم العربي الذي يعتمد عشق الأصالة تقييمًا للفنّ والطرب. وهناك أحيا حفلاتٍ ساحرة،[1] حضرها أهمّ شخصيّات البلد. وعاشت تونس أجمل لياليها مع الطرب الأصيل الذي يتصيّده جمهورها العاشق للنغم والصوت النادر. وأبدع فيها صاحب الحنجرة الماسية بالموشّح والقصيدة، وبالموّال والقدّ. أطربَ واختطف الهتاف والتصفيق من جمهوره بجدارة. تميّز بأدائه الآسر لروائعه: «جاءت معذّبتي في غيهب الغسق»، و«إنّ العيون التي في طرفها حَور»، و«على دلعونا» (التي منحها نكهة مختلفة بأدائه المميّز)، و«قل للمليحة في الخمار الأسود» (التي غالبًا ما يطلبها الجمهور في كلّ حفلاته)، و«قدّك الميّاس...».

[1] كان يرافقه على القانون في حفلة تونس تلك الدكتور سعد رجائي آغا القلعة الذي مارس العزف هواية وعلمًا، بينما كان متفوّقًا في دراسة الهندسة. وعلى الكمان، الأستاذ ياسين العاشق.



الرَّئيسُ بورقيبة يكرِّم صَبَاح

يتمتّع الحبيب بورقيبة بتاريخ نضالي ضدّ الاستعمار الفرنسي. كان له الفضل في نيل الاستقلال، وفي تأسيس الجمهورية التونسية الحديثة. ولقبه المعروف هو الزعيم والمجاهد الأكبر. منح الرئيس بورقيبة صباح فخري وسام الاستحقاق الثقافي التونسي، من الدرجة الأولى، في قصر الرئاسة في المونستير، مسقط رأسه، عند أوّل لقاء بينهما سنة 1975. وفي اللقاء الثاني، في حفلة المونستير، قدّم بورقيبة لصباح «مشموم الياسمين[1]»، قائلًا: «من تونس الخضراء إلى حلب الشهباء». وقد مسّ فخامة الرئيس مشاعرَ الفنّان بعبارته المؤثرّة، الأمر الذي حثّه على التفكير جديًّا بعمل فنّي بين تونس وسورية.

أوّل ما تبادر إلى ذهن صباح هو أن يلقي بهذه العبارة بين يدي صديقه الدكتور جلال الدهّان، ليكتب له قصيدة تعبّر عن هذا الموضوع. وفعلًا كتب الدكتور جلال قصيدة جميلة طويلة، لكنّها لم توحِ لصباح باللحن والنغم. وإذ بالشاعر التونسي أحمد الغربي يقدّم له ما أحبّ على الهاتف، فدخلت قصيدته مزاج فنّاننا الكبير، وعبّرت عن مشاعره، فغنّاها بعد أن لحّنها الأستاذ سليم سروة. وهي قصيدة:

سلي فؤادي عن الخضراء يا حلب	لله كم حسنها إليك ينتسب
تقسّم القلب في نصفين بينكما	على السواء فلا فرق ولا رتب
كان اللقاء بها في أرض موطنها	في ليلة عمّ فيها الأنس والطرب
تبارك الله كم جلت محاسنها	عن الحليّ فلا درّ ولا ذهب
رشيقة القدّ طلق الوجه ضامرة	يزينها اثنان حسن الذوق والأدب
أدركت معنى الهوى من وحي مقلتها	يا هل ترى نشرت آياته الكتب
إذا تلقّت فصيح اللحن من حلب	تكاد من نفحات الشوق تلتهب
فكنت أسمعها ممّا يخالجني	ثوب العواطف بالألحان ينسكب
يا ربّ لا تقطع الخضراء عن صلتي	فالحبّ مفخرة غنّت بها العرب

[1] مشموم الياسمين: باقة من الياسمين أو الفلّ اعتاد أهالي تونس على صناعتها بقطف أزرار الياسمين في الصباح الباكر، وصفّها على أوراق الحلفاء، ومن ثمّ ضمّها بالخيط والإبرة على عود، لتشكّل واحدًا من مشموم الياسمين الذي يمكن ضمّه إلى باقات أخرى لصنع باقة أكبر.




الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة يستقبل صباح ويقدّم له فلّة مع قوله: «من تونس الخضراء إلى حلب الشهباء»، وكانت السبب في وجود قصيدة «سلي فؤادي عن الخضراء يا حلب» (1975).

صباح في تونس مجددًا

وتكرّرت زيارات صباح إلى قرطاجة، والعاصمة تونس، وأقيمت له الدعوات والولائم. فقد أحبّه الشعب التونسي بكلّ طبقاته، وأعجب بلونه الأصيل.

في الزيارة قبل الأخيرة لصباح، سنة 2010، توعّك صحّيًا، واعتنت الدولة المستضيفة به.

كما أنّ الرئيس زين العابدين، أرسل مندوبًا (وزير الثقافة) ليستفسر ويطمئنّ عن صحته.

وبعد خمس سنوات قامت وزارة الثقافة التونسيّة بتكريمه، بأن منحته وزيرة الثقافة، السيّدة لطيفة الخضر، الصنفَ الأكبر من وسام الاستحقاق الثقافي من الدرجة الممتازة. يومها قال في المناسبة:

> «اليوم تعيدني الذكريات لتونس وبني تونس الذين أفتخر وأعتزّ بهم. لأنّ تونس هي الأقرب لبلدي سورية. وللمشترك الكبير الذي يجمع بين البلدين في العادات والتقاليد واللغة، إن لم أقل التوحّد في الخصائص نفسها.
>
> جئت لتونس في هذا التوقيت لأقف إلى جانب التونسيين في هذه الأزمة. ولنساعد على درء هذه الظواهر التي لا تنتمي للإنسانيّة لأنّي ضدّها.»



الرئيس الحبيب بورقيبة يقلّد صباح وسام الاستحقاق الثقافي.



حفل في قصر الحبيب بورقيبة.



مع الوسام المقلّد من قبل الحبيب بورقيبة.

يومها صرّحت وزيرة الثقافة بيقينها أنّ الفنّ هو السلاح الاستراتيجي لمواجهة الإرهاب.

كذلك اعتبر وزير العدل، محمد صالح بن عيسى، أنّ الفنّ هو أحد الأدوات التي تجمع وتوحّد المبادئ الإنسانية قاطبة.

يعلّق صباح على المناسبة بقوله:

> «أنا لا أدّعي أنّني أجيد الحكم على سياسات الدول، برغم وطنيتي وتعلّقي بحبّ العروبة. ولكنّني متمسّك بحبّ الشعوب العربية لي. ولم ألحظ تغيّرًا في تعامل الشعب التونسي معي إطلاقًا. استُقبلت بحفاوة اعتدت عليها في كلّ زياراتي السابقة. ولهم مني كلّ الحبّ والامتنان.»

وكان من الجمهور التونسي، الشغوف بالفنون والموسيقى، الدكتور صالح المهدي. وهو موسيقي تونسي أسّس الفرقة القوميّة للفنون الشعبية. كما أنشأ معهدًا غنائيًّا موسيقيًا باسم «نادي زرياب». وله مؤلّفات عديدة في الموسيقى العربية. وكان من المعجبين بصباح فخري.

واتّفق أن دُعي صباح في باريس لحضور محاضرة يلقيها المهدي عن فنّ الارتجال في الموسيقى الشرقية. فاستشهد بصباح كأهمّ مطرب مرتجِل، وذلك من خلال خبرته الموسيقية والفنّية. وأطلق على صباح فخري لقب «ملك الارتجال». ولما انتهى من محاضرته، فوجئ بملك الارتجال متواجدًا في المناسبة، ومن يومها توطّدت بينهما صداقة يعتزّ بها صباح، ويفخر بها الآخر. وقد اختار هذا العالم الموسيقي موشّحًا لشهاب الدين الموصلي، ليلحّنه ويقدّمه لصباح ليغنّيه:

باسم عن لآل ناسم عن عطر
نافر كالغزال سافر كالبدر
باخل بالوصال سامحٌ بالهجر
لي أبقى الخبال حين أفنى صبري
أيٌّ ظبي ربيب ليّ فيه أرب
ريقُه كالطريب واللمى كالطَرَبْ
يا له من حبيب باسم عن حبب

وما أجمل الـ«أمان» في هذا الموشّح، عندما تتداخل مع نغمة الجهاركاه الجميلة تلك.



في حديقة المنستير.

وللـ«أمان» في الموسيقى الشرقية مكانة لا يستهان بها، فهي تُعتمد لتكمل النغم. وبرأي أستاذ التراث صباح فخري، أنّها الكلمة العربية التي تعني الأمان. ولها المعنى ذاته بالتركي، مع تفخيم الألف. فقد كان الموّال يُفتتح بطلب الأمان من المولى، قبل بثّ الشكوى والشجن ضمن الغناء، كما في: «أمان أمان يا موليمي».

بعد 41 عاماً من تكريم بورقيبه لصباح فخري، منحه الرئيس التونسي الباجي قائد السبسي «الصنف الأكبر من وسام الاستحقاق الثقافي». تولّت وزيرة الثقافة التونسية لطيفة الأخضر تقليده الوسام، بحضور عدد من المثقفين والإعلاميين التونسيين، والفنان اللبناني مارسيل خليفة، بحسب، ما ذكرت الإذاعة التونسية وقتذاك.

الصفحتان التاليتان: قصر المنتزه، سيدي بو سعيد، حفلة 1976.
نرى الجمهور خلف المسرح لعدم توفّر الأماكن.







ين سعد الله آغا القلعة وعلي مصطفى، القائم بالأعمال (تونس، 1975).



مع الأستاذ صالح المهدي، صاحب موشّح «باسمٌ عن لآلِ».

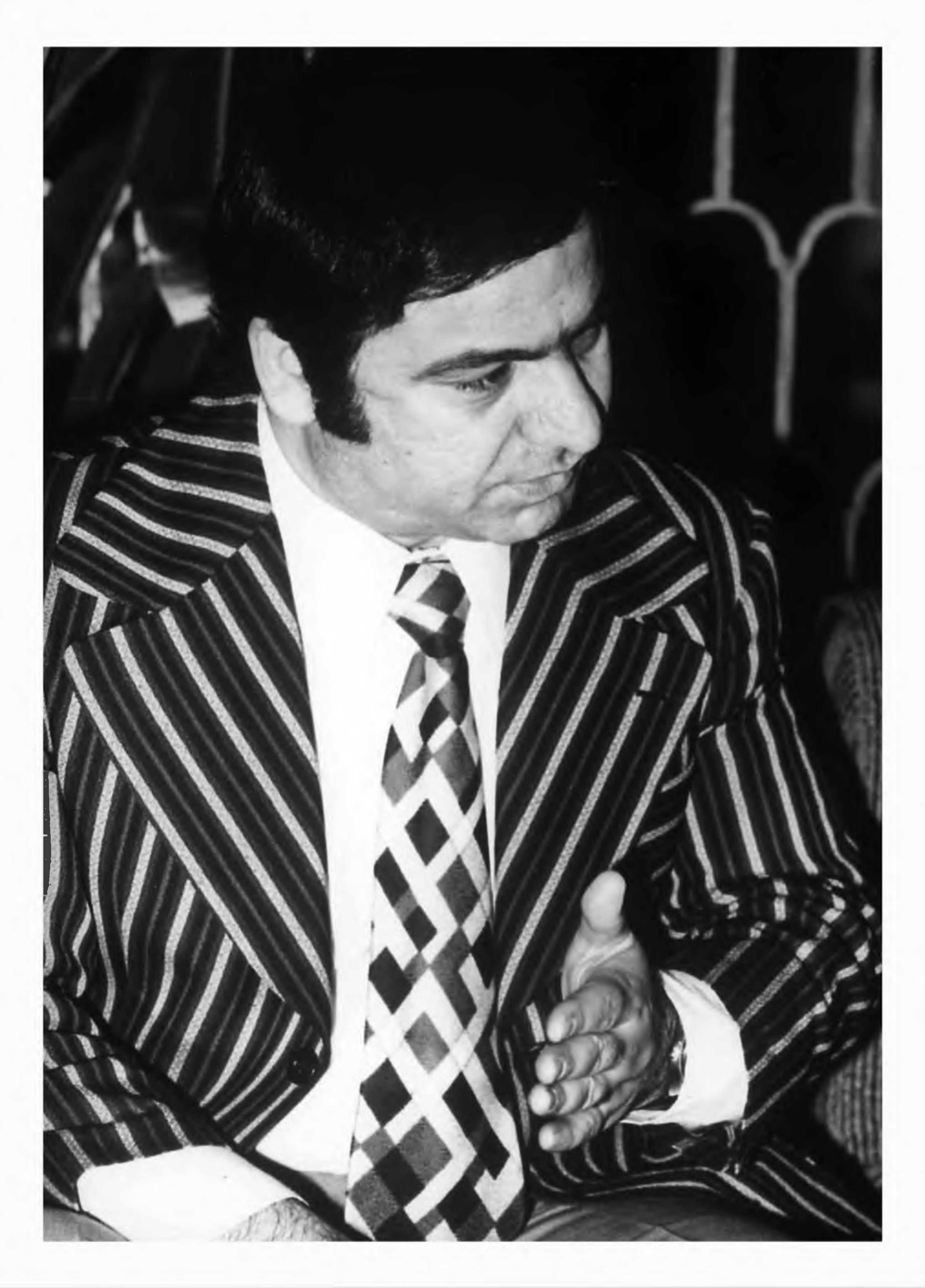


ـع صلاح الدين بن حميدة، المدير العام للتلفزيون والإذاعة التونسية.



مع محمد الموجي (1974).

الصفحة المقابلة:
صباح فخري في منتصف السبعينات (تونس).





مَعَ الرَّئيس حَافِظ الأَسَد



حظي صباح بلقاءات عدّة مع رئيس جمهورية البلاد حافظ الأسد. أُولاها عندما تولّى رئاسة نقابة الفنّانين، فقد، كانت نقابات الفنّانين في سورية محلّية وخاصّة. جُمعت بمرسوم تشريعي في العام 1968 في نقابة رسمية نظامية تحت كنف الدولة. اجتمعت نقابتا حلب ودمشق في العام 1970، لينتخب الأعضاء رئيسًا للنقابة المركزية. ونجح الفنّان الكبير دريد لحام في نيل المنصب. وما لبث أن تسلّم صباح، في الدورة الثانية، مركز نقيب لفنّاني سورية، بعد أن انتُخب بالاجماع، وحُمل يومها على الأكتاف. وتولّى المنصب لدورتين متتاليتين، من العام 1972 وحتّى نهاية العام 1976. تمّ تولّاها ثانية في العام 1990.

طلب صباح مقابلةً مع الرئيس حافظ الأسد، في العام 1998 وكان له شرف اللقاء في جلسةٍ استغرقت ساعة ونصفًا، طرح فيها صباح مشاكل المواطن والفنّان، وكانت له أذن صاغية ممّن عُرف عنه التميّز بحسن الإصغاء والاستماع.

في نهاية المقابلة، ربّت سيادة الرئيس حافظ الأسد على كتف صباح قائلًا: «أنت سفير سورية إلى العالم، فالفنّ يجب أن يكون دومًا في خدمة الشعب والوطن».

كان في هذا الكلام تكريم لصباح ولرسالة الفنّ من رئيس دولته. وشكّل له ذخرًا ودافعًا ليكمل مهمّته وواجبه تجاه وطنه وفنّه.

رحلاته إلى المغرب العربي

وكما عهدناه، يطوي صباح بساط الريح تحت إبطه، ليفرده عندما يتلقّى دعوة تحرّك مزاجه.

أحبّ تونس وأهلها. وفي كلّ مرّة زارها كانت تراوده فكرة زيارة المغرب العربي الأصيل. لم يطل به التمنّي، حتّى جاءته الدعوة من سعادة السفير إدريس بن نونة في العام 1972، بعد أن توطّدت الصداقة بينه وبين صباح في دمشق، لاصطحابه إلى مولاي الملك الحسن الثاني. وشاء القدر أن تُلغى تلك الرحلة بسبب محاولة الانقلاب التي قام بها أوفقير، في 16 آب عام 1972. ولكنّه لبّى الدعوة في الشهر الثاني من العام 1973، وبرفقته أمين الخياط، وكامل البصّال، وجوزيف توما. وأحيا حفلات حضرتها الجاليات العربية التي تعشق الطرب، إضافة إلى الجمهور المغربي المتأصّل بالفنّ والحضارة.

وبعد انتهاء الحفلات، ودّع فرقته وبقي ضيفًا على الجالية الحلبية، التي كانت تحلم بوجوده بينها، أكثر من شهر. وعاد إلى دمشق في الشهر الرابع، ليفرد بساطه في الشهر الخامس طائرًا إلى أمريكا الشمالية في رحلة لا تُنسى. رجع بعدها إلى بلده متنقِّلًا بين حفلات في حلب ودمشق ولبنان.

أمّا الزيارة الثانية للمغرب فكانت في العام 1976، بعد حفلات وكالة الأنباء في تونس. هذه المرّة، تأبّط صباح ذراع فاطمة الزهراء لتكون رفيقته في رحلة إلى المغرب، هي أشبه بالسياحة منها للعمل، بعد أن أنجبت له مولودها الوحيد أنس أبو قوس بثلاثة أشهر.

صادفت زيارته تلك عيد مولاي الأمير عبد الله في القرية السياحية. ولأوّل مرّة تنبهر فاطمة الصبيّة التي لم تنه الثامنة عشرة ربيعًا، بفخامة الاحتفال الذي أُقيم للأمير المحتفى به. كانت ترى سيّدات المغرب وفتياته يخطرن في الزيّ المغربي التقليدي الرائع، وقد أبدعن في اختيار الأقمشة والألوان والحلي التي تغطّي الصدور وتلتفّ على الأعناق، بينما تنسدل الأقراط بين الأذن والأكتاف. وكأنّها تحضر فيلمًا أُعدّ في هوليوود، تتسلّط الأضواء فيه على رجال ونساء بملابس فيها من البذخ والأناقة ما لا تشهده في الحفلات العادية، ولا حتّى في الأعراس. وكان الحضور يتجوّلون بين الموائد الغنية الحافلة بما لذّ وطاب من أنواع الطعام المغربي.



الأميرة لمياء الصلح.

كان صباح يتجوّل بين معارفه وأصحابه من المدعوين ورجالات الدولة، بينما كُرّمت فاطمة بمجالسة الأميرة لمياء، التي كانت ترتدي قفطانًا أبيض رائعًا مزيّنًا بالخيوط الذهبية. وشاركتهما سيّدات مقرّبات من الأميرة الجميلة. وتوالت الفرق المغربية والأجنبية، واحدة تلو الأخرى، في تلك الليلة الساحرة. بينما حلّ صباح ضيفًا، وليس مطربًا. فتمتّع بأجواء الحفلة الرائعة، من تنوّع في الموسيقى، وكرم في الطعام، وفخامة في اللباس، وبذخ في المظاهر كلّها، كما نتوقّع من حفلات ملكية، يضيف عليها الشرق أجواء ساحرة، تخلب الألباب.

أمّا فاطمة الزهراء، فقد كانت سعيدة بحضور مناسبة فريدة كتلك، ولكنّها سعادة مغلّفة بخمار من الخجل الطبيعي لمن هنّ في سنّها. كيف لا وهي في أوّل ظهور لها على مجتمع غريب عنها وعن بيئتها. جلست طويلًا على المائدة إلى جانب الأميرة اللطيفة لمياء، وهي ترقب أنواع الطعام التي تتناوب على تشكيل المائدة، بأنواع لا تعدّ من الألوان المغربية الشهيرة، من دون أن تمدّ يدها لتذوق شيئًا منها. كانت تلحظ المدعوّات إلى جانبها وهنّ يتذوقن من الأطباق كنقر العصافير، فلم تبادر حتّى بالتذوّق. لاحظت أميرة الدار ذلك بإحساسها الرفيع، فأرسلت من يدعو صباح إلى مائدتها وطلبت منه أن يأخذ بيد زوجته لتتذوّق من الموائد المنتشرة في أنحاء المكان ما ترغب. ولا ينسى صباح ألذّ «فرّوج» تناوله هناك، بتتبيلة لم يذق مثلها قط.

بدأ المدعوّون ينفضّون رويدًا رويدًا، وقد تجاوزت الساعة الثانية صباحًا. وإذ برسول من قبل الأمير، يطلب من صباح أن ينتظر حتّى يغادر الغرباء جميعًا، لأنّه يرغب في إحياء الحفلة ثانية بصوت أمير الطرب، وملك القدود، صباح فخري. انتظر صباح إلى حين، ثمّ اعتذر لطول الانتظار، وأرسل من يلقي السلام على الأمير ويخبره بأنّه يفضّل أن يحيي له حفلة أخرى، يكون فيها مع فرقته وباستعداداته التامة.



في المسرح البلدي، الدار البيضاء، مع محمد بنيس، رجل أعمال مغربي من لجنة مهرجان فاس (1973).

عادت الزهراء إلى رعاية طفلها أنس، بعد أن غابت عنه شهرين لتجده في أفضل حال برعاية والدتها، وقد ازداد وزنه ببلوغه الشهر الخامس، وتورّد خدّاه، وبدا قويّ البنية. بينما عاد صباح إلى حفلاته وسهراته المعتادة.

بعد عشرة أعوام من الزيارة السابقة، جاءت الدعوة من خارجيّة المغرب، ليشترك صباح في حفلة بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لجلوس الملك الحسن الثاني على عرش المملكة المغربية. قامت الاحتفالات في الدار البيضاء، أحيا منها صباح ليلة من ليالي العمر في ولاية عين شق، في إستاد الحسن الثاني، أمام جمهور رائع من أهالي المغرب العربي الأصيل، عاشقي الطرب والصوت الجميل. وكانت الاحتفالات في شهر رمضان المبارك.

وتتالت زياراته إلى المغرب العربي. ففي سنة 1993، أحيا حفلات للقوّات المسلّحة، أهدوه فيها درع القوات المسلّحة المغربية. وفي سنة 2000 دُعي إلى مهرجان فاس، لثلاث سنوات متواصلة، آخرها كان في الـ2004. وفي الـ2007، أحيا «أيام موسيقى الشرق»، وكانت آخر حفلاته في المغرب سنة 2009. وفي سنة 2010، حضر عرس ابن الدكتور إدريس الضحّاك، الأمين العام للحكومة.

سهرة نادرة

1977

في ليلة صيف من ليالي الزبداني البديعة...

صباح وعوده يدندن... ويغني أمام موسيقار العالم العربي محمد عبد الوهاب وزوجته نهلا القدسي، عاشقة الفن والأدب، وشاعر الحب والياسمين الدمشقي نزار قباني مع ملهمته زوجته الجميلة بلقيس الراوي. كنا مجموعة من ذواقي الفن والشعر، الذين يطربون للصوت والكلمة، نعيش ليلة توّجها رقي النغم والحضور.

كسرًا لقواعد حياته التي اختطّها لنفسه، نزل محمد عبد الوهاب السلالم التي توصله إلى سطح دارنا المشرف على سهل الزبداني، بمساعدة شباب الحراسة الذين فضلوا أن يجنبوا ستّي عمره، التي تجاوزت الست سنوات بعد السبعين، مشقة هبوط الأدراج الحجرية في هذا البيت الريفي. فحملوه على كرسي تشبث بذراعيه بقوة وهو يتمتم ببسملات تساعده على الرضا بواقع لا يجد له في تلك اللحظة تغييرًا، فسلّم حسبه لله وأمره لهؤلاء الذين يحملون الكرسي بعناية فائقة.

وصل إلى حيث وجد صاحب الدار بانتظاره، فعانقه كاسرًا قاعدة أخرى ممّا اختطّ لنفسه وهو يقول: «علي بيه... حبيبي»، ثمّ حيّا الحضور المتلهّف لرؤيته، وخصّني بكلمات مجاملة لطيفة بصوته الرخيم: «إزيّك يا مدام شذا، الله... إيه الجلسة الحلوة دي؟!».

كان الجميع قد سبقوه في الجلوس حول البركة الصغيرة التي رميتُ على سطحها بعض الورود والأزاهير، جمعتها من الحديقة الأمامية المشرفة على سهول الزبداني، بينما تدلّت عناقيد العنب من دالية كبيرة غطّت السطح الواسع بكامله، في تشكيل طبيعي بديع، اعتدنا مشاهدته في أغلب بيوت الزبداني وبلودان.

أمّا الموسيقار الكبير، فقد اختار لنفسه مكانًا آمنًا تحت سقف الشرفة العليا للبناء[1]. ذهب إليه متأبطًا ذراع صاحب الدعوة، مكرّرًا كلمات المجاملة التي برع بها.

[1] من عادته ألّا يجلس في مكان مكشوف الرأس تحت السماء أبدًا.



نهلا القدسي، شذا، والدكتور وضّاح نصّار.

التفّ الجميع مقتربين منه، وجلس صباح غير بعيد عنه يداعب أوتار عوده. بدأت السهرة اللطيفة مع عمالقة الغناء والموسيقى والأدب. غمرت النشوة قلوب الحاضرين، وتجاوب كلٌّ بطريقته مع تغريد صباح، وعبّر الجميع عن طربهم.

كان الموسيقار الكبير يردّد كلمة «الله» كلّما أقفل صباح جملة غنائية، ثم فوجئنا به ينادي: «يا علي بيه، يا علي بيه، اديني سيجار وحياة أبوك!!».

تملّكت الدهشة أبا تميم، فقال ملتفتًا إلى السيّدة نهلا: «سيجار»!!!» لأنّه يعرف تمامًا مدى كره عبد الوهاب للدخان وتجنّبه له على الدوام.

قالت نهلا والابتسامة تعلو وجهها: «معليش.. اديله.. هذا دليل أنه انطرب وسلطن، سيضعه بين شفتيه دون أن يدخّنه».

قدّم له أبو تميم علبة السيجار ليختار منها سيجاره المفضّل، ففعل، ووضعه بين أسنانه، واستمرّ يصغي إلى ملك الطرب وهو يقلب النغمات، ويتسلّى بالمقامات بطريقة لا يدرك

قيمتها إلّا من كان في مستوى محمد عبد الوهاب من العلم والاحتراف في الفن الشرقي، فكان صباح ينتزع منه الآهات المبنية على الإعجاب الشديد بإعجاز هو الأقدر على تقييمه.

مرّة ثانية ارتفع صوت الضيف الجليل قليلًا وهو ينادي: «يا علي بيه، يا علي بيه، حبيبي يا علي بيه...». اقترب منه أبو تميم ليستمع إلى طلبات ضيفه الكبير وهو يقول: «ولّع لي، حبيبي يا علي بيه، ولّع لي...» فلبّاه مع استغراب زوجته نهلا هذه المرّة. أشعل له السيجار، وصار يراقبه وهو ينفخ منه دخانًا، بينما يستمع إلى ليالٍ يؤدّيها صباح ولا يماثلها ليالي عند غيره من المطربين.

باعتراف السيّدة نهلا القدسي، أنّه لم يسبق له أن دخّن السيجار ولا السيجارة إلّا نادرًا منذ عرفته، ولكن شدّة انسجامه وطربه جعلاه يرمي بكلّ الحواجز جانبًا، ويتصرّف على سجيته.

كانت سهرة لا تُنسى، حقًّا لا تُنسى.

حفلات باريس

1978

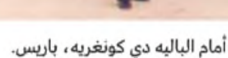
في مدينة النور، حيث يرتع الفنّ والجمال في أعلى مراتبهما، كلّ ما تقع عليه عيناك هناك فيه بصمة مبدع، ولمسة فنّان، وتوقيع مبتكر. مدينة النور التي تربّعت على عرش أوروبا الثقافي والعلمي والفنّي قرونًا، ما زالت تشعّ مبهرةً زائرها؛ من قوس النصر الذي جسّد انتصار نابليون، إلى برج إيفل الذي مثّل إبداع الهندسة وتفوّقها، إلى متحف اللوفر الذي جمع من تراث العالم وفنّه العريق خلاصة الحضارات والفنون. ناهيك عن ساحات يؤمّها عشّاق الفنّ، وهواة الرسم ومحترفوه. أمّا الموسيقى، فإنّها تتجوّل في المترو، وفي الحارات الضيّقة على أنامل عازفين مهرة، لترقى إلى واحدة من أجمل دور الأوبرا في أوروبا. من لا يحلم أن يدرس الموسيقى في الكونسِرفَتوار الفرنسي، أو أن يحضر حفلات أهمّ المطربين العالميين في الباليه دي كونغريه (Palais des Congrès)؟

هذا ما تحقّق لملك الطرب الأصيل صباح فخري.

في العام 1977، جاءته دعوة من سيّدة تونسية لإقامة حفلة في باريس، عاصمة الفنّ والجمال في عصرنا، والتي يحلم كلّ فنّان أن يحظى بفرصة للغناء فيها. ولاقت الفكرة منه كلّ تجاوب واستحسان، وداعبت فضوله لزيارة فرنسا. وكان من عادته أن يستطلع المكان الذي ستُقام فيه الحفلة قبل البتّ في الموافقة على اشتراكه في أيّ عمل يُعرض عليه. وهكذا سافر إلى مدينة النور، بصحبة الصديق الأستاذ نجاتي الحلبي، قاضي تحكيم دولي، ويجيد الفرنسيّة، ليأخذ بيده في مدينة يزورها للمرّة الأولى في حياته، ويساعده في دراسة جدوى الحفلة، وإمكانيّات نجاحها. هناك فوجئ بالإعلان عن الحفلة التي لم يتمّ التوقيع على عقدها بعد، ولا موافقته على إتمامها. وكانت اللوحات الإعلانية التي تحمل صوره تنتشر في الشانزيليزيه وأماكن أخرى. أثار ذلك في نفسه تساؤلاتٍ عن أسباب تسرّع السيّدة المهدي في الإشهار عن حفلة، قبل حصولها على موافقة صاحب الشأن.

وما كان منها إلّا أن رافقته إلى مكتبها في شارع بيرينيه، أطول شارع في فرنسا، لتثبت له مصداقيّتها في العمل الجدّي، وتوحي إليه بأنّها قادرة على إنجاح الحفل كما صمّمت له.





أمام الباليه دي كونغريه، باريس.



أمام برج إيفل.

أمام قوس النصر.

ولحرصه الشديد على إتمام هذا المشروع براحة وطمأنينة، طلب منها مبلغًا كعربون يساعد في جلب الفرقة التي أجرى لها كلّ مستلزمات السفر، لتلتحق به عند الطلب.

بدأت هنا محاولاتها التملّص من الدفع سلفًا، وغابت عنه بعد أن وعدته بجلب المبلغ المطلوب.

حاول الاتّصال بها بعد ذلك ليتابع معها العمل، لكنّه لم يتمكّن من الوصول إليها بأيّة طريقة. عندها قرّر أن يزورها في مكتبها. وما أن وصل وصديقه إلى المكان الذي سبق أن زارها فيه، حتّى فوجئ الاثنان بأنّهما كانا سيقعان في فخّ احتيال كبير، إذ لا وجود لمكتب ولا لشركة، بل اكتشفا، في الوقت المناسب، أنّه عبارة عن ضرب من ضروب النصب والاحتيال.

سارع صباح بإلغاء إجراءات قدوم الفرقة، وفي الوقت ذاته، وجد نفسه في ما يشبه الورطة. الإعلانات التي عمّت الشوارع معلنة عن حفلة لصباح فخري لم يُحدّد لها زمان ولا مكان، وأصبحت سمعته الفنّية معرّضة للقيل والقال. صمّم عندها على إقامة الحفلة على حسابه الخاص، فحاول أن يحجز مسرح الباليه دي كونغريه بنفسه، ولكنّ محاولته باءت بالفشل، لأنّه لم يكن معروفًا لدى إدارة المسرح. فقفل راجعًا إلى دمشق يلتمس حلًّا أو مساعدة.



حفل قصر المؤتمرات.

في الباليه دي كونغريه أسعفه الرأي بأن يقابل السفير الفرنسي في دمشق، والذي يعرف مكانته الفنّية في سورية، طالبًا المساعدة. وفعلًا قام السفير مشكورًا بالاتّصال برئيس بلدية باريس وقتها، جاك شيراك، الذي وجّه بدوره طلبًا إلى إدارة قصر المؤتمرات للموافقة على موعد يختاره صباح لحفلة يحييها على مسرحه.

بالفعل، بدأ الاستعداد لإقامة الحفلة، وكانت للمسرح شروط تسبق الموافقة، منها:

- تأمين مصرفيّ ضدّ أيّة أضرار محتملة من تداعيات الحفلة.
- دفع الأجور للمنظّمين.
- دفع كلّ النفقات التي تترتّب خلال إقامة الحفلة.

وافق على جميع الشروط المطلوبة. ولكنّه كان بحاجة إلى دعم الحفلة بأيّة طريقة. فاتّصل بالسفير السوري وبالمصارف جميعًا، محاولًا إنقاذ ما اعتبره مغامرة، وفي نفسه إصرار على القيام بها حتّى النهاية. وأخيرًا... وجد الدعم الفعلي من الاقتصاديّ السوري أكرم العجّة الذي لم يتردّد في تبنّي المشروع. أمّا الدعاية والإعلان، وهما العنصران الهامّان في إنجاح المشروع، فقد ساهم فيهما بعض أصدقاء صباح التوانسة، ومنهم مصطفى الشلبي الذي استلم حملة الدعاية الإعلانيّة بلا مقابل.



اعتقد، فنّاننا الكبير أنّها مغامرة مالية يخوضها بنفسه لأوّل مرّة. لذلك قرّر أن يدعم حفلته ماديًّا. فسجل أسطوانة «اسقِ العطاش»، لتُباع قبل دخول الحفلة. وكانت تلك أولى أغنياته التي دخلت الـ«فناك - Fnac[1]».

كان لسعد الله رجائي آغا القلعة[2] الذي كان يحضِّر الدكتوراه في الهندسة في باريس، مساهمةٌ فعّالة في مساعدة صديقه الأستاذ صباح في إنجاز تلك الحفلة؛ سواء على مستوى

[1] Fédération nationale d'achats des cadres، سلسلة متاجر فرنسيّة كبيرة تبيع منتجات ثقافية والكترونية.

[2] الدكتور سعد الله رجائي آغا القلعة: رجل علم وفن، درس الموسيقى في المعهد الموسيقي بحلب، ثم درّس فيه، كما درس الهندسة في جامعة حلب. وتخصّص فيها في فرنسا، ليعود أستاذًا للهندسة وبرمجة الحاسوب في جامعة دمشق. كتب العديد من الأبحاث والدراسات في الموسيقى العربية. وقدّم مئات الساعات من البرامج التلفزيونية الموسيقية والمعلوماتية منذ سنة 1985 في التلفزيون السوريّ وأغلب محطّات التلفزيون العربية. موسيقيٌ بارع في

الإجراءات الإدارية اللازمة، أو التغطية الإعلاميّة، أو تلبية طلبه أيضًا في المشاركة في عزف القانون الذي برع فيه. كذلك في إنجاز مونتاج ومكساج التسجيل الصوتي للحفلة، الذي تمّ بغرض نشر الحفلة لاحقًا على أسطوانة. وقامت بالتسجيل شركة فرنسية متخصّصة، سجّلت صوت كلّ آلة مشاركة في الحفل على قناة خاصة (truck)، حيث كان لا بدّ من الاستماع إلى جميع الآلات، لضبط نسبتها في التسجيل النهائيّ. بعد اكتمال ذلك، كان لا بدّ أيضًا من ضبط مدّة التسجيل الكلّية مع المدّة المتاحة التي تستطيع الأسطوانة استيعابها. ولمّا كان الفرق عبارة عن دقائق قليلة، وكان من المهمّ الحفاظ على ما غنّاه الأستاذ صباح بالكامل، فقد فضّل أن يحذف التقاسيم التي قدّمها في الحفلة على القانون، ليستبقي في التسجيل تقاسيم صديقه الأستاذ أسعد الشاطر على العود التي شاعت وانتشرت لاحقًا.

أمّا الموسيقي السيد عابد عازارية، فقد وضع نفسه تحت تصرّف الأستاذ صباح لإتمام الحفلة. فهو يهوى الموسيقى الصوفيّة، وقد ألّف بعد ذلك ملحمة جلجامش.

أقيمت الحفلة في 1978/5/27، وكان وقعها رائعًا؛ إذ قامت الدنيا ولم تقعد لحفلة فريدة، وقف الجمهور فيها ليرقصوا في مكان اعتادوا فيه الجلوس والإصغاء بهدوء. وضجّت القاعة، وانسجم الجمهور. ودوّى صدى حفلة باريس في سورية والعالم العربي.

يعزو صباح أسباب نجاح تلك المغامرة إلى أنّها لم تكن مغامرة غير محسوبة بالنسبة إليه، فقد أعطاها حقّها من التجهيز والتحضير. بمعنى أنّه حسب لكلّ شيء ألف حساب. وزجّ بكلّ طاقاته في سبيل إظهارها بأحسن صورة، فاستعان بأهمّ خبير هندسة صوت، السيد برينرو المشهور والمُعترف به عالميًّا، والذي جاء بأجهزته، وسجّل الحفلة بطريقة مهنية عالية وممتازة، على الرغم من وجود مهندس صوت آخر للصالة.

دامت الحفلة ثلاث ساعات متواصلة. تخلّلتها استراحةٌ لمدّة ربع ساعة فقط. التهبت بعدها الصالة بصراخ الجمهور: «كفّي الحفلة»، معترضين على طول الاستراحة. وما أن فُتحت الستارة ثانية، حتّى هبّ الجمهور واقفًا مصفّقًا، واستمرّ منتشيًا متمايلًا مع النغم والطرب، كأنّه في مهرجان للرقص.

العزف على آلة القانون. أسّس لمدرسة جديدة في العزف تعتمد مزيجًا ثريًّا بين الأصالة والمعاصرة والحداثة. شارك في تأسيس الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية، وشغل منصب وزير السياحة في سورية لمدّة عشرة أعوام. كما حاز على جوائز سورية وعربية عديدة. تميّز موسيقيًّا من خلال اتّجاهه لتوظيف تكنولوجيا المعلومات والاتّصالات في البحث الموسيقي العربي، وفي التحليل الموسيقي المقارن.





غلاف أسطوانة حفلة الباليه دي كونغزيه.

كثير من الحاضرين خلعوا عنهم قمصانهم ليرقصوا ملوّحين بها مع «يا ليليلي الليل الليل» التي أعادها وأعادها ملك الانصهار مع جمهوره. كانوا خارجين عن طورهم، في قمّة الانسجام مع تجلّيات صباح المعهودة.

وتردّدت هتافات أبناء تونس: «الحوت عليك يا صباح... للصباح يا صباح».

إنّها ليال لا تُنسى، يعيشها عاشقو الفنّ والموسيقى والطرب، لينتقلوا إلى عالم من الأحلام الصوفية الجميلة. وكأنّهم في رحلة بديعة خارج الزمان والمكان. تحلّق الروح فيها، ويتلوّى الجسد متحرّرًا من القيود، متّصلًا بالسماء.

لله دَرُّك صباح فخري. لم يقوَ مطربٌ قبلك على الوصول بجمهوره إلى حالة مشابهة من النشوة وتصعيد النفس، مظهرًا قدرة الآلة الموسيقيّة البشرية التي وضعها الله في حنجرة ابن آدم، على تهذيب النفس، ومداواة الروح، وإراحة الجسد.

لله دَرُّك، ما أخطأ من سمّاك أسطورة الغناء.

حفلة مسرح الأماندييه

كانت حفلة قصر المؤتمرات منعطفًا هامًا في مسيرة صباح فخري الفنّية، فقد حقّق فيها حضورًا هامًّا في القارة الأوروبية، وطبع أولى بصماته هناك من على أرقى مسارح أوروبا. وسجّل فيها من أغانيه ما يمكّننا من القول بأنّها أنقى ما يصل أذن المستمع من التسجيلات، والتي كنّا نتمنّى أن تُسجّل كلّ نغمة خرجت من حنجرة صباح الماسية، بالطريقة التي وزّع وسجّل فيها الصوت حينذاك.

وقد شجّعه نجاح تلك التجربة على خوض غيرها. لذلك لبّى صباح دعوة مهرجان الموسيقى الشرقية الذي أقيم على مسرح الأماندييه (Amandiers)، في منطقة نانتير (Nanterre) من ضواحي باريس في العام 1985، حيث شاركت عدّة دول عربية في ذاك المهرجان.

ويذكر صباح أنّه من بين الذين ساهموا في إحياء الحفلات، كان المقرئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد الذي استقطب حضورًا لافتًا استمع إلى تلاوته بمنتهى المتعة والتذوّق. وقد خُصِّص لكلّ مشترك يوم واحد، إلّا صباح فخري، خصِّص له يومان.

وتروي السيّدة فاطمة الزهراء انطباعها عن تلك الحفلة بحيويّتها المعهودة، وذاكرتها نادرة المثيل، فتقول: «لا أنسى أنّ القاعة امتلأت، ووقف الكثيرون في الممرّات وعلى الأدراج. ومنهم أناس مرموقون، نسوا أنفسهم وهم يستمعون إلى الطرب الأصيل».

ولا شكّ في أنّ صباح فخري نجح في اختيار الأغنية والنغم في مهرجان يختلف عن الحفلات الأخرى؛ إذ تعمّد أن يقدّم فيه موشّحات وقصائد غير مشهورة، فكان برنامجه، كما رواه بنفسه، الآتي:

«ابتدأت كالعادة بموسيقى سماعي عجم للشيخ علي الدرويش. وقع اختياري عليها لأنّها من مقام الماجور، وهو سهل التلقّي للأذن التي اعتادت سماع الموسيقى الغربية.

فموشّح:

من لِصبٍّ في الهوى	صاده لحظُ الغزال
حيث غزلان اللوى	أقبلت تبغي النزال



أنس ووالدته في مسرح الأماندييه.

دون ذياك الخِبَا	بارت القوم العزاز
من كونِّهُ بالجوى	لم يزل يبدو هُزال

من ألحان الشيخ عمر البطش، ماجور، سماعي عجم.

تلاه موشّح:

ما لعيني أبصرَت	أرضنا قد أقفرَت
وغدا الظبي بعيد	وبكائي لا يفيد
طاب لي فيها الهوى	واستقرّت بالنوى
عاملتني بالجفا	وهي لا تدري الوفا

ثمّ طقطوقة سيد درويش المحبّبة:

زوروني كلّ سنة مرّة
حرام تنسوني بالمرّة
قولوا لي عملت إيه فيكم
تشاكوني واشاكيكم
وانا طول عمري بداريكم
حرام تنسوني بالمرّة

ثمّ أغنية سيّد درويش:

طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة
يللا بنا نملا ونحلب لبن الجاموسة
واقف عالنبع يملّي أسمر وحليوة
عوج الطاقية وقال لي غنيلي غنيوة

ثمّ أغنية من الفولكلور العراقي البستات:

طالعة من بيت أبوها	رايحة لبيت الجيران
لابسة الأبيض والأحمر	والعيون تضرب سلام

عدنا بعدها إلى موسيقى سماعي جهاركاه، وموشّح من ألحان عمر البطش. أحبّ أن أنوّه هنا إلى أنّه إذا أردنا أن نمتحن مطربًا، نطلب منه أن يؤدّي جهاركاه:

كلِّلي يا سحب تيجانَ الربى بالحلي
واجعلي سوارها منعطف الجدول
يا سما فيك وفي الأرض نجوم
وما كلّما أغرقتِ نجمًا أشرقت أنجما

هذا الموشّح لابن سناء المُلك وهو رائع كلماتٍ ولحنًا.

وأيضًا من ألحان البطش:

أنت سلطان الملاح يا ملك أنت ملك
زدتَ هتكي يا غزال والهوى يا ما هتك
لو تراني يا حبيبي قلبي من بعدك هلك
جدّ بي داع الهوى والجمال يا ما فتك

أمّا من تونس، فقد اخترت «باسم عن لآل» لشهاب الدين الموصلي، من ألحان الدكتور المهدي.

أمّا من ألحان كميل شامبير، الملحن الحلبي، فقد اخترت أغنية كلماتها مصرية:

وحياة عيني ما مِيل للغير	وأنا كلامي بارول دونير
تسوق عليّ ليه الدلال	قالولي عنك ابن حلال
حسنك يجنّن مالوش مثال	والقلب برضه ميّال إليه

ومن الفولكلور القديم، أغنية قصّتها مشهورة؛ حين حمل العثمانيون الأتراك على ظهر سفينة تدعى Rosana كمّيات من الفاكهة والبضائع، واتّجهوا بها إلى ميناء




مع أولاده في باريس.

بيروت منافسين المنتج اللبناني بأسعار مضاربة، يومها استنجد التجّار البيروتيّون بنظرائهم في حلب. فما كان من أولئك إلّا أن اشتروا البضائع البيروتية كلّها قبل أن تصل الروزانا الإيطالية بحمولتها، فغنّى لها أهالي بيروت وحلب:

عالروزانا عالروزانا كلّ الهنا فيها
وإيش عملت الروزانا الله يجازيها
يا رايحين ع حلب حبّي معاكم راح
يا محمّلين العنب تحت العنب تفّاح.»

أحبّت أم أنس أن تذكر ما لا تنساه، عندما غنّى صباح هذه الأغنية. وبلغ من حماس الجمهور أن إحدى السيّدات تسلّقت خشبة المسرح، واقتربت من صباح ممّا اضطرّ رجال الأمن إلى حملها وإنزالها إلى مكانها.

أكمل صباح:

«أمّا من الفولكلور الحموي القديم، فقد غنّيتُ:
عاللالا ولالا ولالا يابا
ليش الزعل يا خالة

وهي ما زعلت مني يوبا
هي زعلت لحالا
والله لَعَبّي الجرة يوبا
من ميتك يا العاصي
وحبّي راسه بيوجعه يوبا
ريت الوجع لراسي

عدت ثانية إلى سماعي حجاز كار، وأتبعته بموشّح لعمر البطش:

مُرَّ التجنّي بديعَ المحيا | حلو التثنّي أدر لي الحُميّا
لا تنأَ عنّي دلالًا وغيّا | فالعِشق فنّي وأين الثريا
حسبي غرامي ونيران وجدي | والدمع هامل وليس يجدي

وبموشّح آخر للبطش، في آخرها سماعي دارج أو الطاير، يهيّئ الجمهور للحركة والرقص:

أفديه ظبيًا ابتسم | في خده الخال ارتسم
أهواك يا بدر قسم

ولم أزل أهوى الغزل | وصادني ساجي المقل
في خده تلقى البياض | هيا بنا إلى الرياض
والجفن منه السحر فاض

ومن الفولكلور اللاذقاني اخترت:

يا طير اللي عالشجر | فرحان بطلعة القمر
اكمن وليفك وياك | وانا وليفي اللي هجر
إن شفت حبّي في هيام | من يوم غيابك يا قمر
قسمًا بمن فلق النوى | وأذلّ أرباب الهوى
جسمي من النار انكوى | من يوم غيابك يا قمر

ثمّ عدتُ إلى ألحان سيّد درويش، وكلمات بديع خيري:

يا ناس أنا متُّ بحبّي | جُم الملايكة يحاسبوني
حدّش كده قال

أوّل سؤال سألوني عليه | عن السبب في لوم العزّال
قلت لهم حبي الحقّ عليه | خلّى اللي عمره ما قالش
أهو قال وبقينا أمثال

قالولي ليه تبكي يا ولهان   وحبيبك اليوم فيك مأنوس
قدّامك أهي جنّة رضوان   واخترت أنا جنّة فردوس

ولهذه الأغنية قصة: كان سيّد درويش متزوّجًا من سيّدة اسمها رضوان، وأخرى اسمها فردوس. أحبّ أحد الظرفاء أن يعبث معه، فأرسلَ بالكنافة إلى منزل السيّدة رضوان. قال لها:

— حضرتك زوجة سيّد درويش؟
— نعم.
— اسم حضرتك إيه؟
— رضوان.
— لا، دي لبيت الست فردوس.

وفعل الشيء نفسه مع السيّدة فردوس. ليلتها امتنعت الزوجتان عن استقبال سيّد درويش. فلمّا وقف على باب فردوس طالبًا أن تستمع إليه، قالت:

— أصفح عنك إذا غنّيت لي أغنية لم تغنّها قبل اليوم.

فغنّى لها الأغنية المذكورة.

أمّا «ماريّة يا مسوسحة القبطان»، فيقال إنّها من الشعبي اللاذقاني:

يا ماريّة يا مسوسحة القبطان والبحريّة
جننتينا يا بنت ويا سمرة وجننتينا
ولا تنسينا وبالله ردّي ردّي علينا
يا زماني عود لي تاني عود لي تاني

ثمّ أطربتُ بدور «ياما انت واحشني»، ألحان محمد عثمان، وكلمات محمد درويش:

ياما انت واحشني وروحي فيك
ما مآنس قلبي لمين أشكيك
ويبلغ الصابر أمله
أنا حالي ببعدك لم يرضيك
كيد العواذل كايدني بس اسمع شوف
دا انت مالكني من قلبي يا سيدي بالمعروف
يا مالك قلبي بالمعروف الحبّ كواني تعال وشوف
حبّك كواني تعال وشوف

ستر العذول دايمًا مكشوف
يا ما نسمع بكرا وبعده نشوف
وأنا بالصبر أبلغ أملي
يا مالك
بالمعروف بالمعروف يا مالك قلبي
تعال تعال
يا عيني تعال، والنبي تعال، وشوف
يا مالك قلبي بالمعروف
الحبّ كواني تعال شوف

وختمتُ به الحفل لانتهاء المدّة الزمنية التي حدّدتها إدارة صالة الأماندييه.»

ما أن انتهى صباح من كلامه، حتّى رفعت فاطمة الزهراء صوتَ محمولها بأغنية «يا ما انت واحشني» في تسجيل لحفلة الأماندييه ذاتها. وظهر فيها انسجام الجمهور وتجاوبه بالتصفيق. وما لم يستطع التسجيل إظهاره، وصفَتهُ لي أم أنس قائلة: «يا ريت كان في تصوير يا أم تميم، لرأيت بأمّ عينك هيجان الجمهور وهو يرقص ويتمايل وقد تخلّى عن الكراسي، ورفع الأيدي بالمناديل». وكادت عينا فاطمة الزهراء تدمعان تأثّرًا بالصوت المبدع والأداء الرائع. ولم تلبث أن وقفت متخلّية عن وقارها المعهود، وبدأت تتمايل راقصة على أنغام «يا مالك قلبي بالمعروف» أمام صباح. كنّا نرقبها، أنا وصباح، بمنتهى الإعجاب والشغف. كلماتٌ بسيطة كانت تتكرّر على لسان صباح، بنغمة مختلفة في كلّ مرّة، فهو يصدح بـ«اسمع شوف»... ويترجّى بـ«يا سيدي بالمعروف»... ويتحرّق بـ«حبّك كواني»... ويتذلّل بـ«تعال تعال يا عيني تعال»... ويتدلّع بـ«والنبي تعال»... يغيّر في النغمات، ويرتفع بطبقات الصوت، يرقص مع الجمهور الراقص، يهدّئه حين يريد، ليطربه بالصوت القادر العجيب، ويستثيره متى شاء، ليحلّقوا معًا. لا شكّ في أنّها حالة، وليست أغنية كما يؤدّيها صباح.

بتُّ أتخيّل المشهد وأعيشه، كما لو كنت في صالة الأماندييه: أرى الناس يتماوجون من أماكنهم رقصًا وطربًا، على الكراسي، وعلى الأدراج. إنّها حقًّا حالة نادرة اسمها صباح والجمهور.

في مَسْرَح مَعْهَدِ العَالَمِ العَرَبي

فرنسا 1993

هذه المرّة، وقع اختيار مدير المسرح المغربي، السيد مطالسي، على الأستاذ صباح فخري للغناء على مسرح معهد العالم العربي في باريس. وكان المسرح لا يتّسع لأكثر من 400 شخص. لذلك اضطرّ صباح لإحياء ثلاث حفلات متتالية، كانت ناجحة كالعادة، وغصّت بالحضور المتحمّس والمتجاوب مع الطرب والغناء الأصيل.

وفي جواب على سؤال طرحتُه على الأستاذ صباح، بالنسبة إلى حفلات فرنسا، قال:

«للحقيقة الصادقة، في البالي دي كونغريه، كان همّي إنجاح الحفلة، والارتقاء بها إلى مستوى الحفلات العالمية للمطربين العالميين. وقد تحقّق لي ذلك بإذنه تعالى.

أما الربح الماديّ، فلم يكن يوازي نجاح العمل، وصداه. وما كان هذا هدفي، لكن يمكنني القول إنّ أُفقًا جديدًا فُتح لي من باريس.

أمّا عن حفلات الأماندييه، فكان دخلها مقطوعًا. لم أتحمّل وحدي مصاريفه. كذلك كانت حفلات المعهد العربي، وكنت أراعي إمكانيّاتهم المحدودة، ولا أبالغ بأرقام غير معقولة.

وأقولها صادقًا، إنّني لم أطلب من الحفلات التي أقمتُها، عامّة أو خاصّة، ما يعادل كفاءة صوتي، بل ما يعادل إمكانيّات الآخرين.

وتكرّرت بعدها حفلاتي الخاصة في مدينة كانت على الشطّ اللازوردي، بدءًا من سنة 1986؛ إذ كنت أحيي سنويًا، كلّ صيف، حفلات للجاليتين السورية واللبنانية.»



1979

«شركة دمشق تقدّم من تراثها الخالد، البرنامج الغنائيّ «نغم الأمس» ويحوي أروع الأنغام والألحان الشرقيّة الأصيلة التي أحبّها وردّدها الناس في جميع أنحاء وطننا العربي. وبصوت صنّاجة الغناء العربي، صباح فخري»، تلك هي مقدّمة البرنامج التي كانت تسبق كلّ حلقة.

لا أبالغ إن قلت إن هذا العمل التلفزيونيّ هو موسوعةٌ مسجّلة لتراث كان معرّضًا للنسيان، وربّما للاندثار. حماهُ من الضياع، وأحياه من يملك الصوت والمقدرة والعلم ليؤدّي أصعب النغم، وبديع الكلمة.

إنّه كنزٌ موسيقيّ عربي، احتوى مائة وستّين لحنًا ما بين موشّح وقصيدة ودور وموّال. كانت تلك فكرة المخرج جميل ولاية الذي ثابر على جمع كنوزنا الفنّية وحفظها في بنك الإعلام التلفزيونيّ، حرصًا منه على إرث الأجداد من الانقراض. ولم يجد خيرًا من صباح فخري، صاحب الصوت القادر والمخضرم، لينقل إليه رغبته الجامحة تلك. وكأنّه ألقى بالكرة في يد من يحتضنها، ويتقن نشرها وصيانتها. وهكذا، كان مسلسل «نغم الأمس» منفردًا في حماية التراث، ليبقى مرجعًا للأجيال القادمة.

«نغم الأمس» هو مسلسل تلفزيونيّ من ثلاثة عشر حلقة، تحكي كلّ حلقة قصّة حبّ، أو حكاية نغمة، أو قراءة عن موشّح:

- الحلقة الأولى: الغيرة
- الثانية: الأبواب المغلقة
- الثالثة: الخمار الأسود
- الرابعة: رسالة حبّ
- الخامسة:خريف وربيع
- السادسة: العروس
- السابعة: شادي الألحان




صباح فخري في «نغم الأمس».

- الثامنة: العودة
- التاسعة: أصل الغرام
- العاشرة: قيس ولبنى اليوم
- الحادية عشرة: شادي وجلنار
- الثانية عشرة: الجدران العالية
- الثالثة عشرة: حقيقة وخيال

أضاف صباح إلى تلك الحلقات «اِسق العطاش» لتكون الحلقة الرابعة عشرة.

من خلال الحوار بين الممثّلين، يدور شرح عن الموسيقى العربيّة، وتُتناول نغمة من الأنغام الشرقيّة بتفصيل علمي راقٍ، يغنّي فيه صباح فخري ما يلائم ذلك الشرح.

فالمقامات الشرقيّة يمكن تلخيصها بأحرف هذه الكلمتين «صنع بسحر»:

- صبا
- نهوند - نوى
- عجم - عراق
- بيات
- سيكاه
- حجاز
- راست

وكان الشرح يتناول في كلّ حلقة نغمةً من تلك.

والحقيقة إنّه عمل أكاديميّ هامّ، حتّى أنّ معاهد الموسيقى العالميّة التي تدرّس الموسيقى الشرقية، أصبحت تستشهد بـ«نغم الأمس». ولا ننسى أنّ صباح قدّم نسخة منه كهدية لجامعة UCLA لوس أنجلوس، كليّة الفنون والموسيقى. وبات هذا العمل مرجعًا موسيقيًّا عاليِ الأهميّة يدرس في الجامعات.

وكان لا بدّ، في كلّ حلقة، أن تحتوي على:

- موشّح
- قصيدة أو دور
- موّال
- قدود

وقد أدار الحوار وأخرجه جميل ولاية، وهو الفنان الحلبي المتميز، والذي كان له دور في شركة دمشق للسينما للإنتاج الفنّي. دخل عالم الإخراج الإذاعي والمسرحي والتلفزيوني هاويًا ومجتهدًا، ورافق الشاشة الصغيرة منذ ولادتها. وله من الأعمال الإذاعيّة والتلفزيونيّة ما بقي ذخرًا للأرشيف العربيّ.

وكتابه «حلب بيت النغم» يدعم مكانة حلب الفنيّة تاريخيًا، والتي لا ينكرها أحد.

ولا شكّ في أنّه يمكننا أنّ نصنّف «نغم الأمس» في قمّة أعماله التي اعتنت بالموشّح وبرقص السماح أيضًا.

«انتهينا»

كلّ القصائد التي غنّاها صباح تذوّقها. أحبّها فاختارها. ولحّن منها ما اعتبرها من بناته.

لكلّ قصيدة ولادة. ولكلّ ولادة قصّة. ولأغنية «انتهينا» قصّة يرويها صباح:

> «شرّفني مرّة الشيخ عبد العزيز محي الدين خوجة، سفير المملكة العربية السعوديّة، بزيارةٍ إلى مكتبي في نقابة الفنانين مهنّئًا، بعد أن استلمت منصب النقيب. وقرأ لي قصيدةً من ديوانه لألحّنها وأغنّيها. فطلبت منه الديوان كلّه لأقرأه على تأنٍّ، وأنتخب منه ما ينسجم مع مزاجي. قرأت فيه قصيدة أعجبتني، وكان قد وضع لها عنوان "قد كفانا ما لقينا".»

تحكي القصيدة نهاية قصّة حبّ وغرام مليئة بالألم ومتعة الحرمان والحزن، وفيها مشاعر وصور بديعة:

انتهينا... أين ذاك الخفق في صدري غذاءً لحَنانِي
انتهينا... وانتهى العشق الذي كان لحنًا للأغاني
وافترقنا وكأنّا ما مكثنا في الهوى إلّا ثواني
كذبةٌ كبرى غرامي ولهيبي وضرامي
مات شوقي يا فؤادي وانتهى عهد هيامي
يا غرامًا كنتَ بالأمس غذاءً لحياتي
ضاع أمسي من يدي وانتهينا كالرُّفات
يا غرامًا صرتَ نارًا في ضلوعي
صرت جمرًا وشجونًا في دموعي
يا غرامًا صرت في عمري قيودًا
كلُّ من أهوى يجازيني صدودًا
مسرِفًا في غيّه صلفًا جحودًا
يا فؤادي قد كفانا ما لقينا
قدري في الحبّ أن أحيا حزينًا

وقد اختار صباح أن يسمّيها «انتهينا».

قصيدة جميلة، فيها الكثير من المعاناة. وكأنّ الشاعر قد مرّ في تلك التجربة الحزينة فدوّنها شعرًا، برغم أنّ الحزن لم يسيطر على حياته؛ فقد تنقّل سفيرًا في عدّة بلدان، ثمّ أصبح وزيرًا للإعلام في المملكة. والشاعر عندما يمرّ بلحظات حزنٍ، فإنّه يسجّلها لتكون لوحةً جميلة كالتي نسمعها في قصيدته.

وقد وضع صباح المقدّمة الموسيقية واللحن في الجلسة ذاتها، مستخدمًا نغمة البيات مقام كرد.

وهي من القصائد التي أحبّها الجمهور، وتذوّقها نقّاد الفن الراقي كلماتٍ ولحنًا.

ولكنّها لم تنل برأي الكثيرين ما تستحقّ من الشهرة والانتشار، برغم القيمة الفنّية والأدبيّة العالية فيها، والأداء المطرب الرائع الذي لا يماثله إلّا غناء صباح ذاته. ربّما كان السبب

هو رنّة الحزن العميقة التي تحيط بالأغنية، والتي يقدّرها الجمهور، ولكنّه يهرب إلى النغم المفرح دومًا.

هناك تعليق لأحد النقّاد (عمرو باش آغا)، يقول فيه:

> ما أودّ الإشارة إليه هو أنّ أجمل ألحان الأستاذ صباح هو قصيدة «انتهينا». وهي من مقام الكرد. إن دقّقنا فيها، سنجد أنّ الأستاذ صباح صاغ مقدّمتها الموسيقية والمذهب (بتعاملٍ غير تقليديّ مع مقام الكرد، وفيه ابتكار). لم أسمع كردًا مثله. ولا أقول ذلك تعصّبًا، بل عن قناعة وشعور حقيقيّ باللحن.
>
> وميزة القصيدة أيضًا - وهذا ما يؤكّده الأستاذ صباح دائمًا - هو أنّها تصوّر المعاني؛ فنجد أوّل كلمة «انتهينا» اللحنَ معبّرًا عن الكلمة بشكل بديع. وعند «أين ذاك الخفق بصدري»، نجد تصوير معنى «ذاك»، فيمدّ الألف للدلالة على إشارة البعيد. وكلمة «صدري» لُحّنَت بطريقة صعبة لا يعرف أن يقولها إلّا الأستاذ صباح نفسه، فقد كانت تعبّر عن خفقان الصدر بحقّ. وعند «انتهينا وانتهى العشق الذي كان لحنًا للأغاني»، نجده هبط بالنوطة وجعل اللحن انسيابيًّا، وكأنّه يصوّر تعبير «العشق الذي كان لحنًا للأغاني»، فأعطى اللحن طابعًا رومانسيًّا. وعبّر اللحنُ عن الافتراق وانتهاء الأمر في «وافترقنا»، لكنّ الآتي هو قمّة الإبداع؛ انتبهوا إلى «وكأنّا ما مكثنا في الهوى إلّا ثواني»، لاحظوا كيف تسارعَ اللحن. ليس تسارع «رتم»، بل تسارع تعبيريّ تصويري لمعنى البيت، بأنّ عشرة سنوات أصبحَت في الذاكرة مجرّد ثوان عدّة بسرعة، وانتهت. تصوير لحنيّ للتسارع يستفيد منه أيّ مخرج لدقّة تعبيره. وعبّرَ بالتسارع من كلمة و«كأنّا» حتّى «إلّا»، ثمّ ترك «ثواني» لوحدها، ليعبّر عنها تعبيرًا بغاية الروعة.

مِنْ جَدِيد .. فنزويلّا

بعد غياب طال حوالي اثنتي عشرة سنة، اجتاز صباح فخري المحيط مرّة أخرى، برفقة زوجته فاطمة الزهراء. ليقوم بجولة في فنزويلا التي تعطّشت للقائه.

طافت معه فاطمة في ما يشبه المهرجان المتنقّل. استقبلهم أبناء الجالية السورية بترحيب نابع من القلب. وما زالت أصداء الزيارة الأولى تتردّد على مسامعهم، وتعشّش في ذكرياتهم المحبّبة.

فالجالية السورية متبيّنة هناك، وتعدادها كبير، ومنتشرة في المدن الرئيسة من جمهورية فنزويلا. كما أن قسمًا لا يستهان به منها منخرط في الحياة السياسية، تتوازعهم الأحزاب اليسارية واليمينية.

تضمّنت الجولات الفنّية التي قام بها صباح بصحبة زوجته، رحلاتٍ سياحية ممتعة في كثير من المدن والمناطق الجميلة، مثل: ماراكاي، كاراكاس، سيوداد بوليفار...

أقيمت كلّ الحفلات حينها مع موائد العشاء. ولا تخفي فاطمة الزهراء أمنيتها بأن تكون هذه الحفلات قد أُقيمت على مسارح عوضًا عن المآدب.

في العام التالي، أي سنة 1981، قام صباح بجولة فنيّة مع فرقته الموسيقيّة.

لاقت أولى حفلات ذلك العام، في كاراكاس، نجاحًا باهرًا. ولكنّ حادثة مؤلمة غيّرت مجرى الرحلة. إذ ذهب متعهّد الحفلات يومًا، ليأتي بالفرقة الموسيقية إلى المكان الذي كان فيه صباح، فصدم الحافلة التي يقودها بسور الفندق، وأصيب عازف التشيللو، عادل حريتاني، إصابة بالغة إثر اختراق أحد أعمدة السور صدره. أجريت له هناك العمليات اللازمة حتّى تماثل للشفاء واستعيض عنه بعازف آخر، ولكنّ صدى الحادث جثم على صدور الفرقة التي بدا التأثّر عليها واضحًا، وأفسد جو المرح، تعاطفًا مع زميلهم الذي بقي شهرًا في المستشفى، فاضطرّ صباح إلى إلغاء بقيّة الحفلات.





إحدى الحفلات في النادي السوري الفنزولّي (1997).



رئيس النادي السوري الفنزولي، مع أعضاء مجلس الإدارة، يقدّم شهادة التقدير.

وما زاد الطين بلّة، أحداث الثمانينات في حماة وحلب، والتي ألقت بظلالها على أبناء الجالية، متأثّرين بالوضع السياسي الداخلي.

كان من الحكمة يومها أن ينهي صباح كافّة التزاماته في أمريكا الجنوبية، ليكمل رحلته سائحًا عاديًّا في الولايات المتّحدة الأمريكية.

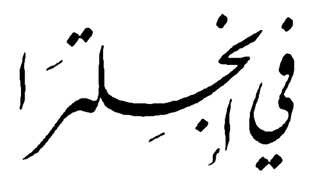
قضى صباح شهرًا ونصفًا في هذه الرحلة، زار خلالها ميامي ونيو جرسي ولوس أنجلوس، والتقى فيها بأصدقاء ومحبّين في كلّ مدينة زارها. وهناك قدّموا له العروض والدعوات لإحياء حفلات في أنحاء أمريكا الشمالية.



مع رئيس الجالية السورية في لندن، نبيه المقيّد.



الرويال فستيفال هول.



تمّ تنظيم هذه الرحلة من قبل الجمعيّة الفنّية البريطانية التي اعتادت أن تستضيف مشاهير الفنانين من العالم، في جولات على المقاطعات البريطانية، بين المدن والبلدات، تشجيعًا على تبادل الثقافة الفنّية الموسيقيّة. وليطّلع المواطن الإنجليزيّ على التراث الموسيقي للشعوب، من كافّة أنحاء العالم. ورُشّح صباح فخري، من العالم العربيّ، ليكون أهمّ من يُعَرِّف بالتراث الموسيقيّ العربيّ الأصيل. وتمّ اختيار الأماكن من قبل اللجنة، في تنوّع جغرافي وتراثي توزّع في أنحاء المملكة البريطانية، الهدف منه عرض هذا التراث الفنّي الموسيقي على جمهور مختلف بفولكلوره من منطقة إلى أخرى.

ورافق الأستاذ صباح، في جولته تلك، الأستاذ نضال قبلان مندوبًا عن ال«بي بي سي» ومترجمًا للغتين الإنجليزية والعربية. كانت الحفلة الأولى في الرويال فستيفال هول (Royal Festival Hall) في لندن العاصمة. وقد حضرها جمهور كبير توَّجهُ عدد كبير من السفراء. كانت حفلة ناجحة، لاقت تجاوبًا هائلًا من الجمهور العربي، وكذلك الغربي.

في مانشستر (Manchester) جالية عربيّة كبيرة جدًّا، عمادها اليمنيّون (قدم اليمنيّون إلى لندن على متن السفن بطرقٍ غير شرعيّة، وأقاموا في بريطانيا، وصاروا من أصحاب المصانع ولا سيّما النسيج منها). كان اللقاء بالجماهير مميّزًا، إذ تجاوز عدد المتفرّجين خارج قاعة العرض مَن هم في داخلها، وغصّت المقاعد بالناس، ووقف مَن لم يحالفه الحظّ بمقعد بينما احتشد باقي محبّيه خارج المبنى، مكتفين بسماع صوت مَن أَطرب العالم وشغل الناس...

تضمّنت الجولة حفلة مهمّة في كاردِف (Cardiff)، عاصمة مقاطعة ويلز (Wales). هناك غنّى في مسرح صمّم بطريقة رائعة، وكأنّه دار أوبرا مصغّرة. في هذه المدينة كان الحضور غنيًّا بجمهور من اليابان وشرق آسيا... واكتظّت القاعة بجمهورٍ كان تجاوبُه مع صباح رائعًا، لا يقلّ عن صدى حفلاته المعتادة.







صباح فخري يعلّم الأطفال الإنجليز بعضًا من الغناء العربي بأصوله (1987).

وزار، في جولته، بلدةَ تشيسترفيلد (Chesterfield) الصغيرة، التي تقع على بعد أحد عشر ميلًا جنوب شيفيلد (Sheffield). هذه البلدة التي كان اقتصادها يعتمد على مناجم الفحم الحجري حتّى ثمانينات القرن العشرين، وتميّز فولكلورها بالنمط الشعبيّ الخاص.

تضمّنت الجولة أيضًا زيارةَ مدارس بريطانية، منها مدرسة ابتدائية حكوميّة في لندن، شرح فيها صباح تاريخ القدود والموشّحات، وأسمعهم نماذج منها بمرافقة عازف إيقاعٍ وآخر على القانون.

وفي هذا الإطار يقول صباح:

> «كنت أتكلّم عن السلالم الموسيقيّة الشرقيّة والغربيّة، والمشتركة منها مثل مقام الماجور، المسمّى عجم، والنغمات العربيّة، أسمائها، تدوينها... كان من الصعب أن أجعلهم يغنّون بلغة لا يفهمونها، فطلبت منهم أن يغنّوا معي "ليلي ليلي الليل الليل..." من مقام النهوند، وقد كان تجاوبهم مع النغم رائعًا. وظلّوا يردّدون "الليل الليل..." بالنغم الصحيح. فالموسيقى لغة عالميّة، ولا تحتاج إلى ترجمة...»

كان صباح يلقي محاضراته باللغة العربيّة، بينما تطوّع الأستاذ نضال قبلان[1] لترجمتها (إذ كان شغوفًا بالموسيقى الشرقيّة، ومتابعًا للفنون)، وكان له الدور الأكبر في نجاح الزيارة إلى المملكة المتّحدة.

كانت جولة ثقافيّة ممتعة تعرّف خلالها الفنّان الكبير إلى الريف البريطاني الجميل، وعرّفَ بالتراث الشرقي، وأوصله إلى آذان الجمهور البريطاني وعقوله. وكانت الجالية العربية كثيفة الحضور للاستمتاع بالغناء والمحاضرات.

كما كان لصباح لقاء على إذاعة الـ«بي بي سي» باللغة العربية؛ أداره الأستاذ قبلان واستمع إليه ملايين العرب عبر الأثير.

تميّز الجمهور البريطانيّ بإصغائه في جميع الحفلات التي أحياها صباح، وبخروجه عن وقاره المعهود لينهي اللقاء واقفًا وهو يصفّق متمايلًا، كما يحدث في أغلب حفلات صباح فخري، إن لم نقل جميعها.

---

[1] هذا النصّ استقيتُ معلوماته من الأستاذ الدكتور نضال قبلان الذي كان وقتها معدًّا للبرامج العربية في إذاعة الـ«بي بي سي» البريطانية، وكان له أياد بيضاء في رحلة صباح الفنية إلى انجلترا، إذ كان يهوى الموسيقى ويعزف على الناي، ورافق صباح في جولته في أنحاء المملكة المتحدة. وقد عمل مطوّلًا في مجال الإعلام، كما مثّل دولته سفيرًا في العاصمة التركية.



السفير علي المدني وعقيلته شذا نصّار.

مرورًا بأثينا

نزولًا عند رغبة معظم أعضاء الجالية السورية، كانت رحلة صباح إلى أميركا الشمالية، وذلك بعد محطّة جميلة في أثينا، بات فيها أربع ليالٍ في منزل صديقه الحميم، السفير السوري علي المدني. وأحيا هناك حفلة دُعي خلالها السفراء العرب وأصدقاء من الجاليات العربيّة.[1] كانت ليلة لا تُنسى، أبدع فيها صباح بصحبة عوده الذي دندن معه طيلة السهرة. وما لم يفارق ذاكرة الحاضرين، أذان الصبح الذي أتبعه صباح بـ«طلع البدر علينا». فصاح أحد المدعوين، الأستاذ شوقي الأرملي - ممثّل منظّمة التحرير، وهو من الأشقاء المسيحيين - «أشهد أن لا إله إلا الله»، إعجابًا وتحبّبًا.

ولم تنسَ أم أنس كم كان جميلًا رقص السماح الذي شارك به صباح أهل الدار، بعد ذهاب غالبية الضيوف. ذكريات لا تُمحى من ذاكرة صباح وفاطمة الزهراء، قضيا فيها أيّامًا في أثينا، بين «فاري» حيث الخواريف المشوية تدور على الفحم، و«توركوليمانو»، ذلك المرفأ المليء بمراكب الصيد القديمة، يقدّم اليونانيون فيه ألذّ مأكولاتهم الشعبية، وسهرات البوزوكي وتكسير الأطباق، تلك التي تبتدئ من منتصف الليل، والتي يبدي المنطربون فيها انسجامهم وتجاوبهم مع المطرب بكسر الصحون.

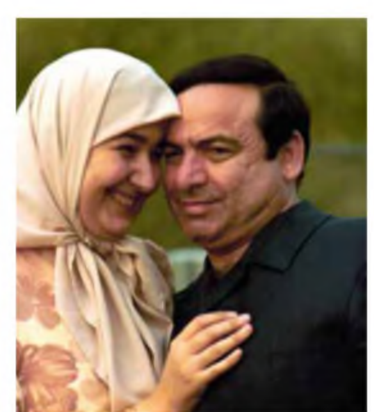
لم يغب عن ذهن السفير وعائلته أن يطلِعوا صباح على الفنّ اليوناني الجميل في إحدى حفلات البوزوكي، والتي كان يحييها مطرب معروف يُعجب به اليونانيون كثيرًا، ويكسرون له الصحون تحت قدميه، وينثرون عليه أزهار الغاردينيا، ويرقصون من حوله تعبيرًا عن إعجابهم. ليلتها سئِل صباح عن رأيه، فهزّ رأسه مجيبًا بمثل حلبي قديم «كل هالبيض ما بعبّي مقلاية»، دالًّا على عدم انبهاره بالصوت. ولكنّه أبدى إعجابه بالجوّ العام، وبفرح الناس وسرورهم.

---

[1] وعلى رأس الحاضرين: السفير اللبناني سهيل شماس الذي كان وقتها عميدًا للسلك الدبلوماسي العربي، والسفير السعودي عبد الله الملحوق، والسفير الجزائري محمد الميلي وزوجته الإعلامية المتميّزة زينب، والسفير المغربي محمد الفاسي، والسفير الأردني عواد الخالدي، وممثّل منظّمة التحرير الفلسطينية شوقي الأرملي، والسفير الكويتي محمد صالح. وأصدقاء من الجاليات العربية، نذكر منهم عائلة الأستاذ طلال الزين، والوزير السابق نعمان الزين، وغسان غندور، وعائلة المرحوم علاء الدين البحري، وآل البساتنة وغيرهم من نخبة المجتمع العربي في أثينا.

إلى أمريكا الشماليّة





في شلالات نياغارا.

في هذا الخصوص، يقول صباح:

«كانت أيّامًا جميلة قضينا فيها أوقاتًا سعيدة بين أعزّ الأصدقاء. انطلقنا إلى مطار ديترويت، ومنه بالسيّارة إلى ويندسور حيث قضينا ليلتنا، ثمّ إلى مونتريال في صباح اليوم التالي بمسيرة ثماني ساعات بالسيّارة، حتّى وصلنا إلى الشيراتون حيث تقام الحفلة الغنائية.»

تتدخّل فاطمة الزهراء:

«كانت رحلة شاقّة بكلّ ما للكلمة من معنى، برغم أنّها بدت ممتعة. وما لا يغيب عن ذاكرتي، أنّني بعد هذا السفر المتعب، كان عليّ أن أساعد صباح في ارتداء ثيابه تحضيرًا للحفلة، وبينما راح يسرّح شعره، رفعت يدي بمثبّت الشعر لأنثره على آخر لمساته، لم أشعر بنفسي إلّا وقد غفوتُ وأنا واقفة.»

إنّها ذكريات جميلة برغم التعب الذي قاساه.



حفلة تكريم صباح فخري، قاعة رويس في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (1992).

عاد الجميع إلى ويندسور ليقيموا في فيلا جميلة مع حديقة لطيفة، يملكها مواطن لبناني زرع فيها من البقدونس والنعنع والبصل الأخضر ما كان يكفي فاطمة لتنكّه به مأكولاتها اللذيذة.

أمّا الحفلة التالية، فكانت في تورنتو التي تبعد حوالي الأربع ساعات بالسيّارة.

وتروي فاطمة الزهراء:

«في اليوم الذي تلاه، زرنا والفرقة شلّالات نياغارا، وركبنا القارب الذي يقترب من الشلال، حيث غمرنا برذاذه. وهو شعور لذيذ لا مثيل له.

وأكملنا جولتنا السياحية بصعود البرج قبالة الشلال الهائل، فاستمتعنا بمشهد نادر الوجود في العالم.

أمّا خلال الصعود في برج تورنتو، فتملّكتنا الرهبة لكون المصعد غرفة زجاجيّة تطلّ من ارتفاع شاهق على محطة القطارات الدولية، ومن حولها تورنتو بأكلمها.



صباح فخري مع أستاذ الموسيقى في جامعة UCLA د. جهاد راسي
وعقيلته باربارا راسي (1992).



صباح فخري يشكر الجامعة ومدينة لوس أنجلوس.
ود. جهاد راسي يُترجم إلى الإنجليزية (1992).



على مسرح الـ MGM في لاس فيغاس.

وبعدها انتقلنا إلى ديترويت، وأقمنا سهرة لطيفة في أحد المطاعم. سافرنا عقبها إلى لوس أنجلوس. سمع برحلتنا المخرج مصطفى العقّاد، وهو غنيّ عن التعريف، فدعانا إلى حفلة خاصّة في منزله الجميل في بيفرلي هيلز. جمع فيها نخبة واسعة الطيف من الجالية العربية. وكانت زوجته الأخيرة من بين المدعوين. وكذلك كانت بطلة فيلم «الرسالة» النجمة اليونانية إيرين باباس. وأذكر من الموجودين الثريّ العربي راي إيراني، بالإضافة إلى ألوف من الأطباء، ونخبة المجتمع الراقي. ولا شكّ في أنّها من الحفلات المحفورة في ذاكرتنا.

ثمّ أحيينا حفلة عامّة في لوس أنجلوس. تركت انطباعًا رائعًا عند من حضرها أو سمع بها.

ولم يقتصر تكريم مصطفى العقّاد لنا على استضافتنا في فيلا في بيفرلي هيلز، بل حرص على أن يتيح لنا زيارة يونيفرس ستوديو، ولاس فيغاس، بصحبة أخيه نبيل، والسيد بدر جبرودي.

بدا وكأنّ أبواب الرحلات إلى أمريكا الشمالية قد فُتحت لنا على مصراعيها لنزورها كلّ عام تقريبًا.»

يبدو أنّه قد راق لصباح تكرار تجواله في الولايات المتّحدة. ولم يحتج هذه المرّة، في العام 1984، إلى متعهّد لحفلاته؛ فقد آثر أن ينظّمها بنفسه بمساعدة معارف موثوقٍ بهم، اكتسبهم في جولاته السابقة.

والمعروف عن صباح فخري أنّه يفضل معالجة أموره بنفسه، مستفيدًا من أخطاء وقع فيها نتيجة ثقته بمتعهّدين سابقين. لذلك، قام بمراسلة معارفه بنفسه، وكان الأستاذ المخرج العالمي مصطفى العقّاد، هو الذي يؤمّن لهم تأشيرات الدخول والدعوات.

كما ساعده في لوس أنجلوس السيد بدر الجيرودي، ووليد خوري في ويندسور، وتوما طعمة في بنسلفانيا.

كان الحضور كثيفًا في جميع الحفلات. وتكلّلت بالنجاح، ولم تخلُ من الطرافة:

حدث أن تأخّر الأستاذ صباح عن حفلته في آلن تاون، فهرع إليه الأستاذ ياسين العاشق في غرفته في الفندق، وقال:

— إنّ الجمهور متذمّر، وينتظر ظهور الأستاذ صباح. كما أنّ المتعهّد ينوي أن يقدّم العشاء للحاضرين... وما زلتَ في الغرفة مصرًّا على عدم الظهور!؟

فأجاب صباح بكلّ هدوء:

— فلينهِ الحضور عشاءهم. إنّني أحبّ أن أرى جمهوري المستمع لي والمصغي إلى الغناء والموسيقى، لا تزعجه طرطقة الصحون ولا حركة النادلين.

وأصرّ ياسين العاشق[1] بلطفه قائلًا:

— يا أستاذ صباح، يقول المثل «اربط الحمار مطرح ما بقلّك صاحبه».

ويقصد بذلك النزول عند رأي متعهّد الحفلة ورغبة الجمهور المتعطّش لرؤية النجم الذي ينتظره بفارغ الصبر.

فقال صباح بإصرار:

— عشّي الناس لأنزل.

[1] ياسين العاشق: عازف الكمان الشهير، والذي رافق صباح في أغلب حفلاته.



مع المخرج العالمي مصطفى العقّاد (1981).



مصطفى وزهير العقّاد.

وفعلًا، كان ما أراد صباح. وما أن انتهوا من الطعام، حتّى غنّى لجمهوره الصابر، وأحيا واحدة من أجمل الحفلات التي رقص لها جمهور ألان تاون، حتّى إطلالة اليوم التالي.

لم تقتصر الحفلات على تلك، بل أقام بعدها حفلة في بروكلين، في منزل الصديق رياض سكر، وكان من الجالية الحلبيّة، ومن الشخصيّات المثقّفة، ويعتبره صباح أخًا وصديقًا ومحبًّا.

ما أن دوّى صدى حفلاته في الولايات المتّحدة بين أفراد الجالية العربية، حتّى بدأوا بالاتّصال به. ومن بينهم، اتّصل به الصديق رجا الشربجي، وهو من الشخصيات الدمشقيّة المعروفة بظرفها، ودعاه إلى زيارة هيوستن، حيث أُقيمت حفلة في منزل السيد سمير البرازي، حضرها لفيف من الجالية السورية بوجود القنصل السوري أيمن ميداني. وكانت سهرة عامرة بمتذوّقي الفنّ والطرب، ختم بها زيارته السنويّة، وقفل عائدًا إلى الديار السورية.

أمّا زيارته التالية، فكانت في العام 1990، بدعوة من مصطفى العقّاد، بمناسبة مرور خمس سنوات على زواجه من السيّدة سُها.

كانت الحفلة في هيلتون بفرلي هيلز، في صالة ضمّت حوالي 300 مدعوّ. وليس غريبًا أن تكون حديث المجتمعات لسنين. أقام صباح خلالها في فندق في سانتا مونيكا يطلّ على المحيط. ومن مكان إقامته هناك، انطلق ليحيي حفلات في سان فرانسيسكو وساندييغو.

خلال وجوده في لوس أنجلوس، زار جامعتها، وقدّم إلى الدكتور جهاد الراسي، أستاذ الموسيقى في جامعة UCLA، تسجيلًا لمجموعة «نغم الأمس» الرائعة، والتي تتحدّث عن الموسيقى الشرقيّة ونغماتها وإيقاعاتها، مع أمثلة حيّة بغناء صباح فخري.

في عشرين أيّار من عام 1992، أقامت جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، حفلةً لتكريم الفنان الكبير صباح فخري - كأبرزِ نصير ومدافع عن التراث الغنائي العربي - بمنحه شهادات تقدير كحاملِ لواء إحياء التراث الموسيقي العربي، وذلك أمام حشد من الدكاترة والطلّاب والموسيقيين.

وأقام بعدها حفلةً في ماريوت لوس أنجلوس، وهيلتون سان فرانسيسكو.

تتالت الرحلات والدعوات بين كندا وأميركا. في العام 2000 تولّى الأستاذ سيمون شاهين حفلة مانهاتن. وكذلك في الـ MGM Grand Hotel في لاس فيغاس، حيث حضر الحفل حوالي العشرين ألف متفرّج في قاعة إيرينا بالاس. وغنّى هناك الأستاذ وديع الصافي، وختم الحفلة صباح في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وهو الوقت الأقصى المسموح به هناك للحفلات.



مع كفاح فاخوري.

أسماء الله الحسنى



من أجمل ما أنشد صباح فخري، وحلّق بصوته وإحساسه الرائعين. ولا أبالغ إن قلت إنّها أروع المحاولات في إنشاد أسماء الله الحسنى. لمّا سألت الأستاذ صباح عنه، قال الآتي:

«كان مسلسلًا رمضانيًّا أنتجه التلفزيون العربيّ السوري في العام 1987، من إعداد السيّدة رويدة الجرّاح، وإخراج زوجها رياض ديار بكرلي، وتقديم الممثّل القدير الراحل عبد الرحمن آل رشي، ومشاركة منى واصف والزيناتي قدسيّة وثراء دبسي. أمّا المقدمة فكانت من إنشادي.

لا أنسى الآية الكريمة التي كان يبتدئ فيها آل رشي كلّ حلقة: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾، صدق الله العظيم.

تناولت كلّ حلقة، من حلقات المسلسل الثلاثين، ثلاثةً أو أربعة من أسماء الله الحسنى بالشرح والتفسير والأمثلة. وكنتُ أشارك بإنشادَين في كلّ حلقة، فضلًا عن إنشاد الشارة والختام. وكما سبق أن ذكرت لك، فإنّ بي شغفًا لأسماء الله. وكم أتمنّى أن أتعمّق أكثر في بحورها، ليكشف الله لي ما خفي عنّي من أسرارها. أوليس هو العليم بكل شيء؟»

وتعقيبًا على ما تقدّم، قلتُ له: «أنا شخصيًّا أحبّ أن أستمع إلى أسماء الله التي أنشدتها أستاذ صباح، مرارًا لروعتها، خصوصًا عندما تحلّق في كلمة يا الله...».

في مِصْرَ بَعْدَ طُولِ غِيَاب



في التسعينات، عندما كان صباح فخري نقيبًا للفنّانين في سورية، تعرّف إلى السيّدة رتيبة الحفني، مديرة مهرجان الموسيقى العربيّة، ورئيسة المجمع العربي للموسيقى التابع للجامعة العربية، أثناء استضافتها في سورية. وهي مطربة أوبرا مصريّة، جدّتها لأمّها مغنّية أوبرا ألمانية.

طبيعيّ أن تعجب ابنة الموسيقى تلك بصوت ملك التراث والأصالة، فسألته باستغراب:

— لماذا لا نراك في مصر؟

فروى لها الحادثة التي جعلته يبتعد عن الإعلام المصري.

فقالت بثقة وحماس:

— انت دلوقت تيجي لمكانك الطبيعي في دار الأوبرا المصرية.



حفل الاستقبال في مطار القاهرة.



جمعيّة محبي صباح فخري في مصر.



مع عمرو موسى في وزارة الخارجية المصرية.

وكانت الدكتورة الحفني حينها مديرةً لدار الأوبرا المصرية في القاهرة.

لم يتوانَ صباح عن تلبية الدعوة الراقية التي قدمتها سيّدة الأوبرا، فشارك في ستّة مهرجانات، دوّى صداها في أرجاء مصر.

لا يخفى على أحد أنّ الحضور في حفلات صباح فخري كان لافتًا، إذ ضمّ عددًا لا يُستهان به من الشخصيّات المصرية المعروفة، ومن الفنّانين الكبار الذين ثابروا على الحضور مهما كانت الظروف. وكانت تصله الأزهار من المحبّين، أمثال: عبد الله غيث، ونبيلة عبيد، ونيللي... وغيرهم الكثيرون.

الجمهور المصري

لم يكن تجاوب الجمهور المصري مع صباح فخري أقلّ منه في سورية ولبنان. فمن عادة روّاد دور الأوبرا في مصر أن يستمعوا جالسين بمنتهى الهدوء، ولا يصفقون إلّا في النهاية. ولكن ما أنّ غنّى صباح، حتّى أخرج هؤلاء عن وقارهم المعهود، فرقصوا واقفين، مطلقين العنان لآهات الطرب والنشوة.

يذكر صباح أنّ رجلًا مقعدًا كان يحرص على أن يجلس في الصفّ الأوّل في كلّ حفلاته، وكم تمنّى أن يتذكر اسمه، إضافة إلى أنّه كان يسافر إلى الإسكندرية ليتابع حفلاته أينما



مع الفنّان المصري حسين فهمي.



مع صبري مدلل في مقر جمعيّة محبّي صباح فخري في القاهرة.

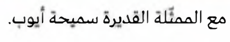


مع الدكتورة رتيبة الحفني، مديرة مهرجان الموسيقى في دار الأوبرا في القاهرة.



مع الفنّان المصري سمير صبري.




مع الممثّلة القديرة سميحة أيوب.

مع المطربة حوريه حسن (1990).



قطع قالب الكاتو في حفل الاستقبال الذي أقامته جمعيّة محبّي صباح فخري.



مع السفير السوري الدكتور عيسى درويش.

وُجدت. كما لا ينسى أيضًا أنّ المطربة القديرة حورية حسن، كانت تسيل دموعها من فرط التأثّر، ولشدّة ما كانت تُطرب لأدائه. كذلك الأستاذ كمال الطويل[1] الذي بقي واقفًا لمدّة ثلاث ساعات، في حفلة أحياها صباح ضمن مهرجان السينما الدولي في القاهرة.

أمّا الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب، فقد دعاه وزير الدفاع السوري إلى مأدبة عشاء على شرف زيارته إلى دمشق، وكان صباح فخري من المدعوّين ليحيي السهرة تكريمًا للموسيقار العزيز، فكان يستمع إليه واقفًا على قدميه، وكلّما دعته أم فراس إلى الجلوس، كان يقول: «الغنا ده ما تسمعوش وانت جالس». وبقي واقفًا يستمع إليه بشغف حتّى دعيَ إلى المائدة.

هناك أيضًا، الملحّن المعروف عمار الشريعي الذي كان يحبّ الاستماع إلى قصيدة «قل للمليحة».

«لا تبخسوا الناس أشياءهم»، في مصر عشّاق للفنّ الأصيل ولا شكّ.

إضافة إلى الذين ذكرناهم، هناك سيّد مكاوي، الملحّن والمطرب والذوّاق. وقد توطّدت بينه وبين صباح عُرى الصداقة، فكان يزوره في منزله كلّما أتى إلى دمشق. ولا تغيب عن الذهن خفّة ظلّه وظرفه، كأكثر إخواننا المصريين. وكما نعلم، فإنّ سيّد مكاوي كان فاقدًا نعمة البصر، وصدف أن كان وزوجته في زيارة لصباح في دمشق، وقد تفنّنت أم أنس في تقديم أطيب المأكولات الحلبية وألذّها للضيف العزيز، وفيما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث بعد الطعام، التفتت زوجته إليه قائلة: «آه لو تعرف يا سيّد جمالي وحسني»، فما كان منه إلّا أن أجاب، بسرعة بديهة المصريين: «لو كنتِ زي ما بتقولي، كانوا سابوك المفتّحين ليّ ليه!؟».

أمّا رياض السنباطي، الملحّن العظيم، والذي لم تشأ الصدف أن يقابل فنّاننا الكبير شخصيًّا، فقد كان برأي صباح كـ«الترزي»، يفصّل للمغنّي ما يلائم صوته. وفي هذا الإطار يقول: «عندما تقدّمت أم كلثوم في العمر، بدأ تراجع طفيف في طبقات الصوت يبدو في مستوى أغانيها الأخيرة، برغم أنّ كلّ ما قالته جميل، فقدّمها رياض السنباطي، في رائعة إبراهيم ناجي «الأطلال»، ليضع أم كلثوم في القمّة حيث مكانها الطبيعي. وكانت من أروع ما غنّت أم كلثوم، ولحّن السنباطي، ويعتبرها النقّاد تاج الأغنية العربية».

للأسف لم تكن الظروف مؤاتية ليلحّن السنباطي لصباح، لأنّه غاب عن مصر، ولم يعد لزيارتها إلّا بعد أن توفّيَ السنباطي رحمه الله.

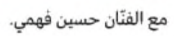
[1] ملحّن مصري كبير، غنّى له عبد الحليم حافظ باقة من أجمل أغانيه.





مع الدكتورة رتيبة الحفني.





مع الفنّان حسين فهمي.





مع الفنّان لطفي بوشناق.

شهادة لفاطمة الزهراء

«لا شكّ في أنّ الجمهور المصري رائد ومتذوّق للفنّ. وهذا ما شهدتُه بأمّ عيني خلال حفلات مصر. إذ كنت أسمع بأذني هتاف الجمهور: "الله... هو ده الغنا...!".

ولا ننسى أنّ الأصوات العملاقة رحلت عن مصر. والساحة الفنّية قد ضحلت مقارنة بالستّينات والسبعينات. وكان بالتالي لا بدّ من أن يهتفوا لصباح: "كده الغنا والّا بلاش". إذ عاد بهم إلى أيّام الأصالة الفنّية التي فقدوها بعد السيّدة أم كلثوم والموسيقار محمد عبد الوهاب.

ولذلك، حرصت الدكتورة الحفني بعد انتهاء كلّ حفلة، على تعيين تاريخ للحفلة التالية في العام الذي يليه، رافضة إلغاء أو تأجيل الحفل لأيّ سبب من الأسباب.

كانت تنسّق معي الموعد بالذات قائلة: "بصّي يا حجّة، ما تقوليش حنسافر، حنعمل، أمريكا وغيرها أبدًا. اليوم ده على مسؤوليّتك هو لدار الأوبرا المصرية". وكنت أجيبها: "إن شاء الله".

هكذا توسّعت الحفلات من اثنتين في العام 1996، إلى أربع حفلات في العام الذي تلاه، ثمّ إلى سلسلة حفلات في قصر المؤتمرات في الإسكندرية.

أمّا عن حبّ المصريين لصباح فخري، فإنّ الجمعية التي أنشأها مهندس البترول المصري، أمين صادق، خير دليل على عشقهم للفنّ الأصيل. وقد وجّهوا لصباح دعوة لافتتاح الجمعية في العام 1997، واستقبلوه في المطار كما يليق بنجم الغناء والطرب، إذ كانوا يدعونه الأسطورة الفنّية الحيّة. وقد جعل أمين صادق بيته مقرًّا دائمًا للجمعية في بادرة كريمة منه. وفي العام 1998، اقترح المهندس أمين صادق أن يدعو صباح إلى حفلة في دار الأوبرا بمناسبة عيد شمّ النسيم. وعمل على تأمين المكان الأستاذ محمد سالم، وكالعادة لاقت الحفلة نجاحًا مبهرًا.»

مع السلطان قابوس

استدعت السفارة العُمانية، في دمشق، صباح فخري للاطّلاع على برنامجه الفنّي. وتجدر الإشارة هنا، إلى أنّ صباح فخري لم يعتمد في حياته الفنّية على مدير أعمال، بل كانت العصامية مبدأً له في كلّ خطواته التي قفز بها على سلّم المجد.

حمل صباح فخري ما دوّنه من أغانٍ على ورقة، وعرضها على السفير في مقابلته الخاصة. وقَبِل الدعوة الموجّهة إليه ليغنّي في حضرة السلطان قابوس. هناك وقع الخيار على موشّح:

أنت سلطان الملاح يا ملك أنت ملك
زدت هتكي يا غزال والهوى ياما هتك

وموشّح من كلمات ابن سناء الملك:

كلّلي يا سحب تيجان الربا بالحلي
واجعلي سوارها منعطف الجدول
يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما
كلّما أغربت نجما أشرقت أنجما

فغنّى صباح كالعادة وأطرب، حتّى طلب منه السلطان التوقّف ليعلّق له وسامًا من أهم وأرفع الرتب في حفل التكريم هذا. بعد ذلك، انتقلت الحفلة إلى المسرح، حيث انصهر الجمهور في حالة من الطرب والإعجاب الملحوظين.

لفتت نظر صباح سيّدةٌ تجلس في الصفّ الأوّل تصغي باهتمام، بينما اتّكأت بخدّها على يدها. ولما سأل عنها، قيل إنّها سيّدة أمريكية وقد أعجبت بصوت صباح فخري وغنائه على الرغم من عدم تمكّنها من اللغة العربية.

وفي زيارة ثانية، أُقيمت لصباح حفلتان: الأولى في القصر الصيفي للسلطان، قدّم فيها الأخير مكافأة ماليّة تكريمًا لأسطورة الطرب، والحفلة الأخرى أقيمت لعامّة الشعب.



مع السلطان قابوس.

وكان الانطباع الذي رسخ في ذهن الأستاذ صباح إيجابيًّا تجاه مسقط، المدينة الجميلة، والشعب العماني الذي يمتاز بدماثة الأخلاق وتهذيب الطباع. حتّى أنّ السلطان نفسه يجلس مع جماهيره بمنتهى التواضع، وهو خريج أكاديمية «سانت هيرست» العسكريّة الملكيّة البريطانيّة.

رحلاته للخليج العربي



حفلات اتحاد الإمارات العربية، أبو ظبي (1974).
إلى يمين صباح فخري الفنّانة ميّادة الحناوي، ووالدتها، وأختها فاتن الحناوي.

في العام 1973، وُجّهت دعوة من قبل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتّحدة، بمناسبة عيد اتّحاد الإمارات، إلى فنّانين من سورية، فلبّوا الدعوة برئاسة نقيب الفنّانين آنذاك صباح فخري، ومدير التلفزيون العربي السوري أحمد قرنة، مصطحبين لفيفًا من الفنّانين، منهم ميّادة الحناوي وفاتن الحناوي، وملك سكر وغيرهم... كانت زيارات صباح للإمارات تتكرّر كلّ عام في عيد الاتّحاد، إضافة إلى الحفلات الخاصّة التي كانت تقام في الفنادق، وقد قامت الجالية السورية بتكريم فنّانها الكبير، بعد تقليده وسام الاستحقاق.

شارك صباح في مهرجان أبو ظبي للثقافة والفنون، على مدى سنوات. وفي برنامج شاعر المليون. وأقام حفلة في قصر الإمارات.

أمّا إمارة قطر، فقد شارك صباح في إحياء مهرجان الثقافة فيها ثلاث مرّات، قدّمت له وزارة الثقافة خلالها درع قطر.



في مهرجان الثقافة في الدوحة (2003).

تكريم صباح فخري في الإمارات

كتبت الصحف:

فخري حارس التراث الأصيل
صباح فخري ألهب حماسة جمهور «أنغام من الشرق»

أثبت الفنّان صباح فخري أنّ الغناء ليس مجرّد حفلة طرب، إنّما حالة روحانية ترقى بالإنسان إلى أعلى درجات السمو الجمالي والأخلاقي، وأنّه واحد من حرّاس التراث. صوته أصيل، وجماليّاته نادرة ومدهشة، إضافة إلى استناده إلى ثقافة موسيقيّة واسعة. ومن هنا، اتّسمت الأمسية التي أحياها صاحب الحنجرة الماسية صباح فخري، في مهرجان «أنغام من الشرق» في أبو ظبي، بنكهة خاصة استطاعت استقطاب جمهور كبير، غصّت به قاعة مسرح «قصر الإمارات». ولم يجد الكثير منهم بدًّا من حضور هذا الحفل المميّز إلّا وقوفًا.

قدّم فخري مجموعةً مختارة من أغنياته التي ألهبت الجمهور، وأعطت متذوقي الموسيقى الشرقية والغناء الشرقيّ مساحةً من الحنين للماضي الفنّي المشرق. وأعاد هذا الفنّان الكبير الجمهورَ إلى مرحلة من أروع مراحل الغناء العربي، من خلال باقة من الموشّحات والأدوار القديمة التي تحمل نكهةً فنيّة دائمة، لا يزيدها الزمن إلّا جمالًا وتوهّجًا. والقدودُ الحلبيّة من الفنون الموسيقية السورية المنشأ، وتحديدًا مدينة حلب التي ولد فيها هذا الفنّان، وتأثّر بهذا الفنّ الذي اندمج أيضًا مع الموشّحات والموّال.

جمهور هذه الأمسية، الذي لم يتوقّف عن التصفيق والتفاعل مع فنّان لديه قدرة خاصة على الولوج إلى وجدان المتلقي، عاش بضع ساعات من الفرح. ولم يقتصر الجمهور على الكبار، بل كان واضحًا تفاعل الشباب؛ ما يؤكّد على أنّ الطرب والفنّ الأصيل يمكن أن يجد آذانا صاغية من الشباب، في حال وُجد من يقدّمه إليه بذكاء وخبرة في السيطرة على الصالة.

أكد حفل فخري أنّ قديمنا الموسيقي لا يموت، بل يزداد توهّجًا مع الزمن، لأنّه ببساطة فنّ أصيل ينبع من صميم الحسّ الإنساني، معبّرًا عن أجمل مشاعر الإنسان. كانت سهرةً لا تُنسى، تضمّنت مجموعة من أجمل القصائد والموشّحات التراثية التي قام فخري بتجديدها. وهو عُرف عنه أنّه أوّل من عمد إلى تطوير التراث الغنائي الحلبي بما يتناسب مع الذائقة العصرية، وتميّز بهذا الفنّ وأبدع فيه على مدى سني تجربته الفنّية التي أسّس فيها مملكةً فنّية خاصة تربّع على عرشها.

نقل صباح فخري التراث الحلبي الغنائي في رحلته، ليس فقط من خلال صوته الأخّاذ، بل من خلال حضوره القويّ على المسرح الذي يكشف عن أصالة صوته، وعمق معرفته الموسيقية، وقدرته الاستثنائية على جذب المستمع إلى صوته ساعات طويلة، من دون مللٍ أو تذمّر، في عصر صارت فيه الأغنية لا تتجاوز الدقائق القليلة.



في مهرجان «أنغام من الشرق» في أبو ظبي (2010).

1995 اليوبيل الفضي لنشوء دولة الإمارات

حسين فهمي (بالعامية المصريّة):

«يودّ المهرجان أن يقدّم تكريمًا لفنّان عربي عظيم.

عادة المطرب بيغنّي حوالي ساعتين، لمّا يبقى فيه مطرب يغنّي أربع ساعات منقول دَه إعجاز فنّي. بعدين يجي مطرب يغنّي 14 ساعة متواصلة، والجمهور ما يملّش قوّة الصوت، وحسن الأداء، دي تُعتبر ظاهرة فريدة في عالم الغناء، مش بس في الغناء العربي، ولكن في العالم كلّه. نحن أمام أحد حرّاس التراث العربي... نشأ وولد في حلب، وعلى ميراث الأجداد والآباء تربّى وتعلّم، حتّى أصبح هو نفسه مدرسة قائمة بذاتها.

من منّا لا يسمع "يا مال الشام"، والموشّحات الأندلسيّة من صوته الذي يحمل عبق التاريخ، ولا يتذكّر مجد العرب!؟ الآه تقال في الألم والشجن، وترتفع آهاتنا كلّها شجن، فنّ وسحر وجمال... إذا ذكرناه، ذكرنا الرقة والدفء. وإذا ذكرنا الغناء العربي، لا بدّ أن يتبادر إلى ذهننا جميعًا أنّه عملاق النغم العربي الأصيل. حصل ويحصل وسيحصل على أوسمة جميع الدول العربية. وحصل على أكبر تقدير من جامعة UCLA في الولايات المتّحدة الأميركية، كاليفورنيا. اتكرّم اتنين فقط، الأستاذ محمد عبد الوهاب والفنان العظيم صباح فخري.»

صباح فخري:

«أشكركم جميعًا. وأشكر دولة الإمارات الممثّلة بالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وبرعاية هذا المهرجان الكبير. كما نبارك لدولة الإمارات باليوبيل الفضّي لعيدها الوطني. وأتمنّى لكم ولكلّ العرب دوام التقدّم والنجاح.»

ثمّ قدّم صباح موّالًا شرقاويًّا رائعًا بدون موسيقى:

نحن لسان الدهر، وخطاب قوله عرب
حبّ الوطن شرعنا نقسم بذلك وعرب
راياتنا رفرفت فوق الشوامخ عرب
بعلم العروبة تفاخرت، والقلم والسيف والصناعة لينا وجد
من عهد يعرب ورثنا العزّ أبًّا وجدّ
وبمجدنا يشهد التاريخ نحن العرب... يا عيوني

الجنادرية

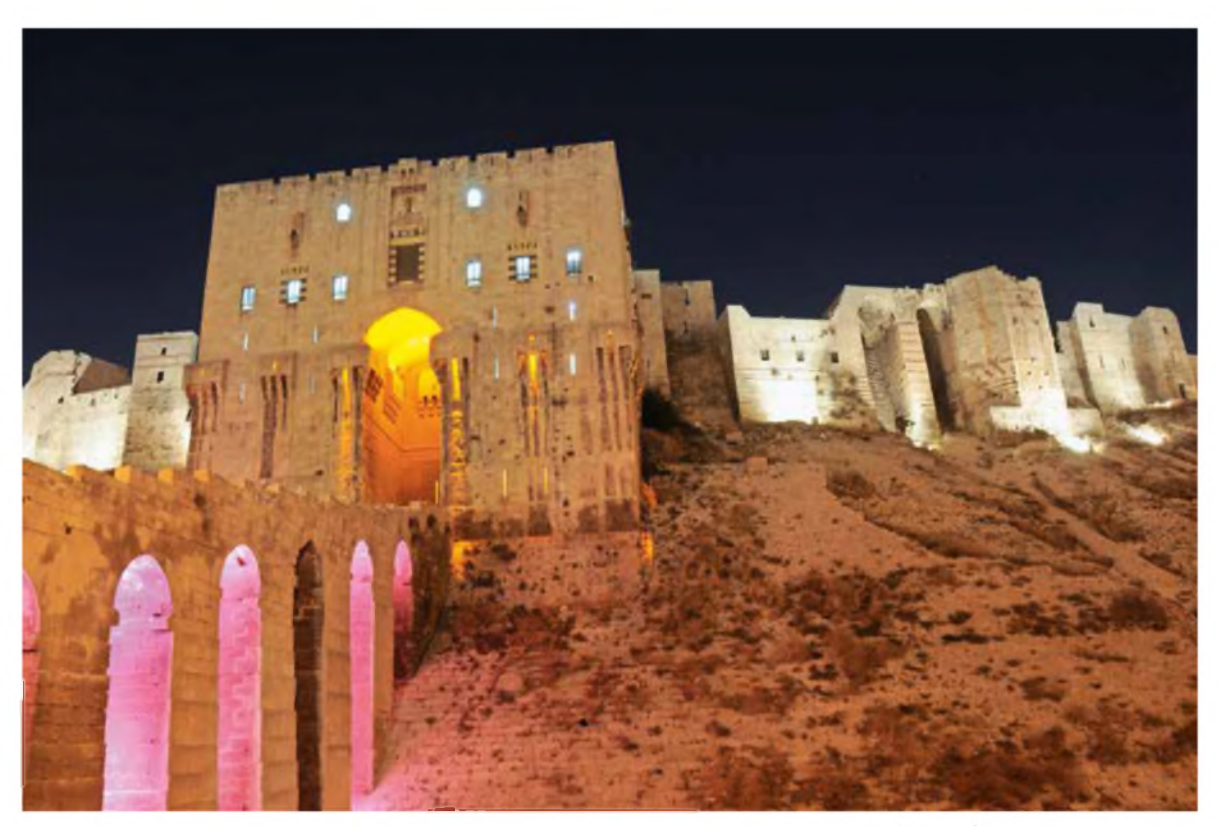
وكأنّي بسوق عكاظ يهرب من التاريخ، ليقدّم نفسه في صورة تراثية جديدة في جزيرة العرب. يستقطب روّاد الشعر والفنّ، لتتنافس الكلمة واللحن في استعراض للثقافات التراثية الشعبية التي مرّت على المملكة العربية.

مهرجان الجنادرية احتفال وطني ثقافي كبير، يصل الماضي بالحاضر باستعراضات فنية وأدبية شاملة. ابتدأ سنة 1985 م، الموافق 1405 هـ، وأخذ اسمه من الروضة التي يُقام فيها، وهي قرية الجنادرية التي تبعد عن الرياض بضعة كيلومترات، واستمرّ في التطوّر عامًا بعد عام. هدف هذا المهرجان إلى استحضار التاريخ، ومزجه بالحاضر، للتذكير بالقيم العربية الأصيلة في التراث والتقاليد والثقافة والحفاظ عليها، مستقطبًا الطاقات الفنّية والأدبية العربية التي تتمسك بالموروث وتبدع فيه. تولّت وزارة الحرس الوطني الإشراف على المهرجان لاعتباراته الوطنية.

في سنة 2003، كلّفت لجنة المهرجان الملحّن عبد الرب إدريس بالاتّصال بالأستاذ صباح فخري، للاشتراك في مهرجان الجنادرية الثامن عشر من خلال أوبريت «يا خيول الفجر»، وهي أوّل أوبريت اعتمدت على الإيقاع لا الموسيقى، ولم يقلّل ذلك من قيمة الأوبريت الفنّية التي استندت إلى:

- نصّ شعريّ قويّ للدكتور عبد الرحمن العشماوي (السعودية)
- ألحان مناسبة لعبد الربّ إدريس (السعودية)
- غناء محمد عبده (السعودية)
- أحمد العريبي (الكويت)
- صباح فخري (سورية)
- إنشاد إبراهيم حافظ (مصر)
- إخراج المبدع نجدت أنزور (سورية)

قبلَ فنّاننا الكبير الدعوة، وانطلق للتدرّب على النشيد المسرحيّ (الأوبريت) في القاهرة. وتمّ تسجيل العمل من قبل المشتركين هناك، ليجري عرضه في الجنادرية على قاعدة التسجيل المسبق (playback). كانت «خيول الفجر» من أجمل ما قُدِّم في مهرجانات الجنادرية، برغم أنّها لم تنل إجماع النقّاد. وتجلّى صباح في روعة أدائه كالعادة. وقد كرّم الأمير متعب بن عبدالله المشتركين الكبار، بأن دعاهم إلى عشاء خاص. وحظي الفنّانون بلقاء ولي العهد آنذاك الأمير عبد الله.



أضواء قلعة حلب.

عَلَى مَسْرحِ قَلعَةِ حَلَب

من على مسرح تلك القلعة الشامخة، عبر التاريخ، أطلّ صباح فخري على أعرق مدينة عرفها الزمان وأقدمها، وغنّى لجمهوره الذي يعشقه. وهو أوّل من أسّس مهرجانات قلعة حلب السنوية.

كانت حفلاته تستقطب الآلاف من المتفرّجين. يحلّق فيها صباح في سماءٍ يجيد الطيران في أجوائها، فهو هناك، في حضن أمّه، القلعة الخالدة، وما أشبهه بها.

كلاهما رمزٌ للتراث، وصورة جميلة للعراقة والأصالة. ما ذكرنا حلب مرّة إلّا وتصوّرنا القلعة... وقلنا «صباح».

بصمتان على أوراق التاريخ، إحداهما زرياب حلب، صباح فخري.

من هناك، غرّد صباح فخري لأهل المدينة التي عشقته. أبدع وخاطب جمهوره بلهجته. حاكاه بالنغم الأصيل، فغنّى واهتزّ على سجيّته، لأنّه في بيته، في قلعته.

تلك القلعة الصامدة التي بناها عظماء عبر التاريخ، ودخلها غزاة، منهم من هدم ومنهم من رمّم، لترتبط أسماؤهم بها. أمّا صباح، فقد انبثق منها بالنغم والفنّ والصوت الجميل. ارتبط اسمه بها. مرضَ عندما أصابها الأذى، وتماثل للشفاء معها. ليبقيا رمزَي حلب اللذين تعتزّ بهما وتفخر على مدى الدهر.

كانت حفلات صباح، في مهرجانات القلعة، تغصّ بالجماهير الذين ينتظرون هذا اليوم ليستمعوا إليه يشدو من قلعته.

وتذكر فاطمة الزهراء، أنّها عندما حضرَته في العام 1995، فوجئت وهي تصعد الدرج المؤدّي إلى المسرح، بصبيّ قد تسلّق الجدران، ليجلس على حافّة نافذة من نوافذ القلعة الشاهقة، فبادرته بسؤالها وهي ترتعد خوفًا عليه:

— ماذا تفعل هناك؟

— أريد أن أحضر صباح فخري، ولم تتبقّ بطاقات.

— انزل، وسأجعلهم يدخلونك إلى المسرح بنفسي.

— ولكنّهم أقفلوا الأبواب.

— لا بأس عليك. أعدك بأن يُفتح الباب لك.

ولم ينزل الصبيّ حتّى تأكّد من وعد السيّدة التي لا يعلم أنّها زوجة صباح فخري. وفعلًا، طلبت من ابنها عمر أن يتكفّل بإدخاله إلى المسرح، ودخل الصبيّ.

قصّة أخرى ترويها فاطمة الزهراء عن سيّدة كانت تحضر حفلة صباح، وهي حامل في شهرها التاسع، وجاءتها آلام المخاض أثناء الحفلة. ومن عادة رعاة المهرجان أن يغلقوا أبواب المسرح ويوصدوها تمامًا، منعًا من تسلّل الجمهور إليه بعد بداية الحفلة، فكان لا بدّ من أن يبحثوا عن «ناطور المفاتيح»، ليذهبوا بـ«المُطلِقة» إلى أقرب مستشفى.

وكلّما دار الحديث عن مهرجانات القلعة في حلب، تروي فاطمة الزهراء:

> «بينما كنّا في طريق العودة من كندا على متن الطائرة، إذ بشخص يتقدّم بالتحيّة لصباح، ويقدّم نفسه بأنّه «فاروجيان». وأنّه يمتلك أجهزة للصوت تليق بحفلات الأستاذ صباح فخري، ويسعده أن يقدّم خدماته لقمّة الغناء الأصيل. وتبادل كلٌّ منهما أرقام الهواتف والعناوين. رأى صباح أن يستعين به في مهرجان القلعة، وقبلَ فاروجيان، مع علمه أنّ وصول الأجهزة الموسيقية إلى مسرح القلعة عسير، نظرًا لارتفاع القلعة، وعدم وجود وسيلة لحمل الأجهزة الثقيلة إلّا أقدمها: استخدام الحمير في تسلّق القلعة وهي محملة بالأجهزة.»

تتابع السيّدة الزهراء حديثها:

> «فوجئتُ صباح الحفلةِ بهاتف البيت يرنّ في حوالي السادسة صباحًا:
>
> — ألو صباح الخير مدام أم أنس، أنا فاروج.
>
> — أهلًا وسهلًا صباح النور، خير انشالله؟
>
> — مدام هادا حمار مش مظبوط، إش أسوّي؟
>
> — أيّ حمار عند الصبح؟

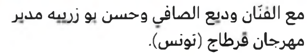


الجمهور يحمل صباح فخري حين قدومه إلى الصالة الرياضية في حمص لإقامة حفل بمناسبة الحركة التصحيحيّة (1998).



على مسرح قلعة حلب (1996).





مع الفنّان وديع الصافي وحسن بو زربيه مدير مهرجان قرطاج (تونس).



مع محافظ حماة وفرع نقابة الفنانين في حماة.

— مدام هادا حمار شايل على ضهره أجهزة صوت. كلّ ما وصل لفوق، بيكوّع وبينزل لتحت، إش أعمل معه؟

ضحكتُ كما لم أضحك من قبل. ولم أعده بتغيير الحمار، واستبداله بـ«تلفريك». بل اقترحت إراحته، وتخفيف الحمل عن ظهره، لنقله على مراحل.»

ووصلت الأجهزة، بعد أن اقتنع الحمار وصاحبه بطريقة إيصالها، ومضاعفة المرسوم له ثمنًا لذلك.

ولدى فاطمة الزهراء من النوادر ما تذكره كلّما تحدّثنا عن حفلات القلعة. تقول:

«اعتاد الناس في حلب أن يقفوا على أدراج القلعة بعد انتهاء الحفلة، منتظرين إطلالة صباح عليهم. وكنّا نتعمّد التريّث في الخروج لنتجنّب الحشود وتفادي المرور بين الزحام. حدث مرّة أن طال انتظارنا، واضطررنا إلى الخروج مارّين على درج القلعة بين الجماهير الصابرة. وكنت أمشي مستندة إلى ذراع صباح، خشيةَ الانزلاق على درجات القلعة وأنا أحتذي الكعب الرفيع، فما كان من أحد الصبيّة الواقفين على جنبات السلالم إلّا أن قال لي: "أنتِ أمّه!؟". ضحك صباح في سرّه، وهو يحيي الجماهير التي كانت تعترض طريقه، وتدعو له، وتسعى إلى مصافحته.

أمّا الهتاف المعهود الذي كانت الجماهير المنتظرة تستقبل به صباح، فهو:

الله لساوا دوز دوز وجيي
صلّوا على محمد
والزين زين
مكحول العين
والعازلة... الله عليه.

وكأنّهم يزفّون عريسهم، ويتبعون ذلك بالزغاريد والتصفيق.

وفي إحدى المرّات، حين كان يشقّ طريقه بصعوبة في سيارته، قامت الجماهير المحتشدة بحمل السيارة بمن فيها تعبيرًا عن حبّ لا مثيل له.»

ومن المواقف المحرجة التي حدثت في حفلات حلب، كما ترويها أم أنس:

«اعتاد أبو محمد أن يصعد درجات القلعة بلباس بسيط (سفاري). وذات مرّة طلب من ابنه أنس أن يحمل له بدلته ليبدّل ثيابه قبل ظهوره أمام الجمهور. حمل أنس، وكان يقارب الاثنتي عشرة سنة من العمر، البدلة على علّاقة ثياب، وهمَّ مهرولًا على السلالم بسرعة وهو يلوح بها يمينًا وبسارًا، حتّى أوصلها إلى غرفة تغيير الملابس، ولكن، بدون بنطال!

تملّك الارتباك والغضب صباح، وانعكس هذا على أفراد الفرقة، وعليّ. ولكنّني كنت أبحث عن حلٍّ بديل، حتّى لو أرسلنا بطلب بدلة أخرى كاملة، وإذ بأحد العازفين يحمل بيده ما ظنّه قطعة قماش داسها الناس حتّى تغيّر لونُها وقوامها، فصرخت: "هاتها إنّها لصباح". قمت بتنظيف البنطال بأسرع الطرق من ضربٍ ونفضٍ ومسح، حتّى عاد إلى رونقه. أسعفتني بذلك نوعيّة القماش. المهمّ أنّ صباح صعد المسرح وواجه جمهوره في الوقت المحدّد.»





في حفل بنات الشهداء (1998).

في مَجْلِسِ الشعبِ



صباح فخري، بصفته نقيب الفنّانين، يكرّم الفنّانين.

كانت أولى محاولات صباح فخري في الترشّح لمجلس الشعب، عندما كان نقيبًا للفنّانين في العام 1995. لم ينل يومها العدد الكافي من الأصوات ليفوز بالمقعد. وفي الدورة التالية عام 1999، كان شعاره في حملته الانتخابيّة: «أعطيتكم صوتي خمسين عامًا، أعطوني صوتكم».

ونال مقعده في مجلس الشعب عن مدينة حلب بجدارة. وخلال تلك الفترة، ساهم في إصدار قانون حماية حقوق المؤلّف والملحّن، وأدّى خدمات جليلة للفنّ والفنّانين.

نذكر أنّه عندما كان نائبًا في مجلس الشعب، قال له الأستاذ سعد رجائي آغا القلعة: «أتمنّى أستاذي الكريم ألّا ترقص على المسرح، فأنت الآن عضو في مجلس الشعب». فأجاب صباح: «إنّني لا أغيّر من سلوكي لأنّني عضوٌ في مجلس شعب، بل فنّي يحكمني، وروحي هي التي تتوق للحركة أثناء الغناء عندما أحلّق وأنسجم، لا أجبر نفسي على ذلك».

مَعَ الدّكتور بشّار الأسد

يقول الأستاذ صباح:

«اعتدت أن أتناول طعام الغداء على مائدة أبي فراس، وزير الدفاع (مصطفى طلاس)، وكان يحتفظ لي دومًا بكرسيّ إلى جانبه، بينما كان إلى يمينه كرسيّ للدكتور بشّار الأسد، قبل أن يصبح رئيسًا للجمهورية، فهو كان كثير التردّد على مائدة أم فراس الشهية. واعتدنا أن نرى العماد مصطفى مصطحبًا الدكتور بشّار إلى مكتبته العامرة، حيث كانا يقضيان ساعات في الحديث والمناقشة.

عندما توفّي الباسل في الحادث الأليم، ذهبت الجموع والنقابات والمؤسّسات لتعزية الرئيس في مصابه الجلل. وكانت كلمة الدكتور محمد سعيد البوطي من أجمل الكلمات في وقعها على القلوب والعقول. وكانت كلمتي المقتضبة يومها كنقيب للفنّانين: «لست خطيبًا ولا متحدّثًا، ولكنّها كلمات أقولها من القلب، رحم الله الفقيد، وأسكنه فسيح جنانه، والبركة لكم سيادة الرئيس في بشّار وماهر».

وعندما استلم الدكتور بشّار الأسد رئاسة الجمهورية، تمّت التهنئة في المجلس النيابي. حيث قمنا، كأعضاء في المجلس، بمصافحته والمباركة له - كالبيعة - فردًا فردًا. ولمّا حان دوري، ارتجلتُ:

بيعة البشر والأمل...	لفتى العلم والعمل
سر بنا قائدنا للعلا...	يا أملي للحادث الجلل

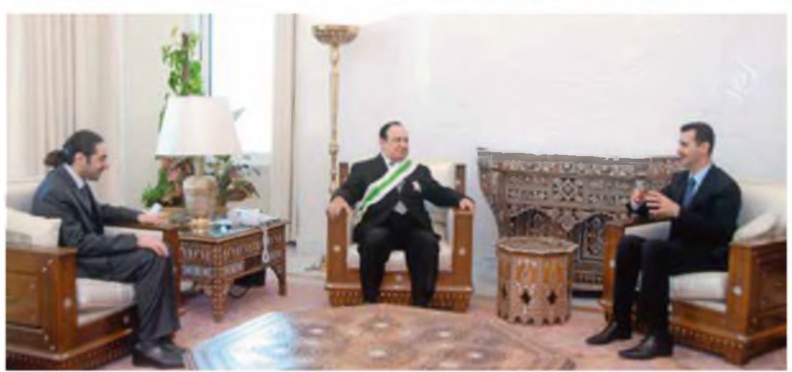
ثمّ طلبت لقاءه لأطلعه على إنجازاتي في النقابة وفي مجلس الشعب. وفي المقابلة، ذكرت له أنّ الرئيس حافظ الأسد كرّمني بأن قال إنّي سفير سورية إلى العالم، وحمّلني رسالة الفنّ إليه. وهنا نوّهت بمحبّة إلى أنّني أحبّ أن أُكرّم في حياتي، من بلدي ومن رئيس دولتي. وكنت قد كُرّمت بوسام من الرئيس التونسي بورقيبة، ومن السلطان قابوس. ولن أشعر بعد وفاتي بتكريم يصلني إلى مجالس العزاء من القصر الرئاسي، بل أريده تكريمًا من فخامتكم باليد. وفعلًا كنت أوّل فنّان يقلّده الرئيس السوري بشّار الأسد - مشكورًا - وسامًا ووشاحًا في العام 2007.

ولم، ولن أنسى ذلك أبدًا.»









مع الرئيس بشّار الأسد والسيّدة الأولى أسماء الأسد (2007).

بين التذكّر والنسيان

لنا في أدراج ذكرياتنا أوراق نحبّ الاحتفاظ بها، ومحطّات لم نتمكّن من نسيانها. لنا في كلّ ركن من بيوتنا ابتسامة، وفي كلّ زاوية فرحة. في حديقتي، لم أنس جمال أزاهيرها، ولا الفراشات التي حلّقت من حولها. لن يُمحى من ذاكرتي ضجيج الحفلات وصخبها البريء اللذان كانا يحاكيان بهجة المدعوّين إلى دارنا.

من أجمل الحفلات التي ضجّ بها منزلنا في يعفور، عدا أعراس أبنائي، كانت حفلة تكريم أسطورة الغناء الأصيل صباح فخري، بعد أن تقلّد وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة من سيادة رئيس الجمهورية العربية السورية.

ما أن تزور الحديقة المحيطة بالدار، حتّى تروي لك شرفتها ما تعشّق في أحجارها من جميل النغم، وتحكي لك بركة السباحة الزينة التي ارتدتها احتفاءً بصاحب التكريم، حيث ارتمت الورود الجورية ضمن إطارات مستطيلة، وقد ارتبطت ببعضها لتشكّل إطارًا ضخمًا من الورود الدمشقية يتوسّط البركة، تضيئه الشموع المتلألئة على سطح الماء.

وفي لحظات، يمرّ في ذاكرتي كبار الشخصيّات الذين حضروا، وتتداعى صورهم وهم يتمايلون في مقاعدهم طربًا للفنّ الراقي الذي جمعهم.

أمّا كعكة التكريم، فقد كانت قالبًا مستطيلًا من لذيذ الحلوى، زُيّن برسوم توّجتها قلعة حلب، وصورٌ لصباح فخري وهو يتقلّد أوسمته بيد رئيس الجمهورية.

وقد شارك الأستاذ صباح في قطع قالب التكريم كبارُ الشخصيات التي دعيت لتلك المناسبة[1].

أمّا المائدة التي زيّنتْها يداي، فقد خرج طعامها بكامله من مطبخي.

فاض الاحتفال بشخصيّات عربية سرّها حضور تكريم تلك الشخصية العظيمة. أذكر منها سيادة رئيس جمهورية اليمن السابق محمد ناصر، ومن الإعلاميين الأستاذ إيلي الفرزلي،

---

[1] وزير الخارجية وليد المعلم، ووزير الإعلام محسن بلال، ووزير السياحة سعد رجائي آغا القلعة، ومحافظ ريف دمشق.



خلدون المالح، شذا، وزير الإعلام، الوزير المعلّم، السفير علي المدني، وزير السياحة، ومحافظ ريف دمشق.

وسفير دولة الإمارات العربية المتّحدة، ومن الأقرباء وأصدقاء الدار: العماد ناجي جميل وزوجته الدكتورة ناديا، الدكتور إياد الشطّي والدكتورة هنا، د. نقولا شاهين، مروان وميادة مبيّض، دريد لحّام وهالة، خلدون المالح وماجدة، الدكتور عصام شعبان ورحاب، نذير أسنان ود. هيام، وطوني توما ورانيه، ورياض كحالة وليلى، والصناعي الكبير محمد صباغ وحيرى.

أُحيطت بركة السباحة بطاولات بلون الفوشيا، ملأتها الأزاهيرُ البديعة.



المطربة شهد برمدا.

ابتدأ الاحتفال بكلمة ألقاها ظريف دمشق رجا الشربجي. ثمّ كلمة شكر من صاحب التكريم صباح فخري، قدّم خلالها المطربة شهد برمدا التي غنّت كرمى لصباح. ثمّ أكمل صباح الليلة في جوّ من المرح، وقد بدا مستمتعًا بجوّ الاحتفال. وأذكر أنّ أجواء الانسجام والمرح جعلت المدعوّين كلّهم يشاركون في الرقص والغناء، ما حدا بالمخرج خلدون المالح إلى أن يغنّي بينما رقص على غنائه صباح. وكانت صبايا العائلة ينثرن بتلات الورد الدمشقي بعبيره الرائع على المدوّعين. نعم كان الحاضرون يشعرون وكأنّهم عائلة تحتفل بواحد من أفرادها.

كانت ليلة لا تنسى.

ابتلاء من الخالق

تروي لي السيّدة فاطمة الزهراء مراحل المرض الذي ألمّ بصباح، فمنعه من الغناء ثانيةً. إذ تقول:

«في صباح يوم من شهر شباط سنة 2010، فوجئت بأبي محمد يناديني لأرى أنّه يحاول أن يرفع يده ليسرّح شعره، فيراها تهبط بحركة لا إراديّة. طلب منّي أن أوقظ أنس ليرى ما حدث، ورأيت أن أتّصل بالدكتور عبد الرحمن الغبرة، الذي هرع ملبّيًا، ثمّ اقترح نقله إلى مستشفى العباسيين، مصطحبين معنا جهاز التنفس الذي اعتاد أن يستعمله منذ العام 2007، لعلاج مشكلة الشخير. وصدف أن كانت السيّدة حسناء السوسي التونسية قد جاءت إلينا لتوقيع عقد مع الأستاذ صباح لحفلات مهرجان قرطاج، فرافقتنا إلى المشفى حيث أُجريت له كافّة الفحوصات اللازمة، من تصوير أشعّة إلى تحليل دم، وتصوير الرنين المغناطيسي. وهنا، لم يتحمّل صباح دخوله إلى قفص جهاز الرنين المغناطيسي، ما اضطرّ الأطباء إلى تخديره. وكان ارتكاسه للمخدّر سيئًا أيضًا. إذ هبط نبضه إلى الـ 34 نبضة بالدقيقة، وبدا وجههُ شاحبًا. ومن حوله الأطباء يبذلون قصارى جهدهم لإنعاشه.»

تضيف أم أنس:

«لم أرَ الرعب على وجه ابني أنس كما رأيته في ذلك اليوم، إذ كان يردّد في دعائه لله: "يا ربّ تاخد من عمري وتزيدهم لعمر بابا وتشفيه".

كنت أشاركه الخوف، ولكنني اكتفيتُ بقراءة القرآن لتهدأ نفسي. أمّا ضيفتنا حسناء، فقد جلبت معها من تونس سلّة تحوي من العسل أجوده، ومن زيت الزيتون التونسي أطيبه، إضافة إلى ماء الزهر الذي بدأت برشقه عليه وهي تتلو آيات من القرآن الكريم. وسقته من العسل الذي تعتقد بشفائه للناس كما ورد في القرآن الكريم. في الآن نفسه، رأيت أنّه من واجبي أن أستدعي أبناءنا محمّد وعمر وطريف من حلب، فقَدِموا في اليوم التالي إلى دمشق.

توافد الأطباء عليه لتشخيص ما حصل. وكان أن أتى طبيب الأمراض العصبيّة الأستاذ أنس سبح، وطرح عليه أسئلة بالتتالي: اسمك؟...، شو اليوم؟...، بأيّة سنة نحن؟.... فلم يجب لتعبه من تأثير التخدير الذي خضع له.

مع ذلك، اتّصلت بالدكتور الهاشمي، طبيبه في ألمانيا، ليشارك أطباء دمشق في تشخيصهم. فاعتبروا أنّ ما أصابه هو خثرة دموية أصابت الدماغ، وطلب الهاشمي مجيئه على وجه السرعة إلى ألمانيا.

ولغرابة الموضوع، استفاق صباح وجلس بيننا، وكأنّ شيئًا لم يكن. تجاوز المرض بشكل كاملٍ، وطلب أن نسافر إلى حلب ليرتاح في منزله هناك. ولم يطل مكوثنا في الشهباء حتّى رغب في الذهاب إلى بيت الله في عمرة قضينا فيها عشرين يومًا. تعب خلالها، ما استدعى دخوله المستشفى في المملكة. وهناك لقي اهتمامًا من الجميع، واقتصر تشخيصهم لحالته على التعب.

عدنا إلى دمشق في أوائل الشهر الثالث، حيث كان مرتبطًا بالمشاركة في إحياء يوم القدس كعاصمة ثقافيّة، من دمشق. ذهبنا بعدها إلى تونس للمشاركة في إحياء مهرجانات قرطاج. ولم يكن صباح حينها في كامل صحته، إذ بدت عليه علامات التعب السريع. لاحظت في البروفة أنّ صباح لا يضع كأس الماء في مكانه، بل على طرف الطاولة حتّى تكاد تقع. وكان يتهرّب من الواقع بجبروت مَن لا يعترف بهزيمة أمام المرض. فراح يبرّر ذلك بالتعب وعدم الانتباه، بينما لم تغب عنّي حقيقة أنّه لم يكن على طبيعته.

بلغنا قاعة الحفلة، وقامت السيّدة حسناء السوسي بإلباسه العباءة التونسيّة لمهرجان قرطاج، وقُدّم له مشموم الياسمين كعادة أهل تونس.

ابتدأ صباح غناءه، ولاحظت خلال الدقائق الخمسة الأولى أنّه على غير عادته، يمسك بمكبّر الصوت مترنحًا إلى الخلف بميلان لم يلحظه سواي. شعرت أنّه يكاد يفقد توازنه. كان أنس في تلك الأثناء يحوم في الكواليس بين توزيع الصوت والإضاءة والتصوير، حرصًا على الكمال في كلّ شيء، فهرعت إلى مكالمته عبر نقّاله، وطلبت منه أن يُجلس أبيه على كرسيّ. تردّد أنس قائلًا: كيف أُجلسه وهو على المسرح!؟ فقلت له: أبوك تعبان يا أنس، وإذا وقع على المسرح لا سمح الله، سيطب عليه الـ 15 ألف متفرّج ويصبحون فوق رؤوسنا، وستدب الفوضى.

لم ينتظر أنس إتمامي حديثي، بل هرع إلى جلب كرسي من وراء الكواليس، ووقف خلف أبيه، ثمّ همس في أذنه ليجلس. جاء جواب أبي محمد بالرفض طبعًا، اعتدادًا بقوّته وبصحّته. وهنا،كان لا بدّ لي من أن أقترب من المسرح لأرجوه أن يجلس. وضعت يدي على ذقني بإشارة (كُرمى لي، ومنشان خاطري). فجلس صباح فخري على المسرح لأوّل مرّة بعباءته التونسية، ما أثار حماس الجمهور، فصفّق وهلّل لظنّه أنّ صباح اتّبع التقاليد التونسية في الغناء جالسًا.



مهرجان قرطاجة (2010).

سارت الأمور كما يجب. غنّى صباح. تجاوب الجمهور. لاحظت أيضًا ما لم يلحظه سواي وأنس، بأنّه أخطأ بكلمتين في أغنية "ابعتلي جواب". ولكن مرّتِ الحفلة على خير، لكونه مرتاحًا في جلسته.

دُعينا في اليوم التالي إلى عشاء في الحمّامات من قبل السيّدة الأولى. شعرت خلال السهرة أنّ صباح ليس على طبيعته، إذ أبدى ثقلًا في كلامه، وبطئًا في مشيته. ذكرت ذلك لصاحبة الدعوة، فأبدت استعدادها للمساعدة مهما حصل وفي أيّ وقت.

الصفحتان التاليتان: آخر عمل قدّمه صباح بمناسبة القدس عاصمة ثقافيّة.
من اليمين إلى اليسار: الإعلامي غسان بن جدو، الملحّن نصير شما، مؤلّف العمل الشاعر رامي اليوسف، لطفي بوشناق، ميادة حناوي، صباح فخري، سعدون جابر.





في صباح اليوم التالي، استيقظ صباح، ومشى مترنحًا فاقدًا توازنه مرّة أخرى. اتّصلت بالسفير السوري، الدكتور فيصل علوني، في السابعة صباحًا، فسبقني مشكورًا إلى مستشفى البحيرة. هناك وضعوه على كرسيّ ليصل إلى المصعد، إذ أنّ حالته تطوّرت إلى درجة لم تمكّنه من السير بضع خطوات.

أُدخل العناية المشدّدة، وبدأت دوامة التصوير والتحاليل وفحوص الأطباء. قضينا في المستشفى أربعة أيام، زارنا فيها رئيس البرلمانات العرب، ووزير الثقافة التونسيّ. وكان السفير السوري معنا منذ اللحظة الأولى، بينما جاء، في اليوم التالي، بشكل رسميّ ناقلًا رسالة السيّد رئيس الجمهورية السوري بتمنّياته لصباح فخري بالشفاء العاجل، واضعًا كلّ الإمكانيات اللازمة تحت تصرّفنا.

كانت لفتة كريمة من السيّد الرئيس - أطال الله في عمره - لا تُنسى.

عدنا إلى دمشق وقد تحسّنت صحة أبي محمد بشكل ملحوظ. ولم يطُل هذا التحسّن أكثر من شهر. تنقّلنا بين دار الشفاء ومستشفى الشامي، حيث اضطررنا إلى المكوث في الأخير، لصدور حركات غير إرادية من صباح، فأُجبروا على تثبيته في السرير، وبات ليلته في غرفة العناية المشدّدة.

خلال تلك الليلة المقيتة، ثابرتُ على تلاوة القرآن طالبةً زوجي من ربّ العالمين. وكأنّ الله استجاب دعواتي، وبفضله تعالى، وعناية الأطباء، استيقظنا صباح اليوم التالي، وفاجأني باستقباله لي بـ "صباح الخير".

كنت أعيش أيّامًا وساعات قلقة، بين تحسّن صحّته وتدهورها. لبثنا في المستشفى أسبوعًا، ثمّ خرجنا منه إلى دارنا في قرى الأسد، وهي خير مكان للنقاهة بعيدًا عن ضوضاء المدينة وصخبها. وعشنا هناك بهدوء من شهر آب حتّى تشرين الثاني.

لبّينا دعوة السفير المغربي، الدكتور إدريس الضحّاك، لحضور عرس ابنه في مراكش. كان من الأعراس التقليدية التي اشتُهر بها المغرب. وكانت ليلة مسروقة من أقاصيص ألف ليلة وليلة، استمرّت حتّى الصباح، فيما غادرنا قبل الثانية من بعد منتصف الليل، لتفاقم حالة أبي محمد الصحّية. كنت أرغب في حلّ حاسم لذلك، فارتأى الأطبّاء الذهاب إلى مصحّ أو منتجع لإجراء متابعة عامة، ومحاولة إنقاص وزنه.

عدنا إلى كازابلانكا، ومنها إلى ألمانيا.

اخترنا الذهاب إلى مصح Bad Wiessee بادفيزه، قرب ميونخ في ألمانيا. وهناك لاقت حالة صباح الصحّية تحسّنًا ملموسًا. عدنا بعدها إلى دمشق، ثمّ إلى حلب، لنحتفل بزواج أنس هناك. لم نُطل الإقامة، بل عدنا إلى دمشق بعد أسبوع، حيث دعا أنس رفاقه إلى المنزل في قرى الأسد ليودّع أهل زوجته. لم يستطع أبو محمد المشاركة لشعوره بالتعب، وكان لا بدّ من أن أخبر أنس بحالة أبيه وهو يودّع ضيوفه، فطلب سيارة الإسعاف لنقله إلى مشفى الشامي.

في غرفة العناية المشددة، كان بطيء الكلام، ضعيف الحركة. في اليوم التالي، ما أن رأى صديقًا من أعزّ الناس على قلبه، وهو أبو تميم، حتّى طلب الجلوس. قال مداعبًا صديقه: "إنت بتحبّ الشرقاوي!؟" ورفع صوته بغناءٍ بديع أدهش من حوله. حتّى أنّ الممرضات لم يتمالكن أنفسهنّ من البكاء فرحًا لمريضهم الذي اعتقدنَ أنّه تماثل للشفاء.

هذا لم يمنع أنس من تنفيذ قرار بالسفر كان قد اتّخذه، وأجرى له ما يلزم. وهكذا قصدنا ألمانيا في 2011/3/7، إلى المصح في بادفيزا، حيث مكثنا أسبوعًا تراجعت حالة أبي محمد خلاله. فأرسلونا إلى مستشفى متخصّص بالأعصاب (شونكلينيك) في مدينة ميونيخ. مكثنا هناك شهرًا كاملًا، أجريت لصباح خلاله كلّ الفحوص الطبّية اللازمة لتشخيص الحالة التي ألمّت به.

بعد خروجنا من المستشفى، انتقلنا إلى بيت مفروش أقمنا فيه ستة أشهر. وكانت حالة صباح في تحسّن بطيء ومستمرّ. بعدها ودّعنا ألمانيا، لنقضي فترة من النقاهة في منزل ابن أخت صباح، المهندس منير نصار، المقيم في طشقند.»

رحلة إلى طشقند

طشقند... تلك المدينة ذات الطبيعة الخلابة. ما أن تنطق باسمها، حتّى تنتقل بمخيّلتك إلى سحر الشرق، في عالم لم نعتد السفر إليه إلّا عبر بساط الريح في كتب التاريخ والأدب الراقي. وحين يرد اسمها إلى أذنيك، يتبعها اسم آخر لشقيقتها سمرقند التي نالت حصّة كبيرة من روايات الأدباء والمؤلفين. ومن كليهما، تغوص في عالم من الألوان بين الزهور والحرير، وأعياد النيروز والربيع الجميل...

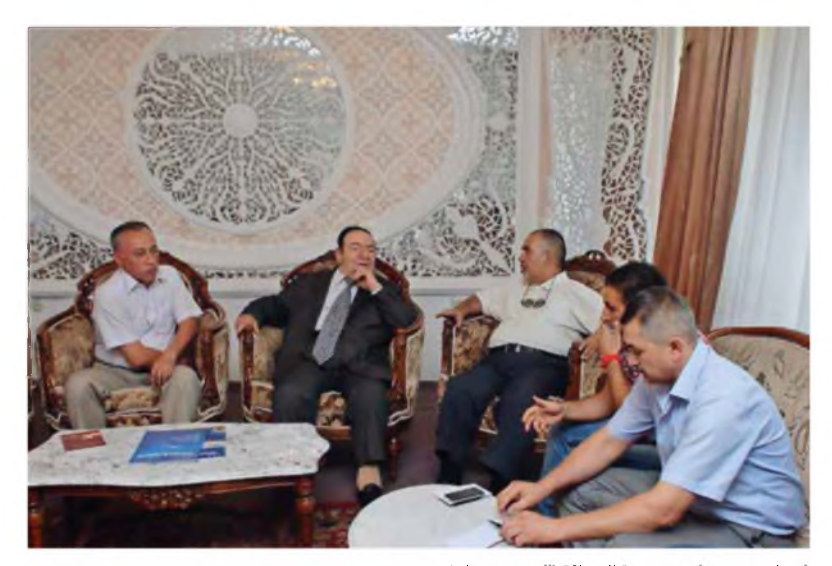
طشقند عاصمة أوزباكستان، و«عاصمة الثقافة للعالم الإسلامي» في العام 2007. مدينة أكرمها الخالق بجمال الطبيعة، وأثراها بتراثٍ إسلاميّ وفير، من مواقع اسلامية هامّة، مثل قبر الإمام البخاري، إلى مخطوطات نادرة، من أهمّها مصحف سيّدنا عثمان بن عفان الذي نقله تيمورلنك إلى سمرقند، ومنه انتقل إلى سان بيترسبورغ، وعاد أخيرًا إلى متحف في العاصمة الأوزبكيّة طشقند.

من جهة أخرى، تقع هذه المدينة في سهول مرويّة مليئة بالطمي، غرب جبال التاي. ما يمنحها خصوبة لا تُخفى على من يحضر ربيعها الخلّاب، ويرى فاكهتها وزهورها المتنوعة.

كانت زيارة صباح إليها فترة استجمام ونقاهة حقيقيين، تمتّع فيها صباح برفقة محبّين صادقين يرعونه برموش العين، ويحتضنونه في جنبات القلب. لم تخل الرحلة من زيارات للأماكن السياحية الجميلة، ومن معالجات فيزيائية يُتِم فيها ما بدأه في ألمانيا، في جوٍّ من الهدوء والراحة، بعيدًا عن أهوال الحرب وتساؤلات الناس. وهذا ما اقتضاه وضعه الصحّي.

ما أن بدأ يتماثل للشفاء مجدّدًا، حتّى تسلّل الضجر إلى قلب من اعتاد الحفلات، الجماهير والمسارح.

وينوّه أنس بقوله: «لقد وصل إلى مشارف الثمانين من عمره وهو يغنّي وينشد، يؤلّف ويلحّن، يطرب ويرقص مع جمهوره الذي يحبه. وقد قال لي بالحرف: "ابني، أنا بدي أموت على المسرح مثل طلال المدّاح... أنا بحبّ الناس والجمهور... وما بحب الفرشة والمرض"».



في طشقند مع رئيس جمعية الصداقة (إلى يمين صباح).



عزف على الطنبور بزق تكريمًا لصباح فخري.

في بَيرُوت




صباح فخري مع رؤساء لبنان.

> «كان لا بدّ من اختيار مدينة نلجأ إليها إلى حين؛ فحلب لا يمكن السفر إليها والحرب مشتعلة فيها بوحشية لم نرَ لها مثيلًا، ودمشق في حالة من عدم الاستقرار لتعرّضها لقذائف تسقط بين أحيائها، مدمّرةً بيوتًا على سكّانها الأبرياء... وهكذا استقرّ رأينا على بيروت...»

كان هذا ما جاء على لسان أنس صباح فخري.

حفلة أسواق بيروت

في بيروت، فوجئ جمهور صباح بعملاق الأغنية الأصيلة تغدره قواه الجسدية، ويغلبه المرض. ولكنه صفّق له وحيّاه. فالجمهور الوفي لم ينسَ أنّ مَن خانه صوته اليوم، لعذر صحي، قد أطربه ثمانين عامًا... وكان أن تقبّلت الجماهير واقع الحال رغم إيلامه.

كرّم لبنان، الذي يقدّر كلّ ثمين، هذا العملاق الذي هوى في كثير من المناسبات، وعلى أغلب الفضائيات.



أنس يناجي والده في حفلة أسواق بيروت.




34
32

تكريمُ MTV لَهُ

2017

كان تكريمًا رائعًا يليق بملك القدود، أستاذ الأصالة، عنوان الطرب، صنّاجة الغناء، الأسطورة الحيّة، صباح فخري.

تربّع على عرش الموسيقى العربية بجدارة، وحفظ لنفسه مكانًا في قمّتها تحت الشمس، بين رموز الفنّ الأصيل، وحَفَظة الكنوز الأمينين، وناقلي التراث لأجيال المستقبل.

بدا التكريم قويًّا صريحًا، بتقديم الإعلاميّة الرائعة سعاد قاروط العشي، بينما ارتفع إلى ما فوق السحاب بكلمة الأستاذ الكبير إيلي الفرزلي، فطغت كلمته المنثورة شعريًّا على كلّ ما قيل في الحفل.

جلس صباح على المسرح كالملك المتوّج. وخشع المسرح احترامًا لمن كان يصول فيه في شبابه ويجول. مَن كان يغني فيُطرِب، ويَنتشي فيرقِّص. وانحنى الجميع احترامًا لكبير السنّ، عملاق الفنّ.

فرض الزمان وجوده على الحدث العظيم. رسم خطوطه بعمق، على وجهٍ لم يقاوم أحكام العمر ومشيئة الخالق. وانتقص من قدرات حنجرة ذهبيّة، أرادت أن تقدّم رمزَ شكرٍ لتكريم استحقّته، فخانت صاحبها خاضعة لسنّة الكون.

أيّها الملك المتوّج، لا بأس عليك. ما زال صوتك الشابّ يرنّ في آذاننا. وما زالت أغانيك الجميلة تصدح في ذاكرتنا. قدّمت لنا وللعالم كنزًا خالدًا، سيبقى ذخرًا لنا ولأجيال قادمة لم تسمعك بعد. لا بأس عليك.

أنت، كما قلعة حلب العظيمة، تعرّضَتْ لنوائب الدهر. لكنّ حبّها وإجلالها في ازدياد. لأنّها وأنت، رمزان خالدان، لحلب العراقة والتراث.

أطال الله في عمرك. وحماك...

فحبّ حلب والجماهير العربية لك، على طول الدهر، في ازدياد.

حِوارٌ مَعَ أُسْطورَة

القدود والموشّح

• أستاذي الكريم، ما هو القدّ؟ ولماذا اشتُهرت القدود في حلب عن باقي العالم، ودُعيت بالقدود الحلبية؟

أختي الكريمة. القدّ هو غناء للحنٍ مأخوذ عن أغنية تراثيّة قديمة بكلمات أخرى. أيّ أنّ اللحن واحد وتختلف الكلمات. وغالبًا ما تغيّرت كلمات الغزل إلى كلماتٍ صوفية ودينية. والقدود موجودة في كلّ مكان وزمان. خذي مثلًا أغنية الرحابنة «يا من يحنّ إليك فؤادي، هل تذكرين عهود الوداد»، إنّها لحن «يا مال الشام ويالله يا مالي، طال المطال يا حلوة تعالي». كذلك «اذكريني كلّما الطير شدا»، هي مثل «بالذي أسكر من عرف اللما». أمّا لماذا اشتهرت القدود الحلبية، فلأنّها الأجمل أداء. ولأنّها اختيرت من التراث الأصيل. وجُمعت لتقدَّم للجمهور بصوت أقدر المطربين والملحّنين والمؤدّين.

• هل يمكنني القول إنّ صباح فخري هو الذي توّجَ حلبَ على قمّة القدود؟

صباح تبع خطّ الأوائل من جهابذة حلب في القدّ والموشّح. واختار منها ما جمعه في بوتقة، أضاف إليها من توابله، وصهرها في قالب اسمه صباح فخري. وقدّمه باسم القدود والموشّحات الحلبية. ولا يخفى عليك أنّ عمر البطش هو ملك الموشّح.

• أراك تتحدّث عن صباح كشخص ثالث!

أجبتك كما سألت... إضافة إلى أنّني أتحدّث بتجرّد عن فنّان اسمه صباح فخري كناقد فنّي وكأنّه لا يمثّلني.

• حدّثني عن الموشّح.

الموشّح هو ثورة على القيود، وميل إلى التجديد. هرب الموشّح بالكلمة والنغم خارج القالب التقليديّ، منسجمًا مع متطلّبات عصرٍ بنى حضارةً واكتسب رفاهيةً، في ظلال دولة الأندلس بمزيجها العربي الإسباني الجميل. لم ينس شاعر الموشّح العَروض العربي في شعره. لكنّه نظمه في إيقاع يتناسب مع النغم، فجعله متنوّع الأوزان، متعدّد القوافي. ووشّحه ورصّعه بتمازج بين الكلمات العربيّة والعامية المتداولة آنذاك. فأسموه موشّحًا.

ظلّ يحمل كلمات الهوى في غناء مترافقٍ برقص عاش في خيال المبدعين طويلًا. ليقدّم لنا بعد قرون من الزمن، رقصًا انصهر فيه الإيقاع بالجسد، والكلمة بالروح، في تناغم بين النغمة والحركة بما سُمِّيَ رقص السماح.



• إذًا حدثني عن السماح الذي أعشق.

هو تعبير عن تجاوب حركة القدمين مع إيقاع الموشّح، وتمايل الجسم مع النغم والكلمة. ابتدأ بتصعيد صوفيّ روحاني، ابتدعه منشدو الموشّحات الدينية. ورافقوه بنقرٍ على الدفوف بعد طلب السماح من راعي الجلسة بالحركة، محلّقين في قمّة النشوة من الغرام، والانسجام في الدّعاء.

• نعود إلى الموشّح.

في مدينة الفنّ العريق، تابع الموشّح تطوّره متلائمًا مع البيئة الحلبية الثرية بمخزونها الفنّي عبر التاريخ: من أعلامٍ في الموسيقى الشرقية، وخبراء في فنّ الغناء الأصيل. ليقدِّم، على يد عمر البطش، إضافةَ الخانات إلى الموشّح البسيط، وليُدخِل إيقاعات معقّدة على الموشّح التقليدي والأندلسي، مانحًا إيّاه لونًا مميّزًا نهل منه عمالقة الغناء في العالم العربي والإسلاميّ. وصبغةً جديدة أضفت عليه سماته ووهبته اسمه الموشّح الحلبي. فأُطلق على محرّره عمر البطش، لقبَ الوشَّاح الأوّل.

• إذًا هكذا عاد الموشّح من غربته إلى عميق جذوره. عاد لينطلق من جديد بلونه الشرقي الصميم، وإيقاعه المستحدَث، مترافقًا مع رقص السماح الراقي الذي كان يؤدّى بشكل جماعي، بتشكيلاتٍ بديعة من الراقصين. ما لبث أن انضمّت إليه تشكيلات من الفتيات اللواتي أضفنَ إلى هذا التراث البديع، لمسةَ الفنّ الأنثوي في حركات اليدين، وتمايل الجسد، مع رقّة في الأداء وجمال في المظهر واللباس.

نعم. هكذا طوّرت حلب غناء الموشّح ورقص السماح بتزامن حتميّ، بفضل عاشقين للإيقاع والنغم، أمثال عقيل المنبجي، أحمد عقيل، ثمّ عمر البطش الذي نقله إلى دمشق. ومنها انتشر عبر تلاميذه، في معهد الموسيقى الشرقية الذي أسّسه فخري البارودي.

• أستاذ صباح، بعد أن تحدّثنا مطوّلًا عن الموشّح، هل لك أن تدعم مقالي هذا ببعض الأمثلة عن الموشّح القديم والموشّح الحلبي الذي لملمتَ أطرافه، وقدّمته بأسلوبك الجميل؟

الأمثلة أختي الكريمة كثيرة، سوف أذكر لك منها:

أحنّ شوقًا إلى ديارٍ رأيت فيها جمال سلمى
وهي من مقام الراست

يا هلالًا غاب عني واحتجب وهجرني دون ذنب أو سبب
وهي أيضًا من مقام الراست

يا من لعبت به الشمول ما ألطف هذه الشمائل
من مقام الراست (الفالس)

أمّا هذا :
دور: يا بهجة الروح جِدْ لي بالوصال الفؤاد مجروح ولا له احتمال

دور: إزاي تهجرني وأنا قلبي بهواك بعدك جنّني جد لي بالوصال
خانة: هات كاس الراح واسقني الأقداح. وجهك الوضاح. ماله من مثال
غطاء: جد لي يا بدري بِلثم الثغر الهوى العذريّ خلّى حالي حال
هو من مقام حجاز كرد، من ألحان سيد درويش. بينما لحّن الخانة عمر البطش.

هناك أيضًا دور: أيّها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع / ونديم همت في غرّته
خانة: وبشرب الراح من راحته / كلّما استيقظ من سكرته
دور: جذب الرقّ إليه واتّكا. وسقاني أربعًا في أربع / ما لعيني غشيت بالنظر
خانة: أنكرت بعدك ضوء القمر / فإذا ما شئت، فاسمع خبري
غطاء: غشيت عيناي من طول البكا. وبكى بعضي على بعضي معي
وهي من مقام هزام، إيقاع 9/8. بينما الخانة فالس ثلاثي من ألحان مجدي العقيلي.

• أحبّ من الموشّحات: ملّا الكاسات وسقاني. نحيل الخصر والقد
إنّها سماعي ثقيل من مقام الراست.

• وأحبّ: كلّلي يا سحب تيجان الربا. بالحلي / واجعلي سوارها منعطف الجدول
هذا الموشّح لابن سناء الملك، ومن ألحان محمد عثمان.

• وعزيز على قلبي موشّح: املالي الأقداح صرفًا/ واسقينها للصباح لأنّنا كنّا نفتتح به رقصة السماح في مدرسة الملكة ضيفة. وقد درّبنا عليها الأستاذ بهجت حسان.
جميل جدًّا. إنّه سماعي ثقيل أيضًا من ألحان إسكندر شلفون، غالبًا ما افتتحت به حفلاتي. أرى أنّ الحديث عن الموشّح يطول ولا ينتهي. وقد غنّيت عددًا كبيرًا من الموشّحات.

• ما أجمله من كلام نتمنّى ألّا يتوقّف من حارسٍ للكنوز من موشّحات وقدود.
من هم جهابذة الطرب برأي صباح فخري؟ من عاصرتَ منهم؟ ومن أحببت؟
أوّل من تعرفت إليه من فنّاني حلب وتأثّرت فيه، كان مصطفى الطراب الذي كان يتميّز بهانغ خاص، وأخذت عنه شيئًا من هانغه. بكري الكردي، أحمد البقش، محمد النصار... عاصرتهم واجتمعت بهم. وأخذتُ من كلٍّ منهم ميزةً؛ الفقش مثلًا، كان يتميّز باللون الشرقاوي. وأعتبره ملك الشرقاوي. أخذتُ منه حركة (هنا غنّى صباح مقطعًا شرقاويًّا ختمه بـ«يابابا») بطريقة الفقش.
بكري الكردي أستاذ وملحّن. وقد غنّيتُ له كلّ ألحانه. وقد تعلّم من مجدي العقيلي عزف العود، بينما علّمه الأخير هانغ الموشحات (أيّها الساقي إليك المشتكى).
النصّار كان مجدّدًا بمخزونه الثريّ من الأغاني، إذ كان لا يكرّر اللحن نفسه في الجلسات المتتالية.

• من بنى الطرب غيرهم؟
الأوبري، حدّثني عنه عزيز غنّام، فهو من الجيل الذي سبقني.

• علي الدرويش؟

لم يدرّسني شخصيًّا، ولكنّه كان من السمّيعة الذين يمتحنون المطرب قبل أن يتقدّم إلى الجمهور.

• فؤاد رجائي؟

له مؤلّفات في الموسيقى (من كنوزنا). وهي من المراجع الممتازة والغنيّة.

• هناك سامي الشوا أمير الكمان.

لسامي الشوّا فضل كبير على تقديمي إلى الجمهور، وتهذيب شخصيّتي في صغري. وهو عازف كمان من الدرجة الأولى. وهناك أيضًا توفيق الصبّاغ، أستاذ الكمان. وكان يؤلّف السماعي على وترٍ واحد.

• عمر البطش، أين يقع بين هؤلاء؟

عمر أمير الموشّح. لا يتقدّم عليه أحدٌ في هذا المجال. فهو الوشّاح الأوّل، ومَن وضع أسس رقص السماح. وتعلّم منه سيّد درويش بعض الإضافات إلى الموشّح.

• محمد رجب؟

إنّه عازف النشأت كار، وهي آلة موسيقية تشبه الهارب، ولها زند طويل. وقد علّمني موشّح «يا هلالًا غاب عني واحتجب». فأتقنته وأنا طفل برغم صعوبته.

• صبري المدلّل؟

مطرب أصيل جميل الصوت والأداء، خصوصًا في صباه. كنت أحبّ زيارته في حي الجديدة، حيث علّمني «أصل الغرام نظرة». وقد حافظ على صوته فترةً طويلة من الزمن. وغنّى، طوال عمره، بأداء سليم وبدون نشاذ. واستمرّ يغنّي لأمّ كلثوم وقد بلغ الخامسة والثمانين.

• زكية حمدان؟

كانت تلميذة الموسيقيّ انطوان ظابيطا الذي وزّع لي «اِسق العطاش»، حين سجّلتُها في لبنان (وكان «يدوزن» البيانو «عربي»). زكيّة حمدان مطربة لها لون خاص، اشتهرت بأغنية «سَلَيمى».

• دعنا أستاذي الكريم نستمع إلى تقييمك للأصوات الجميلة، مها الجابري، ما تقييمك لصوتها؟

صوتها ممتاز. وأضعها في الصفّ الأوّل بين مطربات العالم العربي. برغم أنّها لم تنل نصيبها من الشهرة.

• محمد خيري؟

محمد خيري كان من جيلي؛ إذ كنّا نَدَّين على الساحة. صوته جميل جدًّا، وأداؤه كذلك. ولكنّه أكثر من الشرب والسهر فأساء إلى صحّته.

• ميادة الحنّاوي؟

طبعًا من أصوات حلب الجميلة ميادة وفاتن حناوي...

• نور مهنّا؟

مطرب ذو صوت جميل وأداء جيّد. يقال عن صوته «الأخَنّ». كما يقال عن صوت «أبو سلمو» الأجَشّ، وهو مغنٍّ شعبي.

• ربا الجمّال؟

صوت وأداء مميّزان، وهي أرمنيّة حلبية.

• وماذا عن دمشق؟

في دمشق ظهر بهجت الأستاذ - فتى دمشق - في عالم الطرب، متزامنًا مع صعودي. قبل ذلك، تفخر دمشق بأبي خليل القبّاني، مؤسّس المسرح العربي. بينما نردّد من ألحانه الجميلة «يا طيرة طيري»، و«يا مال الشام»، و«صيد العصاري»، و«يا مسعدك صبحيّة»، و«ما احتيالي...»

أمّا فخري بك البارودي، فله كبير الفضل في تأسيس المعهد الموسيقي الشرقيّ، مثلما كان فؤاد رجائي في حلب.

ومن حمص، ياسين حمشو (ياسين محمود). اشتهرت له أغنية «بيش الغوازل».

ومن حماة، المطرب نجيب السراج: يا بيضة يا حلوة، وفوق النخل يا سليمة. وهناك عمر النقشبندي الذي لحّن «رقصة ستّي» المشهورة.

ومن اللاذقية، محمود العجّان، وهو عازف كمان.

• هلّا حدّثتني عن الخليج العربي.

في الخليج العربي نمط غنائيّ مميّز، وهناك أصوات جميلة تجيد أداء هذا اللون. أمّا من يعجبني، فهو طلال المدّاح كأفضل الأصوات. وهناك أبو بكر سالم، وكثيرون من الفنّانين، ولهم جمهورهم.

• ماذا عن المغرب العربيّ؟

من المغرب، أختار عبد الهادي بلخياط أجملَ صوت.

ومن تونس خميس ترنان، وفتحيّة خيري، وعليّة التونسية. واليوم بوشناق وصابر الرباعي.

في الجزائر وردة. وهناك الكثير من الأصوات الصاعدة في المغرب العربيّ.

• وماذا عن لبنان؟

ومن لبنان، سعاد محمد، لبنانية مصرية مطربة في الصفّ الأوّل. غنّت في حلب وانطلقت من دمشق. غنّت «وحشتني»، وأغاني أخرى رائعة.

وهناك أيضًا صابر الصفح، وكان يسمّى مطرب الأرز. صوته جميل وكذلك أداؤه.

• ماذا عن وديع الصافي؟

وديع حبيبي، صوت جبليّ طربي فريد ومتميّز. أطرب لسماعه

• أطلق عليه محمد عبد الوهاب لقبَ مطرب المطربين. فيروز؟

لونٌ ساحر، وصوت محبّب إلى قلوب الناس على مختلف أذواقهم. قدّمها الرحابنة للجمهور بعبقريّة فريدة.

• صباح؟

أحببتُ صوتها القادر، وأنوثتها الفائضة، ولونها المميّز.

• فيروز؟

إنّها المطربة ذات الصوت الملائكي الرقيق، إنّها نموذج فريد لا مثيل له.

• الرحابنة؟

قدّم الأخوان رحباني أجمل الأغاني بصوت فيروز المتميّز، ومنحاها ألحانًا تناسب صوتها، ومسرحيّات تليق بها. إنّهما من عبقريات التحديث في الموسيقى العربية، لأنّهما مدرسة بحدّ ذاتها. ومدرسة الرحابنة ولادة، إذ استمرّ منصور بمسرحيّاته بعد عاصي، وكان لإلياس لونه الخاص. وقد ترك الرحابنة لأبنائهم إرثًا سرى في عروقهم... لا شكّ أنّ لكلّ واحد فيهم لون ولكنّهم ينتمون إلى مدرسة حديثة تقتبس من القديم لتقدّمه بأسلوب جديد.

• وماذا عن العراق؟

في العراق ناظم الغزالي مطرب أصيل. له بصمته في الفنّ العراقيّ الأصيل.

(هنا أَحبَّ أن يتوقّف عن الحوار الذي لا ينتهي)

لنكتفِ بما ذكرنا، فأنا لا أحبّ أن أخوض في تقييم الفنّانين. ربّما نسيت بعضهم، وأغفلت كثيرين. والبلاد العربية ولّادة... في المحصّلة، الجمهور هو الحكم.

دعيني أسألكِ أنا: ما هي لغة الكون؟

• أتقصد الموسيقى؟

نعم الموسيقى التي ابتدأت مع بدء الحياة. هي لغة الكون، من زمجرة الريح إلى حفيف الشجر، إلى تلاطم الموج على صخور الشاطئ... إنّها اللغة العالميّة التي لا تتوقّف عند بلد أو منطقة.

كلّنا نطرب لصوت البلبل والشحرور، ونخشى صوت الرعد. نحبّ زخَّ المطر وخرير المياه. ولقد كرّم الله الإنسانَ بأجمل الأصوات؛ ألم يختر سيّدُنا محمد بلالًا الحبشي ليؤذّن في الناس!؟ جمال الصوت نعمةٌ من الخالق، وليست حكرًا على مكان ولا زمان.

• نشكره ونحمده على نعمه، وعلى إكرامه بلادنا بأجمل الأصوات التي نعتزّ بها ونفخر.
سليم غزالة كان عازف قانون ممتاز، ورئيس فرقة موسيقيّة.

• أستاذ صباح، دعني أذكر من عمالقة الموسيقى عازفَ الكمان العالميّ نجمي السكّري، وأخاه رياض الموسيقار العالميّ أيضًا.

صباح والوطن

• عرفناك صباح فخري ابن حلب وعاشقها، منذ طفولتك في حيّ القصيلة حتّى سكنت دمشق، ومنها خطوت نحو العالميّة. لطالما أحببت أن أسألك عن مشاعرك الوطنية، عن دمشق، عن حلب، عن كلّ مدن سورية الغالية، عن الوطن العربي، عن تفاعلك مع أحداثٍ عظيمة هزّت كيان الوطن ولم تزل. لست أدري من أين أبدأ.

كما ذكرتِ، أنا ابن حلب، ومن حاراتها القديمة. وكياني كلّه متأثّر بهوائها، وبترابها، بأزقّتها ودورِها، بأسواقها، بقلعتها الشامخة، بأهلها محبّي الفرح، وعاشقي النغم، بتاريخها، بتراثها، بحضارات دمغت ترابها وحجرها وطعامها وناسها. وكأهالي حلب كلّهم، أعشقها. وأعشق وطني العربي كلّه من خلالها. وأتفاعل مع كلّ حدث يمرّ على أمّتنا. ممّا لا شكّ فيه أنّني كنت متعاطفًا مع الحركات الوطنية التي نشأت في سورية ضدّ الاستعمار، ومؤمنًا بالقضية الفلسطينية حتّى اليوم.

وأيضًا، مثل أهالي حلب، تحمّست لجمال عبد الناصر انسجامًا مع شعوري بانتمائي العربي الذي أؤمن بأنّه الموحِّد لأمّتنا ومنطقتنا. وبرغم نشوئي في بيئة دينية صرف، إلّا أنّني أكره التعصّب الطائفي والمذهبي. لأنّه الفتنة التي تفرّق الأمّة وتشرذمها. وأرى الخير في كلّ الأديان السماوية.

• أعلم ذلك جيّدًا. وأعرف أنّ المسلم والمسيحي واليهودي في حلب يحبّون سماعك، بل ويعشقون صوتك. ولكن، ماذا غنّيت للوطن؟

من الأغاني الوطنيّة، الخاصّة بصباح فخري، «حكاية شهيد». من كلمات عبد الرحيم محمود،[1] وألحان سهيل عرفة:

سأحمل روحي على راحتي	**وألقي بها في مهاوي الردى**
فإمّا حياة تسرّ الصديق	**وإمّا ممات يغيظ العدا**
ونفس الشريف لها غايتان	**ورود المنايا ونيل المنى**
وما العيش لا عشت إن لم أكن	**مخُوف الجناح حرام الحمى**

[1] من روائع قصائد الشاعر الفلسطيني المناضل عبد الرحيم محمود وأشهرها. والتي كتبها في الرابعة والعشرين من عمره، ولقب على أثرها بالشهيد. ولكنّه نال الشهادة في الخامسة والثلاثين، حمله رفاقه مصابًا وهو يتمتم:

احملوني احملوني	واحذروا أن تتركوني
وخذوني ولا تخافوا	وإذا مت ادفنوني

لعمرك إنّي أرى مصرعي	ولكن أغُذ إليه الخطا
أرى مقتلي دون حقّي السليب	ودون بلادي هو المبتغى
يَلَذُّ لأذني سماع الصليل	ويبهج نفسي مسيل الدما
وجسمٌ تجندل فوق التراب	تُناوشه جارحات الفلا
كسا دمه الأرض بالأرجوان	وأثقل بالعطر ريح الصَبا
ونام ليحلم حلم الخلود	ويهنأ فيه بأحلى الرؤى

• كنتَ قد حدّثتني عن قصيدة «وطني»، بعد اندلاع حرب العام 1967. هلّا تابعت الحديث عن أغانيك الوطنية؟

في عام 1951، ذهبت لتسجيل أغنية «للعلا يا شباب» في الإذاعة السورية في دمشق. وكان السيد تيسير عقيل رئيسَ دائرة الموسيقى في إذاعة دمشق. فطلب منّي أن أسجّلها في إذاعة حلب. كنت وقتها ما زلت في الخدمة العسكرية. أعدتُ المحاولة مرّة أخرى، عندما استلم الدائرة الأستاذ رفيق شكري الذي ألحّ على وجوب وجود نوتة موسيقية للأغنية. ولكنّني قلت له يومها إنّها لا تحتاج إلى نوتة لتسجيلها، لأنّها عبارة عن جملتين موسيقيتين، يمكنني إعطاءهما للفرقة بكلّ سهولة. وتعرّضت أغنيتي للعرقلة ثانيةً، فسجّلتها في إذاعة حلب:

للعلا يا شباب، يا أسود الصعاب
بادروا للحمى، وابذلوا للدما
للعلا يا شباب

ومن الأغاني الوطنية أيضًا، أغنية «عقدنا العزم»، من كلمات شاكر بريخان[2] (وهو الفنّان الذي لم ينل حقّه من الشهرة، فقد قدّم لسورية، وللفنّ السوري الكثير)، وألحان حسين نازك. وسجّلتها في حرب رمضان عام 1973.

هناك قصيدة من كلمات سعادة السفير السوري عيسى درويش، لحّنها عدنان أبو الشامات، وغنّيتها في دار الأوبرا المصرية في العام 2000:

من قاسيون تحيّة وسلام	يا مصر أنت الحبّ والإلهام
العبقرية في ثراك تفتّحت	دررَ الكنوز الحرف والأرقام
والشام أختك بالجمال تفرّدت	قمم الجمال الحزم والإقدام
مصر الهوى والحبّ وحد بيننا	لك في القلوب منازل ومقام
رفعت إليك الشام رايةَ وحدة	ما بدّلت من سحرها الأعوام
لغةٌ توحّدنا ودينٌ خالد	وعروبة تزهو بها الأيام
أسمعتَ يا بردى إلى النيل	الذي في ساحه تتكلم الأهرام

[2] شاكر بريخان: فنّان حلبي متعدّد المواهب. مارس التمثيل المسرحي والتأليف. واهتمّ بالأغاني الوطنية التي ساهم فيها كتابة ولحنًا، في كلّ مناسبة وطنية مرّت على البلاد. لحّن أكثر من 190 أغنية. وكتب كلمات أكثر من 70 أغنية.

إن مسّكم جرحٌ فأنتم مثلُنا	في الجرح تُقسَم بيننا الآلام
أو هاجكم فرحٌ دمشقُ كلّها	فرحٌ تغني مثلَكم والشام
بَلَدان في سِفر العروبة واحد	فهما على صدر الزمان وسام

• والله إنّها كلمات تنبع من القلب، وتنطق بلسان كلّ سوري محبّ لوطنه العربي. ولا بدّ أنّها حملت أوضح رسالة من بلاد الشام إلى مصر العروبة. وبلسان أفضل رسولٍ يصدح بتلك العبارات. والله لا أمَلّ من سماع هذه القصيدة بصوتك الجميل، وأدائك الرائع، ومشاعرك الصادقة المعبرة.

أمّا «حكاية وطن»، فقد قدّمتها في صالة الفيحاء في دمشق عام 1990، في احتفالات ذكرى الحركة التصحيحية. والقصيدة من شعر عبد الباسط الصوفي، وهو شاعر وأديب من حمص. ومن ألحان إبراهيم جودت:

وعَيتُك، في جبهة المتعَب	وفي خلجةِ النغم المطرِبِ
وعيتُك، صمتًا عميقَ الظنون	وصوتًا تفجّر في الغيهبِ
وفي شهقةٍ من جراح الظلام	وفي صرخة القدر المرعِبِ
وعيتُك يا وطني في الضمير	صلاة؛كأنّها نجوى نبي
مع الطفل في مهدِهِ الشاعر	مع الأم جاثيةً والأبِ
مع الفجر يغرق في صحوِه	مع الشمس في كونها الأرحبِ
وعيتك في سنبل كالنُضار	وفي منجلٍ بارد أصلب
وفي كلّ أرضٍ مع الكادحين	يشقّون درب الغد المختبي

• أستاذ صباح، هل تشعر بأنّك مقلٌّ في غنائك لحلب، بنسبة عشقك لها... فها هو نزار قباني، يذكر دمشق في أكثر قصائده البديعة. ويغازلها كجميلة من معشوقاته، وحوريات قصائده؟

في الحقيقة لم ترد المناسبة لأذكر حلب بما يفيها حقّها. كنت أذكرها في أغان تراثية كـ«يا مال الشام»، فأقول «يا مال الشهبا»، كما ترد في أغنية «عالروزانا»:

يا رايحين عحلب حبّي معاكم راح   يا محمّلين العنب تحت العنب تفّاح

وتبقى قصيدة «سلي فؤادي عن الخضراء يا حلب» الأحبّ إلى قلبي.

حاولتُ أن أرسم جغرافيا فنّية لسورية، بل وللوطن العربي. فمن حلب حيث انطلقتُ، غنّيتُ القدود التي اتّخذت منها اسمها فالتصق بها. كما التصقت بصباح فخري، فسمّوني «ملك القدود». وعندما تُذكرُ القدود، تُذكر حلب.

• وماذا غنّيت لدمشق؟

ولدمشق غنيت:

يا مال الشام ويالله يا مالي	طال المطال يا حلوة تعالي

وأحبّ أن أنوّه هنا إلى أنّ الرحابنة جعلوا من لحنها أغنية لفيروز:

يا من يحن إليك فؤادي هل تذكرين عهود الوداد

كما غنّيت:

يا طيرة طيري يا حمامة وانزلي بدمّر والهامة
هاتيلي من حبّي علامة هالأسمر أبو الخال
أنا على ديني، جنّنتيني على ديني العشق حرام والله

- حمص وحماة؟

ومن حماه، وحمص:

والله لعبّي الجرّة من ميّتَك يا عاصي
وحبّي راسه بيوجعو ريت الوجع لراسي

ولحمص أيضًا:

يا نهر حمص (في الوادي الكبير).

- الساحل السوري؟

ومن الفولكلور اللاذقاني:

يا محلا الفسحة يا عيني على راس البر
والقمر نور عيني على موج البحر
قاللي تعالي يا شاغلة بالي
كوني حلالي على طول العمر
أصل المحبّة ضحكة ولعبة
خلّينا صحبة يا عيني على طول العمر

- حلب؟

ومن الحلبي الأصيل أيضًا:

هالأسمر اللون هالأسمراني
زعلان يا قلب خيّو هواك رماني

و:

جاني حبيبي أبو الحلقة والكاتب يكتب بالورقة
حبّك قاسي وما له شفقة روح يا عزول وابعد عنّي

- الجزيرة؟

وللجزيرة السورية:

وجوّزوها صغيرة ويا جزاة الندامة
وشيخ الكتبلا الكتاب يعيشوا أولاده يتامى
وبين الرقّة ودير الزور عدوا تلاتة بنات
والوحدة منهم حلوة يجعل أمّها حماتي

• ماذا غنّيت للعالم العربي؟

للبنان، قصيدة إيليا أبو ماضي:
الأرض سورية أحبّ ربوعها عندي ولبنان أعزّ جبالها

ولمصر، قصيدة عيسى درويش.

وللعراق، كنت أنقل إليهم، في مهرجان الربيع، ألوانًا يحبّونها مثل: «عمّي يا بيّاع الورد»، و«فوق النخل».

ولتونس، «سلي فؤادي عن الخضراء يا حلب».

أمّا لفلسطين، فقد شاركت سنة 2010، في أوبريت لفلسطين في دار الأوبرا في دمشق لرامي اليوسف، بمناسبة اختيار القدس عاصمة ثقافيّة. كتب الشاعر رامي اليوسف أوبريت القدس، ولحّنها نصير شمة. غنّيتُ فيها مع نخبة من نجوم الغناء العربي، مثل: لطفي بوشناق، وميادة الحناوي، وسعدون جابر. وأخرجها نضال سيجري.

ختمتُ الأوبريت بمقطع:
وجهُكِ في الدجى بدري وفي عينيك أغنيتي
وعشقك في دمي يَسري فأنت صلاة هذا الفجرِ
وقنديلٌ يضيء الدرب لعشّ الحبّ والطير
وإنّك قدسُ من صبروا على الآلام والقهر
ودربك طهرُ من نزفوا على الأشواك والجمر
وأنت الحلم يا قدسي ونبض العشق في صدري
وقدس القمح والزيتون والأفكار في الفجر
وأنت مدينة الميلاد والإسراء والطهر
يا قدس... يا إلهي القدس بين يديك

وقد اشترك أنس صباح فخري في مقطع الشهيد.

• أرى أنّك لم تركّز اهتمامك فقط على مغازلة الجغرافيا، بقدر محاولاتك استنباط تراث الشعوب فيها، وإعادة إحياء الموروث الجميل منه في قالبٍ من صياغتك، وبصوتٍ قادرٍ على أداء المستحيل، ومن ثمّ إيصاله إلى قلوب أهله ليترسّخ في عقول الأجيال القادمة وذاكرتهم...

عمالقة الفنّ في الشرق

• عندما نذكر عمالقة الفنّ الشرقي، لا بدّ أن نعترف بأنّ لمصر حظًّا كبيرًا من هؤلاء. ولا بدّ أنّ لدى صباح فخري انطباعًا خاصًا عن كلّ منهم. هل لك أن تصف لي كلّ واحدٍ من كبار فنّاني الأصالة بكلمة أو عبارة؟

من أوائل الفنّانين في مصر أبو العلا محمد. هو بتقييم المصريين سيّد القصيدة، مثل:

وحقّك أنت المنى والطلب وأنت المراد وأنت الأرب

وقد اقتبس منها الأستاذ محمد عبد الوهاب:

علّموه كيف يجفو فجفا ظالم لاقيت منه ما كفى

• محمد عثمان؟

هو شيخ الدور. وأستاذ من لحّن الدور، مثل: «يا ما انت واحشني». وهناك بلا شك سيّد درويش، وله أدوار متميّزة، وأغانٍ شعبيّة هادفة.

• داوود حسني؟

ملحّن دورٍ مهم، مثل:

الحبّ ماهوش بالسهل كم ذلّ عاشق واتلوع

وكذلك: «أصل الغرام نظرة».

• الشيخ زكريا أحمد؟

هو سيّد النغم والسلطنة، حيث سلطن النغم بكلمتين، مثل: «بكرة السفر». وصنع منهما مذهبًا ولحنًا. أو «يا صلاة الزين» التي يتغنّى بها بكلمتين.

• محمد القصبجي؟

ملحّن مبدع ابن الحلبي المبدع أحمد القصبجي. ولا شكّ في أنّه زعيم التجديد في الموسيقى العربيّة. وهو الذي أضاف آلتَي التشيلو والكونترباص الغربيتين إلى فرقته الموسيقية. تتلمذ على يده رياض السنباطي ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش. ويُعتبر القصبجي صاحب مدرسة خاصّة في اللحن والغناء. من ألحانه الفريدة أغنية «يا طيور» للمطربة أسمهان.

• أنا شخصيًّا يأخذني لحن «رقّ الحبيب» للقصبجي. إذا وُزع حديثًا يصبح أشبه بسيمفونية جميلة. ماذا عن رياض السنباطي؟

السنباطي، وأدعوه الطرزي - وكما يقول المصريون «الترزي» - لأنّه يجيد تفصيل اللحن على قياس صوت المطرب أو المطربة. فيعطيه حقّه. ويُصَنِّع اللحن ملائمًا لكلمات الأغنية أيضًا.

ففي الوقت الذي بدأ فيه صوتُ أم كلثوم لا يلبّي اللحن، كما اعتدنا سماعه منها بسبب العمر، فاجأنا رياض السنباطي بأجمل ما غنّت أم كلثوم. صعد بها ثانية إلى القمّة على جناح «الأطلال». وذلك بأن أعطاها لحنًا يلائم صوتها، ويلائم كلمات القصيدة الرائعة، بحيث بدت وكأنّها تروي قصّة حبّ متكاملة. وله رأي خاص بصباح فخري، برغم أنّنا لم نلتق. عبّر عنه، كما روى لي صديق مشترك، أنّه استمع إلى صوتي، فقال للمطربين المصريين من حوله ممازحًا: «ده صباح فخري لو جِه مصر، حيهزّأكم يا أولاد الـ...»

• الأستاذ فريد الأطرش؟

الفنّان السوري ابن الجبل العربي الأشمّ. أبدع في الألحان ذات الوزن الثقيل، مثل: بساط الريح، الربيع. واللون الشعبي المحبّب، مثل: يا عوازل فلفلوا، نورا نورا...

• الموسيقار الأستاذ محمد عبد الوهاب؟

هو الموسيقار الوحيد في مصر في زمنه. ولا ننكر أنّه كان أستاذًا في علم النغمة والإيقاع. وله ألحان خالدة مثل: كليوباترا، النهر الخالد، الجندول، كلّ ده كان ليه... وما لا يعدّ ويحصى من جميل الأغاني.

• كمال الطويل؟

ملحّن جيد. قدّم العديد من الأغاني الجميلة لصديقه عبد الحليم حافظ. وهي مجموعة من أشهر أغانيه وأجملها. وتميّز كمال بأغنية لأم كلثوم، اعتُمدت نشيدًا وطنيًا لمصر: «والله زمان يا سلاحي».

• بليغ حمدي؟

بليغ محدِّثٌ في اللحن الشرقي. وقد أعطى ألحانه لكثير من المطربين، وبمختلف الألوان. وأجمل ألحانه أعطاها لوردة. كما أعطى ميادة الحناوي.

• سيد مكاوي؟

ملحّن مخضرم. تأثّر بالملحنين القدامى، وغنّى كافة الألوان. أحبّه في دور «المسحراتي»: اصح يا نايم وحد الدايم. كنت أنتظر سماعها على الراديو، وقت السحور في رمضان. وله جملٌ في أغاني أم كلثوم أحبّها: «يا ناسيني... وانت على بالي... وخيالك... ما يفارق عيني...». أصبحنا أصدقاء عندما زارنا في مهرجان الأغنية العربية في دمشق.

• عمّار الشريعي؟

عمار الشريعي ملحّن موهوب. كان يحبّ أن يستمع إلى قصيدة «قل للمليحة». كان مقلًّا للأسف، وألحانه جميلة، أحبّها.

• عمر خيرت؟

موضوع مختلف...

• أستاذ صباح، من تذكر من مطربي لبنان القدامى؟

من الجيل القديم، عُرف المطرب صابر الصفح بلقب بلبل الأرز. كان صوته موشوريًّا جميلًا قادرًا. اشتركت معه في حفلة في دمشق، وكنت في الثالثة عشرة من عمري.

بعد انتهاء الحفلة، توجّه صابر إلى الأستاذ فخري بك البارودي يسأله: «صوتي أحلى والّا صباح؟» فأشار له بيده أن انصرف، دون أن يجيبه بحرف.

صباح والمرأة

(أسئلة عادية وردت في ذهني، ولكنّها لا تبقى كذلك عندما تطرحها على إنسان غير عادي، لنستمع منه إلى إجابات متميزة. وهكذا ركبتُ موجةَ الإعلاميين مبادرةً، مَن حاز لقب الأسطورة بجدارة، بسؤال أحببت فعلًا أن أعرف رأيه فيه.)

• أستاذي الكريم، ماذا يعجبك في المرأة؟

(وبدون تردّد أو طول تفكير، قال:)

تعجبني في المرأة حشمتها، وعقلها، وسعة تفكيرها وعلمها.

(أنصتُ منتظرة أن يكمل ما توقّعت من صفات، فاستطرد قائلًا:)

لا يهمّني جمال الشكل أو المظهر، لأنّني أعجب بالجوهر والمضمون. وأعشق البساطة، ويجذبني التزيّن بوقار.

(أحببت أن أعكس مضمون السؤال، فقلت:)

• ما الذي يعجبك في الرجل؟

(أجاب بسرعة من كان متوقّعًا السؤال:)

أن يحترم المرأة.

(ولمّا انتظرتُ بسكوتي تفسيرًا، تابع مبتسمًا:)

إنّها الرجولة الحقّة بالنسبة إلي. فعندما سأل أحدهم رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي، أجاب أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أمّك، قال: ثمّ من؟ قال: أبوك.

ففي القرآن الكريم اقترن اسمه عز وجل بالوالدين: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ من سورة الإسراء. فجعل البرّ بالوالدين بعد عبادة الله. وأعطى الرسولُ، صلّى الله عليه وسلّم، الأمّ مراتب أعلى في البرّ وحسن الصحبة. وفي هذا أكبر تكريم للمرأة.

فالمرأة: أمّ، وزوجة، وأخت، وابنة. والمرأة صانعة الرجال، ووراء كلّ رجل عظيم امرأة. لذلك يا أختي الكريمة، أرى أنّ الرجل الذكيّ والقويّ هو من يعطي المرأة حقّها من التكريم والاحترام.

فلسفته في الحياة

• أسعدتني أستاذ صباح بسعة صدرك، وبُعد تفكيرك. لذلك أطمع في الاطّلاع على شيء من فلسفتك في الحياة.

فلسفتي أنّه ليس هناك في الحياة حقيقة، بل هناك حقّ.

• ماذا تقصد؟

الحقّ هو الله.

• إذًا دعني أقول: ما رأيك في الحياة؟

أنا إنسان واقعيّ، وصادق مع نفسي. الحياة هي مرحلة انتقال من برزخ إلى برزخ.

• أفهم أنّك إنسان شديد الإيمان...

وهل تشكّين في ذلك؟ هذه حقيقة لا أتخلّى عنها. إيماني بالحياة الأخرى شديد، لأنّني أؤمن بكل ما أتى في قرآننا الكريم فهو كلام الله.

يكفيك أن تقرأي سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. وفي هذا الكلام الجميل وعدٌ إلهي بالحياة الأخرى، والتي تكتمل فيها قناعتنا بإذنه تعالى.

(كان يجيب عن تساؤلاتي بسرعةٍ من استحضر السؤال والجواب مسبقًا. أدهشني، حتّى كان يحزّ في نفسي أن أقاطعه في استرساله الجميل، ولو بتعليق بسيط.)

• كم تحمل هذه الآية من تفاؤل وأمل. وكم يدلّ حديثك على صوفية وإيمان مطلق؟

(استرسل دون أن ينتظر سؤالًا:)

إنه القرآن، معجزة الفكر واللغة والدين.

كانت اللغة العربية في الجاهليّة لهجات. وكان الشعر عصبَ اللغة والحياة للناس، ومجالَ التباهي بينهم. وكانت له سوق يتنافس فيها جهابذة الشعر.

كانوا يختارون من الشعراء عشر قصائد من عيون الشعر، لتعلّق على جدار الكعبة، ويقرأها الناس (كوسيلة للإعلام). فأتى الرسول بكلام الله الذي أعجز الشعر والنثر ببلاغة لا تضاهى، وأجابنا عن تساؤلاتنا في أسرار الخلق والحياة.

• في حديثنا عن الحياة، هل هناك رغبة، أو أمنية، أو هدف لم تصل إليه خلال مسيرتك، أطال الله في عمرك؟

لقد أكرمني الخالق ربّما بأكثر مما تحلم به أمّي. فقد وصلت إلى المجد والشهرة التي يطمح إليها الكثيرون. وقد حباني الله، وأحاطني بعنايته الإلهيّة قبل أن أخرج إلى الحياة من بطن أمي. وُلدتُ

والدار يعمّها ذكر الله، والأناشيدُ والابتهالات الدينية حتّى الصباح. أقبلت على الدنيا وسموني «صباح». هذا مؤشر على كرم الله عليّ.

ولكن، قال ربي: وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا (أمرنا بالعلم). والرسول أمرنا بالعلم.

ربّنا علّم آدم.

ربّنا علّم سيّدنا محمد: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق...﴾ وفي هذه الآية أعظم فلسفة.

وما أرجوه من الله أن يفتح عليّ من آفاق علمه أكثر وأكثر، في ما تبقى لي من العمر. «وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا».

• العلم يا سيّدي بحر، بل محيط لا يقدر إنسان على الإحاطة به ككلّ.

لا أطلب أكثر من عطاء الله. يقول المثل: «تعلّم ثمّ تكلّم». ويقال أيضًا: «تعلّموا وتكلّموا تُعرفوا». فالمرء مخبوء تحت طيّ لسانه.

• كلامك جميل. سؤال تقليدي آخر: من الشخصيّة المحبّبة لديك؟ أو المفضّلة؟

من كان خيرًا لأهله.

• أَولستَ معجبًا بشخصيّات تاريخية، عربيةً كانت أو أجنبية؟

معجب بالعلماء بصورة عامّة. وبكلّ من قدم، بعلمه، للحضارات إضافةً ملموسة ساهمت في تغيير العالم.

(هالتني سرعة بديهته في الإجابة، وعدم تردّده. ولفتني لجوؤه إلى العموميّات والخطوط العريضة. فأحببت أن أوجّه له سؤالًا يجعله يفكّر قليلًا قبل أن يجيب.)

• هل ندمتَ على شيء في حياتك؟

(صمت قليلًا وهو يحرّك عينيه ببطء، يمنةً ويسرى، كمن يحاول أن يلملم من ذكرياته ما ندم عليه. ثمّ سمّر نظره باتّجاهي، وهزّ برأسه إشارة للنفي. وقال:)

ما ندمت على شيء. أنظر إلى الأمام وليس إلى الماضي. لأنّ الماضي مضى.

الزمن ثلاث... يومٌ مضى وانقضى... ويومٌ أنت فيه فهو لك... ويومٌ آتٍ لا تعلم أهو لك أم لغيرك...

فاغتنم ثلاثًا قبل ثلاث... شبابك قبل هرمك... وصحّتك قبل سقمك... وغناك قبل فقرك...

• أفهم من ذلك أنّك لم تندم حتّى على أخطاء اعترفت بها!؟

حتّى أخطائي، كنت أحاول أن أصلّحها عندما أشعر بها، لأحافظ على مكانتي التي وصلت إليها بفضل ربّ العالمين. ولم أندم إلّا أنّني لم أصلْ إلى درجة العلم والمعرفة التي أبتغيها. وبقيت ساعيًا إلى ذلك طيلة عمري وما زلت.

• بارك الله لكَ في عمرك. لقد جعلتني اليوم تلميذةً تصغي لأستاذ في علوم الفلسفة والحياة. زادك الله، كلّ يوم، علمًا وأدبًا وفلسفة كما تبتغي.

مزايا صوته

• أستاذ صباح، أعرف رأي الجمهور وكبار الفنّانين العرب بصوتك، والألقاب التي أطلقها عليك محبّوك ومعجبوك: «الكروان، العندليب، صدّاح الأندلس، صنّاجة الغناء العربي، أبو كلثوم سورية، الأسطورة الحيّة، مطرب القدود الحلبيّة...» ولكنّني أريد أن أسمع منك، رأيك الموضوعي والعلمي بمزايا صوتك؟

يتميّز صوتي - الذي أكرمني المولى به - بأنّه صوت أسطواني. يتمكّن من أداء كلّ الطبقات بالقوة والرخامة ذاتها (بالعرض نفسه). بينما تتكوّن الأصوات الموشورية من قاعدة عريضة، تزداد ضيقًا كلّما ارتفعت الطبقة. حتّى تصل إلى تغيير في شخصيّة الصوت. ويصنّف صوتي «تينور أول».

لم تقف أمام أدائي أيّة عقبة. ولم تصعب عليّ نغمة. أذكر أنّ عزيز غنام كان يرمي لي بأصعب الألحان التي يعجز عن أدائها الآخرون، فأؤدّيها بسهولة. فكنت المنقذ للّحنِ الصعب. ولا يغيب عن ذهنكِ من هو عزيز غنام: إنّه الملحّن والعازف الماهر الذي يطلب الكمال من المطرب. فكان يسخّر طاقته الفنّية في صوتي وأدائي. والميزة الثالثة في صوتي هي طول النفس. ويقدره خبراء الصوت بـ 13 ليبرة (الوحدة الزمنيّة للنفس).

• من تميّز غيرك بطول النفس؟

لنذكر مثلًا المقرئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، يمتاز بالنفس الطويل.

• لنعد إلى مزايا صوتك أبا محمد...

هو عطاء من الله في التكوين الجسدي. فحنجرتي محاطة بغرفة «إيكو» من جوف الفم والحلق، لذا يصل صوتي إلى مسافة بعيدة من دون مجهود أو معاناة.

• استمعتُ إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب، في مقابلة تلفزيونية أجراها معه الأستاذ خلدون المالح، وسأله فيها عن رأيه بصوتك، فقال: «إنّه الصوت الذي لا يحتاج إلى ميكروفون». وفي مكان آخر قال: «إنّه يتميّز بقفلته الحرّاقة على حد تعبيره».

يمكنني أن أضيف، إلى مزايا الحنجرة، صحّة اللغة ومخارج الألفاظ التي تمرّستُ بها منذ نعومة أظفاري بعد أن ختمت القرآن، وعلم التجويد.

• بقي أن نتكلّم على قدرة التعبير عن معاني الكلمات.

(هنا يبدي محمد صباح أبو قوس رأيه بأداء والده:)

اسمحي لي سيّدتي أن أضيف إلى ما ذكرتم، أنّ صباح يعطي كلّ مقام حقّه. فيرتاح المستمع، وينسجم مع الكلمة والنغم. بأدائه، يبدو اللحن وكأنّه خلق ليعبّر عن الكلمة. خذي مثلًا أغنية «يا شايفة الفنجان».

وأنا أنحاز إلى هذا اللون من غناء والدي. وأنسجم معه في أدائه، وكأنّني أمام من تقرأ الطالع في الفنجان. أستمع إلى شكواه، وأحلّق مع معاناته.

• ماذا تحب أيضًا أن تسمع من والدك؟

مع حبي لكلّ ما قال وغنّى. ولكن، إن أردت أن أطلب منه بعد «يا شايفة الفنجان»، فإنّها قصيدة «سمراء».

• أستاذ صباح، بقي الإحساس الذي تتميّز به.

إذا خرج الكلام من القلب، وقع في القلب. وإذا خرج من اللسان، لا يتجاوز الآذان. وغايتي أن أخاطب القلوب، وأحرّك المشاعر والعواطف بعد أن أشنّف الآذان.

صباح والغضب

• أستاذي الكريم، ألا تذكر ذات مرّة تملّك الغضب منك، فتصرّفت بردّ فعل عنيف؟

أختي العزيزة، كنت قد سردت لك عدّة حوادث وأنا في عنفوان شبابي ومراهقتي. عندما كنت أغنّي في البيوت وأحيي الأعراس. ولكن، أذكر حادثة استفزّتني وأنا على المسرح، وفي عزّ نجوميتي.
والتفت إليّ وهو يتحدّث بصوت خفيض:

من المعروف أنّ صوتي يؤدّي، بارتياح، الـ«سي بيمول». وكنت أتجاوزه أحيانًا إلى جواب الـ«دو». مرّة، كان أحد عازفي الكمان في فرقتي يرافقني بتقاسيم تناسب المقام الذي أغنّيه، متماشيًا مع أدائي. وإذ به يقفز بالنغمة إلى «الدوغا»، أي الـ«ري». فتجاوبت معه بمنتهى التحدّي، وأدّيت النغم (جواب الري) لأنّني، لم أقبل بشكل من الأشكال، أن أضعف أمام جمهوري. ولم أتمالك نفسي من أن أصفعه بعدها، وأبعده عن الفرقة.

• هل يعني ذلك أنّه استفزّك، ولكنّك تمكّنت من أداء النوتة؟

كان تحدّيًا يتضمّن الإحراج. تصوّري لو لم أتمكّن من النغمة!

• أفهمك يا أستاذ النغم. ولكنّني على ثقة من أنّك، في كلّ مرّة غنّيت فيها، كنت تتحدّى نفسك في الإبداع. قصّتكَ هذه تدفع بسؤال آخر إلى فمي: هل تذكر السنّ الذي بدأ السي بيمول ينخفض عندك إلى درجة أقل؟

من الطبيعي أن تتأثّر قدرة الأداء عند المغنّي مع التقدّم في السنّ.

دخان وكحول

• كلّ المغريات لم تمكّن الدخان منك. ولكن أذكر، وكثيرون يعرفون، أنّك كنت تشرب الكحول...

انتظري قليلًا! لم أكن في بداية طريقي الفنّي احتسي الكحول. وذلك لأنّني انطلقت من بيئة دينية محافظة، ومن بيت لم تجتز جدرانه الكحول. بل كانت الأناشيد الدينيّة تصدح في أرجائه. حتّى أنّ عملي في نوادي حلب، وبعدها في إذاعتها، لم يوقعاني في فخّ الكحول. كذلك عندما انتقلت إلى التلفزيون في دمشق، لم أشرب الكحول. وكنت أمنعها عن الفرقة التي تعزف معي.

أذكر مرّة أتاني عازف القانون سامي صندوق (وهو فنّان وموسيقي بارع في العزف على آلة القانون بدون عربات)، وكانت رائحة مشروب العرق تفوح منه. فلمّا تساءلت عن السبب، أجابني بأنّ ضرسه يؤلمه، فاستعان بالعرق كمسكّن للألم. وتكرّر الأمر. فقلت له، وقد لاحظت ترنحه: لو اضطررتَ إلى خلع حنكك كاملًا، لا تأتِ وأنت سكران. أو اختر لنفسك مهنة أخرى!

• اعذرني على المقاطعة، ذكرت القانون بدون عربات. هل يعني ذلك أنّ آلة القانون كانت، كالعود، لا يحدِّد النغمةَ فيها إلّا أذنُ العازف وبراعته!؟

تمامًا كما ذكرتِ. ولكن الذي وضع العربات المستعملة حاليًا هو الأستاذ شكري انطاكلي - من مدينة حلب - في الستّينات. فهو الذي طوّر آلة القانون.

• إذن، لنعد إلى المشروب في حياة صباح فخري. ما نوع المشاريب التي كنت تحتسيها؟ وباختصار، متى شربت الكحول لأوّل مرّة؟

اعتدتُ أن أتناول المشاريب الدافئة. عسل مع ماء فاتر مثلًا، أو مشروب السوس والزهورات... أمّا الكحول، فأوّل مرّة تذوّقتها كانت في لبنان عندما عملت في الشوار.كلّ الوسط الفنّي والاجتماعي هناك يتعاطى الكحول بكلّ ارتياح. بل ويشجّع على تذوّقها. ومن ثمّ يعتاد الشارب على النشوة التي يسببها له. وهكذا اعتدت أن أتناول شيئًا من الويسكي مع كثير من الماء بدون ثلج. أرتشف منه قليلًا على دفعات صغيرة، خلال الحفلة التي أحييها.

(تدخلت هنا أم أنس معترضةً بقولها: ما في داعي لذكر المشروب... فالتفت إليها صباح بهدوءٍ قائلًا:)

كلّ ما أذكره في علم الله، وله الحكم على تصرفاتي. فلا يهمّني حكم العبد عليّ. ابن آدم خطّاء، ولست بنبيّ لأُعصم عن الخطأ. ولكنّني، والحمد لله، توّاب. والله يحبّ التوّابين.

• أحيي فيك جرأتك أستاذي الكريم، وأتمنّى أن نستمرّ في سرد فضائلك، والاعتراف بالخطأ فضيلة.

على قول المثل: «عبد ورب». إنّ الإنسان يعمل بعمل أهل الجنّة. استمعي إلى قول الشاعر:

أنا كاس الراح لا تسكرني وهي لا تروي الظما الملتهبا
أنا خمر الحبّ قد أُسقيتها وبتلك الخمر عقلي سُلبا
وجعلتُ الروح منّي هبة لرفاق علّموني الأدبا
وفؤادي في الهوا روعته لست أدري لأنيني السببا

• وهل أخذَتكَ الخمرةُ فأدمنتها؟

لا يا أختي الكريمة. أنا لم أُدمن. ولا أقع في فخّ الإدمان، لأنّني قويّ الإرادة بطبيعتي، وأستطيع السيطرة على نفسي متى أريد. ولكن، عندما استهواني المشروب، وكنت سعيدًا به بين الأصدقاء وفي أجواء السهر، شربت مستترًا. ونادرًا ما أكثرت منه حتّى الثمالة. وكنت أخلق لنفسي المبرّرات لتناول المشروب ممدّدًا بالماء، لأسلطنَ في أجواء الغناء. برغم أنّني كنت قد غنّيت محلقًا مع الجمهور من دون الاستعانة بالمشروب قبل ذلك.

ذات مرّة، في العام 1989، اتّصل بي أحد الأصدقاء، بعد عودتي من حفلة كنت أحييها في مطعم «صحارى»، في دمشق. أجابه ابني بأنّ والده يصلّي. فأغلق المتّصل الهاتف لظنّه أنّه أخطأ في الرقم. وعاود الاتّصال، فكان جواب ابني أنّ والده لم يتمّ صلاته بعد. فقال المتّصل: «كيف يصلّي وقد كنّا معًا؟ هل أتى من الحفلة، وكنّا نشرب، واستقبل القبلة؟». وفي ذاك اليوم، وعدتُ أسرتي أنّني سأتوقف عن المشروب. وفي العام نفسه ذهبت وزوجتي إلى الحجّ. وهكذا أنهيت عهدي مع الكحول عندما أتاني الهدى من الله تعالى. وكانت عودة جميلة إلى ربّ العالمين.

«ابعتلي جواب»

• أستاذ صباح، أحبّ أن تحدّثني عن أغنية من جواهرك الرائعة، أحبُّها كثيرًا. ولطالما اعتقدت أنّها أغنية مصرية. هلّا حدثتني عن «ابعتلي جواب».

إنّها أغنية حلبية بحت. كتب كلماتها الأستاذ حسام الدين الخطيب، ووضع لحنها الملحّن الكبير بكري الكردي، وغنّاها من نغم البيات. تقول كلمات الأغنية:

ابعتلي جواب... وطمّني
ولو انه عتاب... ما تحرمني
غيابك طال... وبستنّا
وقلبك مال... تتهنّى
إن كنت هويت ونسيتني
وعليّ جنيت وما رعِتني
ابعتلي جواب... وطمنّي
صبرت عليك... وذقت مرار
وبعت إليك... أخبار وأخبار
أتاريك نسِتني مع الأيّام
ورضيت تفوتني على الآلام
ابعتلي جواب... وطمّني
أنا لي إله... يعرفني
من حرّ الآه... ينصفني
مش قادر أقول إنت الجاني

حاصبر على طول على أحزاني
ابعتلي جواب
وطمّني

والأستاذ بكري الكردي ملحّن كبير، وعالم بالنغمة، وخبير بالمقامات الموسيقية. غنّى بكري الكردي «ابعتلي جواب»، وتخصّصتُ بها من بعده، وبأداء مختلف. وقد أخذت عنه أداءه التقنيّ وألحانه. كان مطربًا فذًّا برغم أنّه لم يكن أجمل صوت.

أمّا حسام الدين الخطيب، فلم يكن يعطي الشعر والقصائد إلّا لبكري الكردي الذي كان يوزّعها بدوره على تلاميذه.

• هل غنّيت لحسام الدين الخطيب أغنية أخرى؟

غنّيت له أيضًا قصيدة من أغاني بكري الكردي:

طرْفها سهم وقلبي هدف	منّي الودّ ومنها الصلف
كلّما عاتبتُها أو لِمتها	يتحدّاني القوام الأهيف
هكذا أحيا فرمح أسمر	يتلقّاني وسهم مرهف
بتّ أخشاها إذا ما عرضت	وإذا ما نظرت أرتجف

• أعشق هذه القصيدة كلماتٍ ولحنًا وأداءً. وأراك تغنّيها بمشاعر فيّاضة وإحساس رائع، وكأنّك تعيشها.

(ابتسم صباح موافقًا، وهزّ رأسه بارتياح ليقول:)

أصبت يا أم تميم. فحبّي لهذه الأغنية جعلني أختارها وأغنّيها لتحفظ مع كنوز التراث الحلبي الفريد.

• وكأنّي بك تؤدّيها بأسلوب مختلف عن الكردي، أليس كذلك؟

أضع بصمتي بطبيعة صوتي وطريقة غنائي من دون تصنّع. فأنا لا أقلّد أسلوب الآخرين في أدائهم.

• ماذا غنّيتَ لحسام الدين الخطيب أيضًا؟

غنّيتُ له قصيدة البلبل التائه:

ويحه تاه وضلّا	أرق الروض الأجلّا
ثمّ لما عاده العَودُ	أبى أن يستدلّا
ويحه بات كئيبًا	بين يا ليت وعلّا
أيّها البلبل ما فات	أوان العفو كلّا
والهوى ما زال طفلًا	عن دُماهُ ما تخلّى»

ومونولوج:

هايم بليل الهوى	عن أهله تايه حزين
صعب عليه النوى	يشكي همومه لمين

اللؤلؤ المنضود

(كنا نستقبل الصبحية في منزلنا في دارة يعفور، منسجمين بسماع أصوات الشحارير والبلابل برفقة من ينافس أصواتها جمالًا، بل ويتفوّق عليها إطرابًا ونغمًا، على الشرفة التي تطلّ على بستان الدار الأمامي. جلسنا مع فاطمة الزهراء وصباح نرتشف قهوتنا ونسترجع جميل ذكرياتنا... حمل إلينا البستاني زهرة المانوليا الجميلة، يفوح عطرها المميّز مع نسمات صبح أوشك أن يودع ربيع العام في أحلى أجوائه، فما كان من صاحب الحنجرة الذهبية إلّا أن صدح بعد طول استراحة بأغنية:

صباح الفل ياست الكل	صحيتِ وصحيوا طيور الجنة
يا خفة يا بنات اهو طل قمر	تعالوا اصطبحوا وقولوا ما شالله
يا ميت صباح يوم على طولك	صباح النور على شكلك
يا خفة يا رقة يا ريت في الدنيا	دي زيك انت يا حلوة

وكأنّه استمدّ من جمال الطبيعة قوّة استطاع أن يؤدّي بها تلك الأغنية اللطيفة عندما مرّت ابنتي لتلقي عليه تحية الصباح، مما أشاع البهجة والسرور في قلوبنا جميعًا. وساقتني أغنية «لولو بلولو» التي أتبع بها صباح الفل إلى الحديث عن قصيدة «اللؤلؤ المنضود» التي اعتدنا سماعها منه قبل اللولو.)

• أبو محمد، كم أحبّ قصيدة «اللؤلؤ المنضود» التي كتبها صديقنا المشترك الدكتور جلال الدهان - رحمه الله.

كان صديقًا محبًّا، وطبيبًا جرّاحًا ماهرًا، وشاعرًا مرهفًا، عاشقًا للفنّ، ذوّاقًا للموسيقى وشغوفًا بالطرب الأصيل.

• كيف لا، وقد كان من أعزّ أصدقائنا وأحبّتنا!؟ إنّه ابن حلب المدينة المعطاء. كم قصيدة غنّيت له؟

للدكتور جلال ديوان شعر جميل، بعنوان «رباعيات جلال الدهان». وله ديوان اسمه «ديوان جلال الدهان». اخترت من شعره قصيدة اللؤلؤ المنضود:

اللؤلؤ المنضود في فمك الجميل فيه السعادة للشقيّ وللعليل
فإذا تفتّحت الشفاه ثوانيا نوّرت دنيانا وأحييتِ القتيل
فقتيل حبّك ليس يحييه سوى أنوار ثغرك، إنّه يرضى القليل
جودي عليه ببسمة، لا تبخلي، فالحبّ والرحمن أعداء البخيل

كما اخترت من قصائده «جلّ الرحمن»، التي غنّيتها في مسلسل الوادي الكبير. وهي من ألحان محمد محسن:

جلّ الرحمن وما صوّر من حسن جمالك يا أسمر
أعطاك الروح وخفّتها وجمال الصورة والمظهر
والورد رماه على شفة فإذا بالورد بها نوّر
أعطاك الحسن وروعته وعبير النرجس والعنبر

والليل كساك بأسوَدِه والنور بعينك لا يقهر
إن كنت عشقت فذا قدري، فارحم عشّاقك يا أسمر
جلّ الرحمن... وما صوّر

واخترت أيضًا «غاب حبّي عن عيوني»، من ديوانه. وغنّيتها من ألحاني على طريقة الموشّح:

غاب حبّي عن عيوني وأنا أصبو إليه
كيف أنجو من هواه وأنا ملك يديه
إنّه يومي وأمسي إنّه شوقي وأنسي
كلّ ما ترجوه نفسي لمحةٌ من ناظريه
فترى الدنيا غرامًا ونعيمًا وابتساما
إنّما يشفي السقاما لمسة من راحتيه
أنت منّي يا حبيبي روح جسمي ونصيبي
كيف أسلوه أجيبي كيف أنسى ناظريه

• قصائد جميلة لشاعر الحبّ والجمال. لقد غادرنا الدكتور جلال دهان وهو في قمّة عطائه.

معهد صباح فخري

(خلال حديثنا عن مدينة حلب، مسقط رأس صباح، ونشأته، هرب منّي سؤال أحببت أن أزجّه في أيّ حديث يجمعني معه، قبل أن نصل إلى نهايات كتاب لن ينتهي. لأنّه السيرة التي ستستمرّ.)

• أستاذي الكريم، ما هو الأثر الذي تركتَه في مدينة حلب؟

(وكمن صعق بسؤالي، فأجابني بتساؤل المتفاجئ:)

أنا؟ ماذا تركت من أثر!؟

(وبدون تردّد، وبالإصرار ذاته قال:)

قدّمتُ لحلب ما تعلّمته منها، ومن أساطين الفنّ الأصيل فيها. ما جُمع من تراث وذاكرة شعبيّة مصاغًا في بوتقة صباح فخري. ولا أدّعي أنّني أوّل من صاغ ما سُمّي القدود والموشّح ورقص السماح. ولكنّني كرّست كلّ التراث الحلبي، مضيفًا إليه من لمساتي، ليلتصق اسمه بحلب. وينتشر كتراث سوري أصيل اسمه القدود الحلبية، والأغاني الحلبية. وتلازم هذا مع اسم صباح فخري، وأعتزّ بذلك.

هل اكتفيتَ بذلك امتنانًا لما قدّمته لك حلب وجمهورها المحبّ؟

أبدًا، لم أكتفِ. بل أسّست في حلب معهدًا للغناء والموسيقى، هو النواة الأولى لحلم كبير، أرجو من الله أن يساعدني على تحقيقه. ألا وهو أن يكون لمعهد صباح فخري للغناء والموسيقى مثيلًا في دمشق وبيروت وتونس، وكلّ بلد عربي أصيل يبتغي الحفاظ على تراثنا الغني بالموسيقى الجميلة، والأغاني الفولكلورية التي تحكي تاريخنا وفنّنا.

• حدّثني عن هذا المعهد إذا تكرّمت.

فكرة إنشاء هذا المعهد كانت تراودني منذ زمن. وكنت أبعدها عن رأسي كلّما كثرت مشاغلي. ولكنّها اكتملت وأبصرت النور في العام 2007. وكانت الغاية منها أن يحتضن المعهدُ عاشقي الفنّ، والراغبين في تعلم العزف والغناء، والفنّ التراثي الأصيل.

• هل وضعت لمعهدك مناهج خاصة؟

لكلّ آلة موسيقية منهاجها الخاصّ الذي وضعه أستاذ الآلة. فللعود أستاذه، وللكمان منهاجه. كذلك القانون، وآلات الإيقاع، والناي... الخ.

أمّا تعليم الغناء، فإنّ المدرّسين والطلّاب يتّخذون من أغاني صباح فخري مثالًا في الأداء الأصيل.

وفي حلب، كما تعلمين، تاريخ للفنّ والفنّانين في هذا المجال. وقد أتينا على ذكر بعضهم أمثال بكري الكردي، عمر البطش، علي درويش، نديم درويش... هؤلاء وغيرهم من عمالقة الفنّ في حلب والعالم العربي ستدرّس سيرُهم في هذا المعهد.

• إذًا، معهدك يدرّس العزف على الآلات الشرقيّة، والإيقاعات الشرقيّة، ويعلّم الغناء، وسيرة رواد الفنّ الأوائل. هل توقّف معهد صباح فخري عن العمل في سنوات الحرب البائسة التي عصفت بمدينة حلب؟

من المستغرب يا سيّدتي أنّ المعهد لم يتوقّف كليًّا، بل كان كباقي المدارس والمعاهد والجامعات، يتعثّر، ثمّ يستمرّ. ولكن، لا شكّ في أنّه عانى نقصًا في الأساتذة، وانقطاعًا للطلّاب، بسبب تقطّع الأوصال الذي عانته المدينة العزيزة. هناك من غادر الوطن. وهناك من انصرف إلى البحث عن لقمة العيش.

• ظروف الحرب أوقفت المعامل والمصانع، وأغلقت أحياء بأكملها. ولكن لا بدّ لعجلة الحياة من أن تدور، حتّى ولو في أقسى الظروف.

إنّه مشروع قابل للتطوير والتوسيع عندما تستقرّ الأحوال. وحلب قادرة على النهوض، والتاريخ شاهد على ذلك.

• وكذلك معهد صباح فخري، سيكون منارة التراث الفنّي لمدينة حلب. ولكلّ مدينة عربية عظيمة تحمي التراث وتجلّه، بإذن الله.

لا شكّ في أنّني أنتظر تلك اللحظة التي تستردّ حلب فيها أنفاسها، لتستعيد دورها الريادي في الفنّ والثقافة. وأتمنى أن يكرمني ربّي بحضور النهضة الجديدة للمدينة العريقة التي قدّمت، وستقدم الكثير للتراث الأصيل، ولعالمنا العربي.

سؤال يُطرَح

• يا ترى يا أستاذ صباح، لو ذهبتَ إلى مصر مع الشوّا آنذاك، هل كنت ستلاقي النجاح نفسه؟

ربّما نجحتُ أكثر، وبسرعة أكبر. ولكن بلون مصري. ومع حبّي الشديد لمصر والمصريين، ماكنت أتمنّى ذلك. لأنّني استطعت بموهبتي ومجهودي الشخصي، أن أقدّم حلب، وسورية إلى العالم العربي بصورتها الأصيلة. فكنت رسول التراث الموسيقيّ السوري، والحلبي بشكل خاصّ، إلى العالم.

• نعم أستاذ صباح. لا شكّ على الإطلاق في أنّك الصوت الأوّل على مستوى أغاني التراث. وأنّك عرّفت العالم إلى مدينتك العظيمة. وكنت رسول الأغنية التراثيّة إلى العالم، معزّزًا انطلاقتها من حلب التي يعدّ صباح فخري أحد أهمّ رموزها عبر التاريخ.

أسرة صباح فخري... ولادته... نشأته

• حدّثني عن الأسرة التي نشأت بين أحضانها؟

أنحدر من عائلة أبو قوس التي أخذت هذا اللقب من جدّي. وكان من أمهر رماة الأسهم، وأشهرهم في إصابة الهدف. فلقّب بـ«أبو قوس». وفي شجرة العائلة يعود نسبنا إلى الخليفة عمر بن الخطاب، إذ كان والدي يقول: نحن عمريون.

كان والدي الشيخ محمد أبو قوس يعلّم قراءة القرآن في جامع الأطروش الذي يقع في سوق الجمعة من مدينة حلب. والدتي عليّة القدسي، نسبة إلى بلد المنشأ القدس. وكانت تحبّ في الناس الذوق والصوت الحلو، على حدّ تعبيرها. حملت بي والدتي بعد أربعة أولاد. هم: لطفية، عبد الهادي، عبد القادر، صفاء الدين. أمّا أخوتي من أبي، فهم: محمد، أحمد، وعائشة.

• حدّثني عن والدتك.

أمّي هي سندي في عمري. إذ كنت صغيرها الذي اعتنت به ودلّلته كآخر العنقود. فكانت السبب في دخولي مدارس الحكومة. وفي إتمام تعليمي. وكانت راعيتي في كلّ خطوة اتّخذتها.

الحبّ في أغاني صباح فخري

(في لحظة انتهازٍ للفرص، رأيتُ أنّ الظرف ملائم لندخل في بحر أغاني الحبّ التي أطربت الناس، وغنّاها صباح. فقلت:)

• أستاذي الكريم، في اللغة العربية التي تعتزّ بها، درجاتٌ للحب وردَ أغلبها في أغانيك. هل بإمكاننا أن نستدرجها معًا؟

أليست كما اختصرها شوقي؛ نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء؟

- صحيح. ولكنّني أقصد مدارج الحبّ التي وردت في اللغة العربية، وكذلك في أكثر أغانيك.

(هزّ رأسه، وابتسامة العارف مرسومة على وجهه.)

نعم، إذا لم يكن كلّها...

(وبكلّ ثقة، بجهوزيّته وذاكرته أضاف:)

هاتي الكلمة لأعطيك الأغنية...

- لنبدأ أستاذ صباح بكلمة «الحبّ».

«خمرة الحبّ اسقنيها».

من كلماتي وألحاني.

- «الصبابة».

هناك «يا ليل الصبّ متى غده أقيام الساعة موعده».

وهي من كلمات اسحق القيرواني.

وهناك أيضًا في قصيدة «بيضاء»:

وشعرت لما مسّ صدري صدرها أنّي أذوب صبابةً وحبورا

- «الهوى».

«إيمتى الهوى ييجي سوا».

وهذا دور زكريا أحمد.

وهناك:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتَه أبصرتني وإذا أبصرتني أبصرتنا

- «الغرام».

«أصل الغرام نظرة»، لمحمد عثمان.

- «الجوى».

«علّمتني يا نور عيوني الامتثال واحتار دليلي بين تيهك والجوى».

وهي أيضًا دور لسيّد درويش.

- «الخلّة».

«خلّي سقاني بكاسات الصبر راحات.... والحبّ ما يوم يسعفني على الراحات».

وهي شرقاوي قديم.

• «الوداد».

«الوداد روح المحبّة... واللي مال يبقى طول العمر في أسر الجمال».
كلمات أحمد رامي.

• «العشق».

«العشق غيّر حالتي آه يا يما».
كذلك «لارسل سلامي لسالم ما حدا من العشق سالم». وهذا فولكلور لاذقاني.
بالمناسبة، هل تعلمين من لُقّب بـ«سلطان العاشقين»؟

• غلبتني في هذه...

(ابتسم وقد سرّه ذلك، وقال:)
إنّه عمر بن الفارض.
(عدتُ إلى حواري:)

• «التتيّم».

هيّمتني تيّمتني عن سواها أشغلتني   أخت شمس ذات أنس دون كاس أسكرتني»

• «الهيام».

«وإذا به هيمان يضرمه الأسى... فيشبّ في جنبي منه لهيب».

سأضيف إلى ما ذكرتِ «الصلف»، وهو في قصيدة حسام الدين الخطيب. ويقول فيها:
«طرفها سهمٌ وقلبي هدف   منّي الودّ ومنها الصلف»

هل اكتفيتِ أختي الكريمة، أم نستمرّ في البحث عن كلمات؟

• ما زالت التساؤلات تملأ رأسي. وقد جرّتني خمرة الحبّ إلى السؤال عن الأغاني التي ألّفتها ولحّنتها بنفسك.

كانت أولى الأغنيات التي كتبتُ كلماتها، وأنشدتها بألحاني، وأنا في الرابعة عشرة من عمري. هي أنشودة دينية تقول:

يا رايحين لبيت الله،
مع السلامة وألف سلام
مبروك عليك يا عبد الله
يا قاصد كعبة الإسلام
يا هناوتكم... يا فرحتكم...
يا هناوة اللي تاب وكفّر...

يا قاصدين بيت الحرمين...
والقلب يقول الله أكبر...
هنّيتو القلب وملّيتو العين...
وشربتو من ماء الكوثر...
يا هناوتكم... يا فرحتكم...
يا هناوة اللي تاب وكفَّر...

وهذه الأغنية لم تُغنَّ بعد ذلك. ونامت تنتظر من يوقظها. ولقد ذكّرتني بها الآن. وهي على نغمة الكرد. إيقاع سماعي ثقيل مركّب.

• ألم تكتب أغنية سواها من الـ 1947 حتّى خمرة الحبّ 1973؟

كنت أتدخّل في تغيير كلمات الفولكلور والتراث المغنّى. حيث لم يرقْ لي أن أغنّي للجمهور تراثًا بكلمات فارغة. مثلًا:

قالوا وغنّوا قديمًا... دقّلي الباب فتحتلّو
أهلًا وسهلًا قلتلّو
كاس المدام سكبتلّو
يا ريحة خدّه ماوردي

لم أقبل بتلك المعاني التي توحي بمن يدخل خمّارة. ولكنّني، على النغم ذاته، غنّيت:

قدّك الميّاس مذ مالا
لحظك الفتّان قتّالا
قلت واصل قال لا لا
فاقطع الآمال وانتظر

وعلى نغمة:

أوّل عشرة محبوبي... (يا عيني)
هداني خاتم ألماس
وهادا قصدي ومطلوبي... (يا عيني)
وهادا اللايق بين الناس

بدلًا من:

منديلك أحمر منقوش
واشتريته بسبع قروش
لا هو غالي ولا مغشوش
وهادا اللايق بين الناس

غنّيت لنظمي عبد العزيز على النغم نفسه:

وغنّية بقلبي تلاقيه... (يا عيني)

تفرش دربه وتهاديه

ولجنّة حبّي تناديه... (يا عيني)

نسهر فيها وننسى الناس

صباح والجمهور وعلم الفلك

• أستاذ صباح، من الطبيعي في الشهباء أن تستمرّ في الغناء طالما الجمهور باقٍ. وأن لا يفارقك الجمهور ما دمت تغنّي، حتّى لو أذّن ظهر اليوم التالي، ما السرّ؟ وكيف تستمرّ هذه الحلقة الطربيّة المتشابكة بينك وبين الجمهور؟

(يجيب صباح بإسهاب:)

أَوَليس معاوية داهية العرب الذي حافظ على شعرة بينه وبين الناس، لا تنقطع؟ هنا يكمن السرّ. إنّه قدرة المطرب على شدّ الجمهور، ومدى استجابة الجمهور وقدرتهم على استنهاض المغنّي.

كنت أسمع عن محترفي الغناء الأوائل، أنّهم يرجعون إلى علم الفلك والكواكب الذي يرتبط بنغمات معيّنة. مثلًا لكوكب زحل نغمة، وللمشتري نغمة أخرى...الخ. كانوا يعتمدون الأنغام المناسبة لتحرّك الكواكب. وهذا علم لا أدّعي معرفته. لذلك كانت لي طريقتي في جسّ نبض الجمهور وتجاوبه مع النغم ونوع الغناء.

كنت أبدأ، على سبيل المثال، بالبيات. وأحسّ مدى استماع الجمهور ونشوته. ثمّ أغيّر إلى نغم آخر وآخر، حتّى أصل إلى النوع الذي يعجب المستمعين، ويدعوهم إلى المشاركة. فأقول كأهالي حلب«هلق جينا». ويستمر الحفل بين غنائي وتجاوب الجمهور بالتشجيع المعهود.

ومن التقليد المتبع لدى الحلبيّين، في حفلات الطرب، أنّه بعد نهاية كلّ وصلة يهتف الجمهور «ما صار، ما صار». وكأنّهم لم يكتفوا بما أسمعَهم.

فيواصل المطرب غناءه منتقلًا إلى نغمة أخرى، مستفزًّا آهات السميعة حتّى يهتف الجمهور ثانية «سمعنا وما شبعنا». فيعيد المطرب، أو يغيّر اللون مقاربًا تذوّق الجمهور وإحساسه أكثر، حتّى يصرخ المستمعون «هلق جينا»؛ الأمر الذي يوجب على المطرب أن يجاري جمهوره ومحبّي هذا اللون بالاستمرار في العطاء حيث يحصل التجلّي، عند المطرب والمستمعين. حينها يشاركونه الترديد والتمايل والرقص على الأنغام. فإذا ما أنهى وصلته الطويلة يقولون له: «مسحناها... سبحان الأوّل» (البدء من جديد). ويستمرّ التناغم هكذا بين المطرب وجمهوره، ويستمرّ السهر.

سرّ دفين

• أستاذ صباح حدّثني عن مغامرات عاطفية حدثت معك ولم تخبر أحدًا عنها ...أتمنّى أن أحصل على اعترافات ببعضها. أنت فنّان كبير، ولا بدّ أنّك مررت بتجارب مختلفة عن الآخرين ...

أختي الكريمة، تجرّينني للبوح بأشياء أحببت أن أخفيها حتّى عن نفسي طيلة العمر... ولكن، وها قد تجاوزت الثمانين، يمكنني أن أقول: إن بعض الروايات صحيح... كان ذلك خلال الحرب الأهلية اللبنانية. كانت تلك السيدة تجتاز الطرق المحفوفة بالأخطار لتراني في الطرف الآخر من بيروت، وكانت تحضر حفلاتي في الشوار وأماكن أخرى، إذ كنت من بين الفنّانين القلائل الذين غنّوا أثناء الحرب (1979) وذلك في مطعم فخر الدين (لصاحبه ريمون أبو أنطون) الذي رأيت مكانه قبل أن ينشئه... فقد أراني المكان ذا الإطلالة الرائعة في برمانا، ليأخذ برأيي فيه، فقلت له لا تتردّد لأنّ المكان آية في الجمال... وما زال فخر الدين من المطاعم الممتازة في لبنان.

(ثم أضاف صباح بما يشبه الهمس وكأنه لا يريد ن يصرح على الملأ في ما يقول:)

في أيام الشبوبية تعلّقت بفتاة سمراء أحبّتني وأغرمت بي، وتوطّدت العلاقة بيننا. تظاهرتُ مرّة بالزعل منها، فما كان منها إلّا أن أمسكت بشفرة محاولة تهديدي بقطع شريان يدها، فصالحتها لفترة وجيزة، ثمّ قطعت علاقتي بها بابتعادي عنها تدريجيًّا.

• وكأنّك تخشى من اللواتي يتعلّقن بك لدرجة الوله والتملّك... وهذا ما تعرّضت له قبل وبعد زواجك.

تمامًا يا سيدتي. كوني فنّانًا، تعرّضت لكثير من المعجبات اللواتي بالغن بإعجابهنّ لدرجة خطيرة. كما أنّني لا أنكر أنّني كإنسان مليء بالإحساس والمشاعر، وقعت في شباك الحب والإعجاب... ولكنّني لم أسلّم نفسي لفخّ يخرب حياتي العائلية أبدًا، لأنّها كانت من أولوياتي ومبادئي في الحياة. فأنا بطبيعتي أرتاح لبيتي، وأعشق عائلتي. زوجتي وأولادي هم سعادتي.

(والحقّ يقال إنّي شهدت أنّ في بيته عاشقة ولهانة، لم تعرف في الحياة إلّا صباح... كنت أتابعها كلّما غنى... كانت تعابير وجهها تحكي قصّة غرام لا تنتهي. وكان تجاوبها مع النغمة والصوت فاضحًا لعشق لم أر له مثيلًا. كانت تتغمى للكلمة، وتسحب أنفاسها للمعنى، وتطلق الآه للصوت القادر. لا شكّ أن فاطمة الزهراء كانت مصدر إلهامٍ، ووحي قصيدة، وطمأنينة روح.)

• هل يعني ذلك أنك لم تشرد عن الحب الساكن في منزلك.. أرجوك كلمني بكل صراحة.

والله أعلم يا سيدتي أنني كنت في غاية الطمأنينة والارتياح لما يدور في بيتي. فقد سلّمت العائلة لربّة صغيرة قادرة على إدارة أمور مملكتها الصغيرة، فاحتضنت الدار بمن فيها بفيض من الحنان والعواطف الجياشة. كلّ هذا جعلني أرتاح إلى أنني مهما شردت، عودتي محتمة إلى حضن العائلة.. وأرجو أن لا تزيدي من التساؤل عن هذا الموضوع الحسّاس، فقد قلت لك ما فيه الكفاية. وبالنتيجة، عائلتي أوّلًا وأخيرًا...

مِنْ سيِّ وَحْيِ الحِوَار

بين صباح فخري وجمهوره صلة وطيدة، وعلاقة عميقة. ما بينهما مميّز، ومختلف عن علاقة أيّ مطرب آخر وجمهوره. وكأنّ ما بينهما تناغمٌ بُني على مدى سنين، بل نشأ قبل عشرات السنين، والحقب الزمنية القديمة.

لقد اعتمد صباح الأصالة في النغم والمعنى، فأرضى ذوّاقة المغنّى والأدب. نبش الماضي تراثًا دوّنه التاريخ، وحفره الزمن في بيئة مدينةٍ حفظت في منحوتاتها كلّ معالم الحضارة، وأودعتها قلعتها شامخةً تتحدّى نوائب الدهر، وعاديّات الزمن، لتبقى الأقدم زمنًا وثقافةً وفنًّا وعلمًا.

أخرج صباح إلى النور أنغامًا كانت ستؤول إلى النسيان، فبعثَها في حلّة جميلة، وكرّسها ثقافةً تحملها أجيال شابّة، انتُشلت نفوسها من بين تياراتٍ شبابية تغرّبت بذوقها الفنّي، خالعةً ثوب التراث الشرقيّ الأصيل، لتنطلق بمفهوم الحداثة إلى الغرب الذي نستسيغه، ولكنّه لا ينبعث من روحنا وأعماقنا، بل نبقى له مؤدّين جيّدين ومقيّمين لا أكثر.

وقد عاب البعض على صباح هروبه من التحديث، وتبنّيه اللون التراثي، ولكنّ الزمن كان كفيلًا أن يثبت أنّ النغم الشرقي يعيش في مُوَرّثاتِنا، تحتضنه صلواتنا وترتيلاتنا منذ الأزل.

ولا بدّ من أنّها كانت في معابد الأديان الباحثة عن الإله ما بين الرافدين والنيل، وترسّخت في حقبة الأديان السماوية.

وما «اسق العطاش» إلّا ترتيلة حملت دعاء أهالي حلب، بكلّ أطيافهم ومذاهبهم، كصلاة للاستسقاء، طلبًا من الله الواحد، إله الكون، الغيث والمطر. ولا بدّ من أنّها كانت قبل ذلك للإله بعل، أو لِحدد، استغاثة واستنجادًا في أيّام القحط والجفاف.

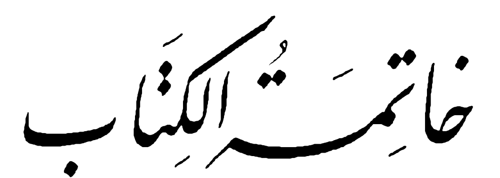
لا شكّ في أنّ الخالق منح صباح فخري صوتًا يمسّ الروح، عبر موجاتٍ تصلها لتنتشي، طالبة المزيد. كما أكرمه بذكاء يوازن به بين النغمة والمستمع، حتّى يلتحم الغناء مع الجمهور في تناغمٍ وطنين، يحلقون فيه معًا في عالمٍ من النشوة الروحانية، أشبه بالسكر المباح الذي لا يريدُ له المرء انتهاءً، لأنّه الطرب المنشودُ.

هكذا سجّل صباح رقمًا قياسيًّا في قدرته على إطراب الجمهور اثنتي عشرة ساعة متواصلة، من دون أن يتعب، أو يفقد السيطرة على جمهور في قمّة انسجامه وتجاوبه ونشوته. إنّها لم تكن اختبار قدرة على التحمّل، بل كانت التحامًا روحانيًا بينه وبين الحاضرين يصعب فكّ لُحمته.

وهذا ما يفسّر آهات الجمهور الحلبي، وما يردّده بين كلّ وصلة وأخرى، تجاوبًا وتكريمًا للمطرب المحبّب لديهم.

وصار من العرف لدى أهالي حلب، حين يحضرون حفلة صباح، أن يمارسوا طقسًا من التشجيع، يبتدئ بعد الوصلة الأولى والثانية: «ما صار ما صار» ليغيّر النغم إلى وصلة جديدة، ما أن يقفلها صباح حتّى يهتف سمّيعة حلب بـ: «سمعنا وما شبعنا»، فيجود صباح بلون آخر يستشير به الجمهور أكثر، لينتشوا ويقولوا: «هلق جينا»، فيستمرّ صباح بتناغمه مع جمهوره في وصلة أطول وأجمل، ليهبّ الجمهور واقفًا: «مسحناها... سبحان الأول»، ليتابع عملاق الطرب والأصالة إنشاءه حتّى الفجر الذي يؤذن به صباح.

وتستمرّ حفلة التطريب حتّى يحين موعد الإفطار، فيأتي دور المامونية والشعيبيات، وهو الفطور الحلبي المتعارف عليه، بعد الفول...



رحلة حياة جاوزت الثمانين عامًا، إلى ما شاء الله، اخترتُ منها مواقف ومحطّات من سيرة أسطورة الغناء صباح فخري، لأضعها بين أيدي عشّاق الفنّ الأصيل، وفي متناول كلّ فضولي يحبّ أن يعرف كلّ صغيرة وكبيرة من سيرة هذا الرجل العظيم منذ نشأته، والصعوبات التي اعترضته حين تسلّق صاعدًا جبل النجاح ليتربّع على ذروته، حاملًا معه تراثًا ثقيلًا، وكنزًا ثمينًا لا يقوى على النهوض به إلّا من أحيط به وعاش أجواءه منذ رأى نور الحياة، ومن كانت عزيمته تفوق طموحاته، وبيئته تحتضن مواهبه.

عطاء الخالق الذي منَّ عليه بحنجرة ذهبيّة وصوت قادر، لم يبخل عليه بمن أمسك بيده لينقله من محطّة لأخرى. وكانت إرادته أن يشد بأزر هذا الإنسان العصامي، ليحفظ هذا التراث، ويقدّمه للعالم بأجمل صوره وأبهى حلله.

كان لا بدّ من المرور بحلب من خلاله. بل والتأكيد على أثر تلك المدينة التاريخية في الفنّ والتراث الأصيل. انتقلت معه إلى دمشق التي تبنّته وجعلته فخرها، ثمّ طرت معه في ذكريات حفلاته في أنحاء المعمورة.

كرّمه رؤساء العالم العربي وملوكه. ومُنح أوسمةُ الاستحقاق فيه، ومفاتيحُ المدن في الأمريكيتين. طاف بمقاماته الشرقية عواصم الغرب كلّه. سجّل بصمته في الموسيقى الشرقية، كزرياب والفارابي والموصلّي، فتُوِّج ملكًا للقدود الحلبية والموشّحات الأندلسية.

أرجو أن أكون قد وفيت هذا العملاق بعضًا من حقّه، وقدّمت لحلب شيئًا ممّا تستحقّه، وللشام عربونًا من فضلها على الفنّ والأصالة.

كتابي لم يكتمل، لأنّ الحديث مع صباح فخري الذي بدأته منذ أربع سنوات، لم ينته. سأبقى على حواري معه، نسترجع من ذكرياته ما يُضاف إلى ما كُتب. ونغوص في أعماقه، نستنبط من سني خبراته حِكمًا وفلسفةً عاركته فيها الحياة، وخبرها.

وتكتمل السيرة وينبثق التراث.

شكر

أتوجّه بالشكر الجزيل لكلّ من شجّعني لأنجز هذا الكتاب.

لزوجي، **علي المدني**، الذي دعم ولادة هذا العمل، مشاركًا بتحمّل أعبائه زمنًا تجاوز السنوات الأربعة، حبًّا بصديقه صباح، ووفاءً لسورية.

للدكتورة **نجاح العطار**، نائب رئيس الجمهورية، لدعمها المستمرّ لكلّ عمل ثقافي أو تراثي في الجمهورية العربية السورية.

لإبن حلب، السيد **باسل سماقية**، الذي أحبّ أن يساهم في هذا العمل بتولّي طباعة هذا الكتاب حبًّا وإكرامًا لمدينة حلب وللفنّ الأصيل.

للأستاذ **رفيق نصر الله** الذي كان أوّل من استمع للصفحات الأولى من الكتاب، وشجّعني على الاستمرار فيه بنفس الأسلوب دون تغيير، وكانت شهادة أعتزّ بها من إعلامي كبير وأديب مخضرم مثله.

للسيّدة **فاطمة الزهراء**، زوجة الفنّان الكبير صباح فخري، التي ساهمت في إغناء الكتاب بالمعلومات التي اختزنتها، حتّى اعتبرتُها ذاكرة صباح فخري الثانية.

شقيقي الدكتور **وضاح نصار** الذي يعيش في مدينة أوكلاهوما سيتي في الولايات المتحدة، وكان يتابع معي يوميًّا كلّ خطوة أتقدّم بها في مسيرة هذا الكتاب، حتّى أنّه هو الذي اختار عنوانه «صباح فخري ...سيرة وتراث»، لأنّه رأى فيه خدمة لتراث حلب وسورية...

الأستاذ الكبير **أحمد مفتي**، الذي زيّن الكتاب بعناوين رسمها بخطّه الجميل، والذي قرأ الكتاب كاملًا قبل صدوره مبديًا إعجابه به فكرةً ونصًّا.

إلى الصديقة الغالية **ريم النمر** التي كرّست حياتها لتشجيع الحركة الثقافية ورعاية أعمال المثقّفين وساهمت في إيصال الكتاب الذي رأت فيه خدمة للتراث الفني الأصيل إلى دار النشر، والسيّدة **رنا نجار** التي تحمّست لهذا العمل ودعمت وصول الكتاب إلى دار النشر هاشيت انطوان.

وزارة السياحة السورية بشخص الدكتور **بشر يازجي** لاهتمامه بهذا المشروع. ومن ثمّ مديرية السياحة السورية.

وزارة الثقافة السورية بشخص الدكتور **أحمد الأحمد**، ومن ثمّ المديرية العامة للآثار في الجمهورية العربية السورية، لتجاوبهم السريع في منحي المعلومات والصور المتوفّرة لديهم آنذاك. وأخصّ بالذكر السيّد **نزير عوض**، الذي اهتمّ بالمساعدة شخصيًّا.

الأستاذ **كريم بقردوني** لدعمه المعنوي.

السيّدة **أسماء فريحة التي أتاحت** لنا فرصة البحث عن صور لصباح فخري من مؤسسة دار الصياد قبل إغلاق الدار.

الدكتور **سامي المبيض** الذي ساهم في تزويدي ببعض الصور التي في حوزته، بكلّ محبّة.

الدكتور **سعد الله آغا القلعة** الذي ساعدني في التحقّق من بعض المعلومات الواردة في الكتاب وتدقيقها.

الدكتور **نضال قبلان** الذي ساعدني في تصحيح معلومة وردت في الكتاب.

السيد **مروان قربللي** الذي استعنت بصور من مجموعته الفوتوغرافية الفنّية لحلب، ولم يتوان عن تلبيتي بإرسالها على وجه السرعة.

المهندس **لؤي الداخل** (صورة القلعة).

باسل نصار (صور طشقند).

السيد **نور الدين حسن** (فوتوغرافر) الذي قدّم لنا أرشيفه، اخترنا منه الجوامع.

المحامي **حسين رمضان**.

الأستاذ **سمير الشويري** لمساهمته منطوّعًا في إعادة تدقيق مفردات لغوية.

الفنّان **أنس صباح فخري** الذي استفزّني لأستمرّ في عملي حين قال: «سوف أصنع لك تمثالًا لو انتهى هذا الكتاب... » وقبلت التحدّي...

إلى مدير دار النشر هاشيت انطوان، الأستاذ **ايميل تيان**، وإلى كلّ من ساهم من خلالها في إصدار هذا الكتاب.

ربّما لم أذكر أسماء كثيرين حاولوا مساعدتي في إيجاد الصور، ولكن خانتهم الوسيلة، ولن أنساهم من الشكر من أعماقي.

وأخيراً أتوجّه بشكري وامتناني لصاحب الكتاب، للكبير **صباح فخري** الذي أصرّ أن أكون مدوّنة مذكّراته، ومحاورة أفكاره، ومؤرّخة سيرته، وراسمة غلاف هذا الكتاب الذي بين يدينا...



منحه الخالق تكويناً جسدياً قادراً على إظهار الموهبة الخلّاقة والصوت النادر، واعتمد على نفسه ليشقّ طريق المجد بعصامية، متخطّيًا كلّ الصعوبات في طريقه نحو القمّة، فوصلها لوحده متحدّيًا بصوته وأدائه كلّ العوائق، ليرفع علم التراث الأصيل منتصرًا، ويتوّج ملكًا على عرش الغناء الشرقي بجدارة لا تضاهى.

هو رسول مدينته، وناشر تراث بلده، وحامل راية وطنه، وسفيره إلى العالم أجمع. أُلقيت بين يديه رسالة الفنّ الملتزم، فكان أهلًا لها، خطّا إلى العالمية بقوّة، وحجز لنفسه مكانةً بين الخالدين.

إنّه مايسترو تراث حلب، وفنّان العالم العربي، الكبير صباح فخري...



شذا نصّار - رغم تخصصها العلمي في مجال الكيمياء الحيوية واحترافها لفترة من حياتها التدريس في مجال الصيدلة (كلية الصيدلة - جامعة دمشق)، تشرّبت ابنة حلب حبّ الموسيقى والفنّ التشكيلي والأدب. عام 1967، شاركت في تأسيس «الفرع الفنّي للفتيات الهاويات» (مديرية المركز الثقافي العربي) كأوّل فرقة عزف للفتيات قادها الأستاذ سهيل الرفاعي في حلب. درست العزف على آلة الكمان على يد وانيس كوستانيان ونجمي السكّري في المعهد الموسيقي في حلب، وشاركت في المسرحية الشعرية «أخت الشهيد» من شعر محمود درويش ويوسف الخطيب. اليوم، تصدر شذا نصّار كتابها هذا، رسالةً سامية لتكريم الفنّ الأصيل، والتراث الحلبي العريق، من خلال صاحب الحنجرة الماسية، العملاق صباح فخري.



